

المرجعية الدينية الشيعية

فوزي السيف



المُرجِعيَّةُ الدِّنيَّةُ الشَّيعيَّةُ

فُوزِي السَّيْفُ

محفوظ
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

٢٠٢٤-١٤٤٦



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

١ / هذه الصفحات لا تتحدث عن مرجعية شخص، وإنما تتناول المرجعية كنظام، وقد يتمثل هذا النظام في فقيه بأعلى درجاته، بينما يكون في فقيه آخر في درجته المتوسطة وهكذا.

وربما يكون هذا أحد الأسباب بالإضافة إلى الظروف المحيطة التي تجعل مرجعية ما، مرجعية عليا في الطائفة وتأثيرها يتعدى زمان وجود الفقيه إلى أزمنة لاحقة، بخلاف غيره.

والدعوة في هذا الكتاب هي إلى تأكيد المرجعية كنظام قيادي وإداري وتوجيهي للمجتمع الشيعي، حيث هو الباقي والمستمر بينما لا تستمر حياة شخص الفقيه والمرجع. مع دعائنا الباري سبحانه وتعالى أن يتمتع المؤمنين بطول بقاء مراجع التقليد.

٢ / هي تتحدث عن المحصلة العامة للمرجعية الدينية، ولا

تفترض الكمال في شخص كل مرجع أو العصمة في كل فعل، وقد يكون هنا ملاحظات على كل حقبة مرجعية، وقد يأتي باحث ويرى أن المرجعية (السياسية) كانت هي الأفضل أو الأكثر تأثيراً، بينما يأتي آخر ليرى أن المرجعية (العلمية والحوزوية) هي الأنسب للطائفة أو في بعض العصور ويأتي ثالث ليخالفهما، وبهذا المقدار لا مشكلة في اختلاف التقييم، بل التقسيم..

٣/ تنشر فكرة معاصرة؛ أن نقاط قوة المذهب الإمامي الاثني عشري ثلاث: المرجعية والخمس والشعائر الحسينية، وهي صحيحة في الجملة، لكن لا على سبيل الحصر والقصر، فقد يأتي شخص ويقول بل من أهم نقاطه اعتماده على الدليل والبرهان، وقد يذكر آخر نقطة أو نقاط أخرى، وقد يكون الكل صائباً فإن المسألة اجتماعية أكثر مما هي رياضية وتحمل أكثر من جواب ونظر.

ولا ريب أن المرجعية الدينية بالنحو الموجود في العالم الشيعي لا توجد في أي فئة دينية أو مذهبية أخرى.

٤/ أصل فكرة الكتاب كانت نحو عشر محاضرات أُلقيت في شهر رمضان ١٤٤٤ هـ في لندن ومانشستر من بريطانيا، وقد شجعني بعض أفاضل العلماء والمثقفين على كتابتها، فاستجبت لهم. وشرعت فيها بعد الفراغ من سلسلة النبي والعترة، وما لحقها من تصحيح المطبوع في تلك السلسلة، بطبعتي دار الوارث في كربلاء، ودار المحجة البيضاء في بيروت، ووفق الله وأعان فتمت

في يوم المبعث النبوي الشريف، على المبعوث فيه رحمة للعالمين وآله
أفضل الصلاة والتسليم.

شكرا لكل من أعان وساهم حتى أصبح هذا الكتاب جاهزا.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
تاروت - القطيف

في ٢٧ / ٧ / ١٤٤٥ هـ

تقليد الإمامية لمراجع الدين.. من أين؟

نتناول في هذه السطور مسألة التقليد لمراجع الدين والمنتشرة بين الشيعة الإمامية.. فمن أين جاءت؟

وسنذكر المسألة ثم نستدل عليها، فإنه يذكر الفقهاء: أنه يلزم على المكلف ما لم يكن مجتهداً ولا محتاطاً أن يقلّد مرجعاً في أحكامه الدينية، وفي غير هذه الصورة لو لم تنطبق أعماله العبادية على من يجب عليه تقليده فإنه في بعض الصور قد تكون تلك الأعمال محكومة بالبطلان^(١).

والآن ما معنى التقليد في اللغة والاصطلاح ومن أين ومتى نشأ عند الإمامية؟ وهل هناك تقليد ممدوح وآخر مذموم؟

(١) اليزدي؛ السيد كاظم: العروة الوثقى ١/ ١٣ (مسألة ٧): عمل العامي بلا تقليد ولا احتياط باطل.

وقد قيّد أكثر العلماء الذين لهم حاشية على العروة، قول السيد بأنه باطل إذا خالف الواقع، وبعضهم بما إذا خالف قول من يجب عليه تقليده.

وسنذكر هذه المواضيع بنحو متسلسل بالأرقام لتسهيل مأخذها:

1/ معنى التقليد في اللغة والاصطلاح:

أما في اللغة فقد قال ابن فارس في مادة «قلد» أن لها أصلين صحيحين يدل أحدهما على تعليق شيء على شيء وليه به. والآخر - على حظٍّ ونصيب. فالأوّل - التقليد، تقليد البدنة، وذلك أن يعلّق في عنقها شيء، ليعلم أنّها هدي، وأصل القلد: الفتل: يقال قلدت الحبل أفلده قلدا: إذا فتلته، وحبل قليد ومقلود. وتقلدت السيف. ويقال: قلّد فلان فلانا قلادة سوء إذا هجاه بما يبقى عليه وسمه..

وعلق عليه العلامة المصطفوي بقوله: والتحقيق: أن الأصل الواحد في المادّة: هو تعلّق مع عقد. ومن مصاديقه: تعليق القلادة وعقدها. وتعليق شيء وعقده للهدي. وتعليق وظيفة وعقدها للعامل. وفتل الحبل كأنّه يعقد ويشدّ لشيء. والتقلد بالسيف. والتعليق بنسبة سيّئة..^(١)

وأما في الاصطلاح فهو: «الالتزام أو العمل اعتمادا على فتوى المجتهد»^(٢). ويضيف بعضهم إليه توضيحاً؛ من غير مطالبة بالدليل.

(١) المصطفوي، الشيخ حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٣٠٦/٩.

(٢) فتح الله؛ د. أحمد: معجم ألفاظ الفقه الجعفري ١٢٢.

يعني أن المجتهد الفقيه غير ملزم أن يبين لمقلده دليله ومستنده في استنباط هذا الحكم أو ذاك وإن كان ربما يفعل لا سيما في البحث العلمي، لكن التقليد لا يتقوم بطلب الدليل منه على رأيه.

وربما لوحظ في التعريف الاصطلاحي كلمتا: «الالتزام أو العمل» وهذا يشير إلى قولين في تعريف التقليد، وأنه هل هو التزام نفسي بالعمل على طبق قول المجتهد أو أن التقليد هو العمل نفسه؟ ولكون البحث تخصصياً فلا مجال للحديث عن الفرق بين القولين وما إذا كانت هناك آثار مرتبة عليهما.

◀ تاريخ نشأة التقليد:

إن الناظر إلى تاريخ المجتمعات البشرية، يجد نزوعاً فطرياً عند أفرادها نحو الدين والتعلق بالله، ويتبع ذلك البحث عمن يوصل إلى حقائق الدين والعلاقة بالخالق، وقد يجد هؤلاء الناس الطريق الموصل إذا تعرفوا على الأنبياء أو الأوصياء، وقد يضلون عندما يقطع عليهم الطريق أشخاص منحرفون أو مزيفون.

لكن أصل البحث عن موصول إلى الدين وعارف به هو ضمن الفطرة البشرية، ولذلك وجدنا الكثير منهم يتبعون آباءهم وما ألفوه عليه، الأمر الذي استنكره القرآن الكريم^(١).

إن استنكار القرآن عليهم ليس في أصل الاتباع والتفتيش

(١) المائدة: ١٠٤ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

عمن يقلدونه أمورهم، إذ هو مما تقتضيه الفطرة ويحكم به العقل، وإنما استنكر عليهم لجوءهم إلى المصاديق الباطلة، كغير العقلاء وغير العلماء. وسيأتي كلام حول التقليد المذموم.

ولذلك نعتقد أن ما ذهب إليه بعضهم من القول أن التقليد أمر حادث في العصور المتأخرة (فتارة يقولون هو من زمان الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ هـ وأخرى من زمان الشيخ الأنصاري المتوفى ١٢٨١ هـ...) بعيد عن الحقيقة تمامًا، وأن الصحيح هو أنه فطرة إنسانية للبشر نجدها في تنظيم حياته الدنيوية والدينية.

فمنذ القدم حيث كان يعيش الانسان على صيد الحيوانات أو الزراعة، كان الجميع ينظرون إلى الخير في هذا ويعملون نفس العمل الذي يقوم به و«يقلدونه» فيه ويسиров معه من دون مطالبة له بأدلتة على هذه الطريقة أو تلك. فتراهم يزرعون في وقت معين وبطريقة خاصة، ويتنظرون مواسم المطر بحسب ما يرشدتهم ذلك الشخص.

هذا في أمورهم الدنيوية وكذا الحال في أمورهم الدينية فهم ينتظرون ما يقوله الكاهن لهم، وهذا ما يشير إلى النزوع الفطري الموجود عنهم. بالرغم من أن هذا وذاك قد لا يكونان صادقين!

بل نجد هذا في العصور الحديثة، فإذا أصيب شخص بمرض ما فإنه يذهب للطبيب ويأخذ بقوله ويستعمل الدواء من دون مطالبته إياه بأنه ما الدليل على ذلك، أو أنني لا استعمله إلا بأن تقنعني بوجه هذا الفعل.. ليس الأمر هكذا.

ولو نظرت إلى حقيقة اتباع الناس للأنبياء والأوصياء لرأيتة نوعاً من التقليد، فهم يصدقون الأنبياء بما جاؤوا به ويعملون بوصايا الأوصياء بما أمروهم من دون مطالبة بدليل على كل أمر من الأوامر والوجه في اختياره هذا دون غيره. وهذا هو حقيقة التقليد.

نعم لو أراد المقلد من رسول أو وصي أو فقيه أن يوضح أبعاد الأوامر الإلهية، له أن يفعل ذلك، ولكن اتباع المقلد إياه ليس مشروطاً بهذا. فقد يوضح الثواب المترتب على هذا العمل أو الآثار الدنيوية أو الأخلاقية الحاصلة منه وهذا كثير لكنه ليس شرطاً.

أما متى نشأ التقليد في الحالة الشيعية، فيظهر من الروايات المعتمدة أنه بدأ منذ زمان الأئمة المعصومين وفي وقت مبكر، أي لم يكن في زمان الشيخ الأنصاري كما زعم بعضهم، ولا في زمان الشيخ المفيد، بل ولا بعد الغيبة الكبرى للإمام المهدي عجل الله فرجه.

فقد كان في زمان الإمامين الباقر وابنه الصادق عليهما السلام، أي من حوالي سنة ٩٥ هـ فصاعداً، وكان بنحو يتصدى فيه فقهاء أهل البيت للإفتاء والاجابة على المسائل الشرعية، وكان عملهم ذلك ممضًى ومؤيداً من قبل الإمام الباقر والصادق فيما بعد.

فهذا الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام، يقول لأبان بن تغلب البكري^(١) «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإنني أحب أن

(١) وقد أشرنا في كتابنا باقر العلم: الإمام محمد الباقر إلى أبان ودوره وعلمه. فليراجع من أراد التفصيل.

يرى في شيعتي مثلك»^(١) وأمره له بالجلوس والافتاء يلزم تصحيح عمله، وتصحيح عمل من يأخذ منه الفتاوى والأحكام ويعمل بها، وهذا هو معنى التقليد من جهة المستفتي والآخذ للفتاوى، ومعنى المرجعية من جهة المفتي. ويقول الإمام ذلك فإنه عليه السلام كان ينصب مرجعية دينية توصل للناس أحكام الشريعة نيابة عن الإمام المعصوم الذي قد لا تقتضي ظروفه ذلك، لسبب أو لآخر.

وهذا التنصيب وجعل الحجية لكلامه لم يكن لأجله ذاتاً وإنما لما كان يحمل من مميزات، ولذلك قال الإمام إنه يجب أن يرى في الشيعة (مثلك) بحيث يكون حاملاً لصفاتك العلمية والعملية.

وكذلك كان الحال بالنسبة للإمام جعفر الصادق عليه السلام فإنه يرجع إلى شخصيات مهمة من أصحابه الفقهاء، فهذا ابن أبي يعفور وهو أحد الأشخاص الذين يرجع إليهم الشيعة، ويسألونهم عن أحكام الشريعة، يقول «يسألني الرجل من أصحابنا» وهذا يشير إلى حالة مستمرة ودائمة، وليس عند ابن أبي يعفور جواب كل ما يسأل عنه، فيحيله الإمام إلى محمد بن مسلم الثقفي الطائفي الذي كان بمثابة مرجعية كبرى في الكوفة، يعتمد عليها الإمام حيث كان شيعتهم كثرة في الكوفة وكان استقرار الإمام في المدينة المنورة، والحاجة إلى المسائل والأحكام قد لا تحتمل الانتظار حتى تذهب الرسائل أو الرسل إلى المدينة وتأتي بالأجوبة.

(١) النجاشي؛ أبو العباس أحمد: فهرست أسماء مصنفى الشيعة (رجال النجاشي)

قال ابن أبي يعفور للصادق عليه السلام: يسألني الرجل من أصحابنا وليس عندي كل ما يسألني عنه؟ فأجابه: «ما يمنعك عن محمد بن مسلم الثقفي فإنه سمع من أبي وكان عنده وجيها»^(١).

بل ويمضي له بعض الطرق في الإفتاء حتى لمن لم يكن شيعة لأهل البيت «إني أقعد في المسجد، فيجئ الرجل فيسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، ويجي الرجل أعرفه بمودتكم وحبكم، فأخبره بما جاء عنكم، ويجيئني الرجل لا أعرفه ولا أدري من هو، فأقول: جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأدخل قولكم فيما بين ذلك. فقال عليه السلام لي: اصنع كذا، فإني كذا أصنع..»^(٢).

وثالث يسأل الرضا: شقتي بعيدة ولست أصل إليك فممن آخذ معالم ديني؟ قال: من زكريا بن آدم المأمون على الدين والدنيا^(٣) (وهو يستبطن فكرة أن الرجوع إلى المتخصص ثابتة وإنما يسأل عن المصدق).

ولذلك لما جاء التوقيع المبارك عن المهدي المنتظر عجل الله فرجه: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم

(١) الطوسي؛ محمد بن الحسن: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ١/ ٣٨٣.

(٢) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة (آل البيت) ٢٧/ ١٤٨.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٨٥٨. ومثله ورد في شأن يونس بن عبد الرحمن ٧٨٥:

والسؤال كما يلاحظ ليس عن أصل الفكرة فهي مسلمة وإنما عن تطبيقاتها، كزكريا ويونس.

حجتي عليكم» لم يكن يؤسس لحالة جديدة وإنما يؤكد حالة قائمة.. ولهذا لا معنى لأن يقال هذا الحديث ضعيف أو قوي.

ويرى المرجع الديني السيد الحكيم رحمته الله أن بعض هؤلاء الفقهاء قد ألفوا رسائل عملية في زمن المعصومين مثل كتاب (يوم وليلة) ليونس بن عبد الرحمن.

وأما من بعدهم فكثير، ككتاب؛ المتمسك بحبل آل الرسول لابن أبي عقيل، وفقه الرضا ومن لا يحضره الفقيه للصدوقين، ومقنعة المفيد، وجل العلم والعمل للمرتضى ونهاية الشيخ الطوسي وهكذا.

2/ هل نهى القرآن عن التقليد؟

قد يقول قائل إن الله تعالى قد نهى في القرآن عن التقليد، فقد نهى عن اتباع الآباء من غير دليل..

والجواب على ذلك:

أ/ أن القرآن قد نهى عن تقليد الآباء - وغيرهم - من دون علم! فإن قسماً من الناس يتبعون الآباء بحيشة أنهم آباء! وهذا غير صحيح، وكذلك قد يتبعون ساداتهم وكبراءهم لأنهم كبراء.. وهذا أيضاً غير صحيح.

أما لو كان الأب عالماً وعاقلاً ومتخصصاً فيما يأمر به فلا مانع من اتباعه ولا يفترض أن القرآن ينهى عنه!

فلنلاحظ الآية المباركة في جوابها على من قال: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا

أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴿١﴾ وهذا يعني أن جهة الإتياع لهم كانت لأنهم آباء فأبناؤهم يتبعون سيرتهم.. أجابت الآية المباركة ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فهل يصح أن يتبعوا؟ كلا بالتأكيد. إنما الهادي إلى الحق هو الأخرى بالاتباع ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾. (٢)

ب/ كذلك نهى عن المبالغة في إتياع من يقلدوهم. فإن التقليد دائرته واضحة وتجاوزها إلى غيرها يعني الضلال، إن من يتبع النبي والوصي ويقلده أموره يفعل فعلاً حسناً وصحيحاً لكنه إذا حول المتبوع والمقلد والرسول إلى رب وإله، فهذا العمل باطل، وخارج عن دائرة التقليد!

لقد سَخَفَ القرآن الكريم طريقة بعض اليهود والمسيحيين عندما قال: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (٣)، ولا يعني ذلك أنهم عبدوهم العبادة المعهودة أو اعترفوا لهم بالربوبية، وإنما تجاوزوا ما كان ينبغي لهم إطاعتهم فيه إلى ما هو أوسع من ذلك، فاستحقوا هذا اللوم والتسخيف. (٤)

(١) سورة البقرة: ١٧٠.

(٢) يونس: ٣٥.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) الطبراني؛ أبو القاسم: المعجم الكبير ١٧ / ٩٢... عندما قال عدي بن حاتم قبل إسلامه لرسول الله وقد سمعه يقرأ الآية: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ! أجابه رسول الله: أليس يجرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونونه، قال: قلت: بلى، قال: فتلک عبادتهم.

فهذان موردان قد نهي فيهما عن التقليد:

◀ تقليد من ليس أهلاً للاتباع والتقليد، من الآباء وأرباب السلطة والكبراء، بحيثية قرابة الأب وسطوة الكبير والسلطان!

◀ وتوسعة دائرة من يستحق التقليد إلى حد تحليل الحرام وتحريم الحلال.

3/ الطرق المتصورة للوصول إلى أحكام الله في هذا الزمان:

مع الاعتراف بأن الله سبحانه قد خلق البشر لغاية ولم يخلقهم عبثاً! ولم يتركهم سدى! ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١) أي مهملاً؟ وأنه لأجل تلك الغاية كما يقول أمير المؤمنين «بعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته. ويحتجوا عليهم بالتبليغ. ويشيروا لهم دفائن العقول»^(٢).

وحيث أن الأنبياء كما قال الله ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(٣) كان لا بد من أئمة هداه وقادة ولادة، فقال النبي (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي). وحين قضت حكمة الله بغياب آخر الأئمة، كان إما أن تنقطع هذه السلسلة أو تستمر، والأول باطل.. فيتعين الثاني؛ ويرجع الأمر هل تركهم سدى؟ أو أنهم يكتفون بما عندهم؟ أو يعين لهم طريقاً.

(١) القيامة: ٣٦.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة، خطب الإمام علي ص ٤٣.

(٣) الزمر: ٣٠.

الأول باطل، والثاني: يبطله الحاجة الدائمة للتشريع ومعرفة أحكام الله تعالى.. فالقضايا متجددة في العبادات والمعاملات ويكفيك في تصور ذلك؛ ما قاله الإمام الصادق في جواب زرارة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «جعلني الله فداك أسألك في الحج منذ أربعين عاما ففتيتني، فقال: يا زرارة بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاماً»^(١).

وما دام الأمر هكذا، حيث لم يترك الإنسان سدى، وكان مطالباً بتطبيق أحكام الله على حياته، فهناك الطرق التالية المتصورة:

الطريق الأول: استفت قلبك!

وقد ذهب بعضهم إلى هذا الطريق وخصوصاً في هذه الفترات، وقد اعتمدوا على أمرين: كثرة الاختلافات الموجودة بين العلماء في المسائل، حيث لا نعرف أي حكم هو الحكم الصحيح بينهم. واعتمدوا أيضاً على ما نقل في بعض مصادر مدرسة الخلفاء من أن وابصة الأسدي جاء إلى رسول الله ﷺ ليسأله مسائل، فاستدناه النبي ﷺ «قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: «يا وابصة أخبرك أم تسألني؟» قلت: لا بل أخبرني. فقال: «جئت تسألني عن البر والإثم» فقال: نعم. فجمع أنامله فجعل ينكت بهن في صدري، ويقول: «يا وابصة استفت قلبك، واستفت نفسك» ثلاث مرات «البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس

(١) الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: من لا يحضره الفقيه ٢/ ٥١٩.

وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(١).

وظاهر ما يستدلون به أن القلب هو المقياس في معركة الأحكام، وأنه حتى لو أفتى المفتون والناس بشيء فلا ينبغي أن يتبعهم وإنما ينظر ما قبلته النفس واطمأنت إليه فيأخذ به.

وإذا تم هذا الاستدلال فإنه لا حاجة عندها للذهاب إلى الفقيه أو تقليد المجتهد، إذ نفس كل انسان معه، وما عليه في كل مسألة إلا إن يعرضها على نفسه ويرى هل يقبلها قلبه أو يتردد فيها! إلا أن هذا الاستدلال لا يتم وهذا الطريق لا يمكن القبول به:

أولاً: لأن الحديث المذكور والذي لم ينقل في مصادر الإمامية، ومن ذكره من الإمامية كصاحب الميزان فإنما هو ناقل عن مدرسة الخلفاء، وهو منقول عند الناس مجتزأ، ومفهوم بخلاف المراد منه.

وما استفاده بعضهم من أنه لا داعي إلى التقليد والمرجعية والرجوع إلى العلماء، والحال أن النبي بنفسه قال: «استفت قلبك وإن استفتاك الناس وأفتوك»؟! فإذن، استفت قلبك، لا أن تستفتي الناس والعلماء.

هذا المعنى لا ريب أنه غير صحيح، فإنه يتعارض مع ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ويتعارض مع أن الإنسان يُسأل

(١) حنبل؛ أحمد: مسند أحمد ٢٩ / ٥٣٣. وقد نقل في غيره من المصادر لكنه وصف من بعضهم بأنه ضعيف وفيه أكثر من علة!

(٢) الأنبياء: ٧.

في يوم القيامة: لم لم تعمل، فيقال لم أكن أعلم، فيقال له: هلا تعلمت، فيخصمه، وهذا من مصاديق ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ ويتعارض مع حكم العقل برجوع غير العالم إلى العالم..

فإن صح صدور الحديث عن رسول الله ﷺ، فإنه يشير إلى أن وابصة لما كان بصدد أن يسأل النبي ﷺ عن كل مفردات الاثم والشر في الدنيا! وهذا بالطبع لا ييسر استيعابه لا في يوم ولا في شهر، فأراد النبي أن يعطيه قاعدة عامة ووجدانية يميز بها مصاديق الشرور والآثام، فيما لم يكن يعرف حكمه الشرعي المباشر عليه، فأرشده إلى حكم فطرته عليه، وتعامل عقله مع ذلك المصدق، فإذا وجد الأمر طبيعياً سلساً، واطمأن إليه القلب، ولم تمجّه الفطرة، فليقدم عليه وإلا فإن تلجلج في صدره وحاك في داخله واستيقظت به النفس اللوامة، فليجتنب!

وإلا لو كان يعلم بحكمه الشرعي، فلا معنى لأن يعرضه على عقله أو نفسه ما دام قد حكم الله عليه بالحرمة فلا معنى لانتظار حكم النفس.. نعم في موارد الاشتباه وعدم تبين الأمر، يستطيع عرضه كما قيل. إن الصدقة على الضعيف لا ريب تختلف - في حكم الفطرة - عن سرقة مال اليتيم من دون علمه! فالأول منسجم مع الفطرة حتى لو لم تأت الأحاديث باستحبابه، والثاني مستقبح عند العقل حتى لو لم تأت التشريعات بمنعه! ^(١)

(١) آل سيف؛ فوزي: الأمراض الاخلاقية ١/ ١٠٦.

وثانيًا: فإن موضوع «استفت قلبك» قد عينه الحديث في أمر الإثم والبر، وهما أمران بإمكان الفطرة السليمة الوصول إليهما، من خلال عرضهما عليها، وأما تفاصيل الأحكام كأحكام العبادات والمعاملات فلا مدخلية لها فيها، وإلا لما كان الرسول يأتي بالأحكام من عند الله، ولما كان يقول: «صلوا كما رأيتموني أصلي» و«خذوا عني مناسككم» ولما كان يُدب نفسه في تعليم الناس الكتاب والحكمة! وكان يكتفي بدلًا من ذلك بالقول: استفتوا قلوبكم وما أفتكم به فخذوه! فإذا تردد الأمر بين سبعة أشواط أو ثمانية أو أربعة فليعرض الأمر على القلب، فإن حاك في الصدر عدد فليجتنبه! وإن قبلته النفس فليأخذ به! ولكننا لا نجد النبي يقول ذلك. بل المرجع في ذلك هو أن يتعلم الحكم الشرعي وأن يعمل به وإلا يقال له هلا تعلمت فيخصمه كما مر آنفًا.

وثالثًا: فإن من المعلوم أن قلب الإنسان وهو الجانب العاطفي، إن كان المقصود به هنا ما يقابل العقل، فإنه غالبًا ما يميل إلى ما تشتهي النفس ويلتذ به الهوى، وهو واضح. ولذلك نقل عن أبي حامد الغزالي قوله: «لوفتح هذا الباب لانسد باب جميع التصرفات، وخرب العالم. إذ الفسق يغلب على الناس، ويتساهلون بسببه في شروط الشرع في العقود، ويؤدي ذلك لا محالة إلى الاختلاط»^(١).

وإن كان المقصود من القلب هنا هو العقل كما هي استخدامات القرآن الكريم لكلمة القلب، فإن العقل إنما تقبل أحكامه في الأمور

(١) الغزالي؛ أبو حامد: إحياء علوم الدين ٢/ ١٠٤.

الكلية بل لقد حصرها بعضهم في مثل: قبح الظلم وحسن العدل.
فلا مدخلية له في إقرار تفاصيل الأحكام.

ورابعاً: فإنه قد يكون المقصود بعيداً عن هذه المعاني وأن المراد هو أن الإنسان إذا كان يعلم بأن الحق ليس له (كمالٍ أو دين أو عقار) فإن حكم القاضي له بالتملك لا يجعل ذلك ملكاً له، فليستفت قلبه هنا فإن قلبه يقول له بأن ذلك ليس من حقك ولا تملكه!

الطريق الثاني: أن يجتهد الانسان بنفسه في استنباط الأحكام

بحيث يصل إلى تلك الدرجة العالية من المعرفة العلمية التي يستنبط بها الأحكام الشرعية من مصادرها. ولا ريب أن هذا طريق جيد، بل لقد رآه بعضهم هو الواجب المتعين على البشر! فإنهم بعدما عرفوا بتلك المقدمات المذكورة أول الفصل أنهم مسؤولون ومخاطبون، كان عليهم تحصيل فراغ ذمتهم من تلك التكاليف والمسؤوليات، ولو توقف ذلك على الاجتهاد والبحث في الكتاب والسنة وصرف مقدار من العمر فيه لأنه يتوقف عليه نجاتهم يوم القيامة من العذاب الإلهي.

فإذن ينتهي هذا الطريق إلى لزوم الاجتهاد وتحصيل الفقهية والدرجة العالية من المعرفة الدينية حتى يتعرف المكلف على أحكام الله عز وجل.

وكما قلنا هذا الطريق طريق سليم، إلا أنه غير واقعي بالنسبة لكل الناس إلا أقل القليل. وأمامك الحياة الاجتماعية فانظر إليها؛

لترى أن أكثر الناس - لانشغالهم بأمور حياتهم - قد لا يجدون الوقت الكافي لتعلم كيفية الوضوء والغسل والصلاة وهي الحاجات اليومية في الطهارة والفريضة، ولذا ترى بعضهم في أواسط عمره وهو لا يتقن وضوءاً ولا غسلاً ولا صلاة.. أفترى هذا وأمثاله قادرين على تحصيل الاجتهاد لمعرفة الأحكام الشرعية بأدلتها؟

إن ذلك مثل أن تقول للناس: ليكن كل منكم طبيب نفسه وبيحث عن علاج أمراضه، فيدرس خواص المواد وتأثير الأدوية في البدن، ويصف لنفسه العلاج متى احتاج إلى ذلك! فهل هذا ممكن؟ وهكذا الحال بالنسبة لسائر أمور الحياة.

إن من يحصل على ملكة الاجتهاد في الحوزة العلمية قد لا يشكلون نسبة مئوية! مع انهم متفرغون ليل نهار لهذا الأمر، وطلاب الحوزات العلمية لا يشكلون نسبة في العشرة آلاف أو المئة ألف من أبناء كل مجتمع! فكيف سنطلب من أبناء المجتمع أن يسلك كل منهم طريق الاجتهاد ليؤدي ما عليه من فروض وتكاليف شرعية؟

فهذا الطريق كسابقه لا يمكن الاعتماد عليه، بفارق أن الأول غير صحيح وهذا غير ممكن.

الطريق الثالث: أن يحتاط المكلف والمؤمن في الاحتمالات:

وهو ما يسمى بطريق الاحتياط، وهو سبيل نجاة، بمعنى أن المكلف ينظر في كل مسألة فإذا رأى فيها أكثر من رأي وأكثر من

احتمال فيأتي بالمحتملات كلها، وعندها يطمئن إلى أنه قد حقق ما يجب عليه. فمثلاً لو تردد أمر شيء بين الإباحة والحرمة كالتظليل أثناء الإحرام في الليل، فهناك من يقول بحرمة التظليل وإن كان في الليل، وهناك من يرى جوازه (مع بعض التفاصيل) فيأتي المكلف هنا ويحتاط بأخذ جانب الحرمة ويترك التظليل، وهو ملتزم بالحكم الشرعي هنا على كل حال. فإنه لو كان حراماً في الواقع فلم يأت به، وإن كان حلالاً في الواقع لم يضره أن ترك التظليل!

وإذا تردد الأمر بين محتملين يمكن الجمع بينهما، جمع بينهما كما لو تردد الأمر بين القصر والتمام في المسافة الملققة التي سيئات ليلة في أثنائها فإنه يحتمل أن يكون مطالباً بقصر الصلاة، ويحتمل أن يطالب بالتمام، وطريق الاحتياط الجمع بينهما. بأن يصلي قصرًا أولاً وتاماً ثانياً أو بالعكس.

وهكذا فإنه يحتاط في كل مورد بحسبه فيطمئن بعد ذلك إلى أنه أتى بما هو واجب عليه!

وهو طريق جيد إلا أنه تعترضه مشاكل متعددة منها:

◀ أن معرفة أطراف الاحتمال في المسائل الفقهية يحتاج إلى استقصاء ومعرفة فقهية مفصلة، قد لا تيسر لبعض طلاب العلم المتخصصين فما ظنك بالإنسان العادي المشغول بكسب معيشته، كالفلاح في أرضه والنجار في ورشته وسائق التاكسي في مشاويره والموظف في شركته؟

إننا نلاحظ في أيام الحج كيف أن حفظ بعض المسائل الابتلائية لأكثر الحجاج هو من العسر بمكان، ولا يتم منسك الحج إلا وقد خاضوا في الشك خوفاً، فكيف يستطيع هؤلاء أن يجمعوا بين معرفة محتملات الاحتياط فضلاً عن تطبيقها؟

◀ ومنها أن الاحتياط في بعض الموارد غير ممكن أو متعسر فإن في الصوم قولاً بأن من يسافر للعمل فإنه يصوم ولا يجوز له الإفطار، دون من يسافر لا للعمل بل للنزهة، والقول الآخر بأنه حتى من يسافر للنزهة فإنه يصوم ولا يجوز له الإفطار.. فماذا يعمل هنا المكلف الذي يريد الاحتياط فهل يصوم ويقضي؟ أو ماذا يصنع؟ وأوضح منه لو قيل بحرمة صلاة الجمعة في عصر الغيبة كما هو رأي بعضهم، وقيل - على رأي آخر - بوجوبها عيناً.. فكيف يحتاط؟

◀ ومن تلك المشاكل أن بناء حياة الإنسان على أساس الاحتياط مع ملاحظة ما سبق، هو نفسه عسر وحرَج، فكيف يكون هذا الإنسان مكلفاً به، نقول هذا حتى لا يقال: إنه يمكن الاحتياط حتى يصل إلى مرحلة العسر والحرَج! فنقول نفس التكليف بهذا النحو وبناء الحياة على هذا الأساس هو عسرٌ لا يمكن للشرع المقدس أن يكلف به وهو الذي يريد بالناس اليسر.

الطريق الرابع: التقليد للفقهاء

وهو الطريق الشائع والرائج الآن بين الإمامية بنحو واسع.
وهو يعتمد - بعدما بطل الاعتماد على الطرق السابقة للأسباب
المذكورة - على جعل الشرع المقدس طريق تقليد المكلف للفقهاء
المجتهد في علوم الدين طريقاً سليماً من الناحية الشرعية ويسيراً من
الناحية العملية.

وقد استدلوا عليه بأنحاء مختلفة؛

◀ منها بسيرة العقلاء في رجوع غير العالمين إلى العالمين في
مختلف أنحاء حياتهم؛ فغير العالم في الطب يرجع إلى العالم
في هذا الميدان ويعتمد قوله، والشخص الذي يريد بناء
منزله ولا معرفة له بهندسة البناء تراه يرجع إلى المهندس
ويأخذ بتوجيهاته. وقد أرشد إليها القرآن الكريم بقوله
سبحانه وتعالى ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

◀ ومنها بما ورد من أحاديث عن المعصومين عليهم السلام، تجتمع
في مضمونها على قضية واحدة هي تقليد غير العالم
للعالم في أمور دينه وأخذه عنه، ولا يضر ضعف بعضها
من حيث السند، فإن مجموعها يكاد يتحقق معه التواتر
المعنوي والاجمالي.

فمنها الرواية المشهورة: «وأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه

حافظا لدينه مخالفا لهواه مطيعا لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»^(١).

ومنها ما ورد في إرجاعهم عليه السلام بعض أصحابهم إلى فقهاء رواتهم وهي كثيرة، كقول الإمام الصادق: ما يمنعك من محمد بن مسلم فإنه كان عند أبي وجيها.

وقول الإمام عليه السلام: خذ من زكريا بن آدم المأمون على الدين والدنيا.

ومنها: ما رواه معاذ بن مسلم النحوي عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «بلغني أنك تقعد في الجامع، فتفتي الناس؟ قلت: نعم، وأردت أن أسألك عن ذلك قبل أن أخرج، إني أقعد في المسجد، فيجئ الرجل فيسألني عن الشيء، فإذا عرفته بالخلاف لكم أخبرته بما يفعلون، ويحيي الرجل أعرفه بمودتكم وحبكم، فأخبره بما جاء عنكم، ويحييني الرجل لا أعرفه ولا أدري من هو، فأقول: جاء عن فلان كذا، وجاء عن فلان كذا، فأدخل قولكم فيما بين ذلك. فقال عليه السلام لي: اصنع كذا، فإني كذا أصنع»^(٢).

قال السيد الخوئي رحمته الله في تعليقه على تلك الأخبار: «الأخبار المشتملة على الأمر الصريح بإفتاء بعض أصحابهم عليه السلام كقوله لأبان بن تغلب: اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإني أحب

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري ص ٣٠٠ وعنه نقل الطبرسي في الاحتجاج ٢/ ٢٦٣ والحر العاملي في وسائل الشيعة ٢٧/ ١٣١.

(٢) الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة (آل البيت) ٢٧/ ١٤٨.

أن يرى في شيعتي مثلك وقوله لمعاذ بن مسلم النحوي... وهذه الطائفة لا إشكال في دلالتها على جواز الافتاء في الأحكام، كما أنها تدلنا على جواز التقليد والرجوع إلى مثل أبان أو معاذ، إذ لو لم يجوز تقليده بأن لم يكن فتواه حجة على السائل لم يكن فائدة في أمرهم عليه السلام بإفتائه لأنه حينئذٍ لغوٌ ومما لا أثر له»^(١).

ولا نرى في هذا الطريق مشكلة في أصله ولا في تطبيقه ولا يلزم منه أي نحو من أنحاء العسر أو الحرج، كما أنه يجعل كل فئة في موقعها الاجتماعي والعملي فلا يشغل الطبيب عن طبه ولا المزارع عن فلاحته ولا الموظف عن وظيفته وهو في نفس الوقت على اطمئنان تام أنه يأتي بما يجب عليه من الأحكام الإلهية من خلال استنباط الفقهاء العدول لها، مصداقا لقول الله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

وإنّ ما نراه من التجربة الرائعة للشيعة منذ أزمانهم الأولى حتى يومنا هذا ليضاف إلى الأدلة، حيث يكون الوجدان شاهدا على صوابية هذا الطريق بالإضافة إلى ما سبق.

(١) التنقيح ١/ ٧١.

(٢) التوبة ١٢٢.

هم العدو.. هؤلاء ضد المرجعية

يقرر القرآن الكريم في سور متعددة ولا سيما في التوبة والأنفال والمنافقون وجود أعداء للدين الإسلامي ولرسوله الكريم، ولا يكتفي بذلك بل يعين صفاتهم ونمط تفكيرهم بل وأقوالهم المعلنة وحالاتهم، ولا يغفل إلا الأسماء لأن الأعداء هؤلاء يسلكون نفس الطرق ويفكرون بنفس النمط وتتشابه قلوبهم، حتى لكأنك ترى في الجيل المتأخر وجوه الجيل المتقدم، ولهذا لا ينبغي حصر هذه الصفات في أسماء خاصة، لأن الأسماء تنتهي بموت أصحابها لكن الطريقة والأسلوب باق ومستمر فالصحيح هو أن يركز القرآن الكريم على الأفكار والطريقة والأساليب، حيث هي الباقية والمستمرة.

تراه في سورة (المنافقون) بعد أن يذكر شيئاً من صفاتهم يقول
﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ﴾^(١)

(١) المنافقون ٤.

وانطلاقاً من هذه الآية المباركة وتمثلاً بها نذكر بعض صفات أعداء المرجعية الدينية الشيعية، تعريفاً بهم وتحذيراً للطائفة منهم، وقد لا نحيط في هذا المقال بهم ولكننا نذكر أهم عناوينهم وصفاتهم:

◀ وأول الأعداء: الجهات الاستعمارية:

فهذه الجهات في سياق عداوتها للإسلام تعادي كل ما يقوي هذا الدين وأبناءه الملتزمين به. وسواء كانت تنطلق هذه الجهات الاستعمارية من منطلق اقتصادي يهدف إلى السيطرة على ثروات بلاد المسلمين ونهبها، كما هو واضح منذ قرون وبمختلف الوسائل (من عسكرية وسياسية وغيرها) أو كان من منطلق عدااء ديني كما يحتمله البعض أو هما معاً، فإن هذه الجهات - لا ريب - وقد درست أوضاع المجتمعات المسلمة قد اطلعت على نقاط قوتها، فإنها شخصت أن العامل الديني هو أقوى مقومات هذه المجتمعات والحامي لأخلاقياتها، والعامل الديني في المجتمع الشيعي يرتكز على النظام المرجعي الذي يحمي وحدة المجتمع، ويُحكم مسيرته الدينية.

إن التزام المجتمع الشيعي بفكرة «التقليد» وهي التي تستبطن طاعة المرجع الديني الفقيه في أوامره ونواهيه السياسية والاجتماعية فضلاً عن تفاصيل الأحكام الشرعية يفوّت على الجهات الاستعمارية كثيراً من خططها ومؤامراتها.

ولعل ما جرى في التاريخ الحديث من مقاومة مراجع الدين لمخططات الاستعماريين في العراق وإيران وغيرهما من المناطق وما

واجه الاستعماريون من فتاوى حازمة كما حصل في فتوى الميرزا الشيرازي الكبير بتحريم التعامل مع البريطانيين في شراء وبيع التبغ في القصة المعروفة والتي سميت بثورة التباك، وهكذا ما حصل من السيد المجاهد في تحشيد للقتال ضد الروس حين اقتطعوا من إيران بعض ولاياتها في ظل تحاذل حكامها من الشاهات، وما حصل من الميرزا محمد تقي الشيرازي في مواجهة البريطانيين في ثورة ١٩٢٠ م، وفي غيرها وغيرهم من الأحداث والمرجعيات زاد قناعة المستعمرين بأن المرجعية الدينية هي عقبة كؤود أمام تقدمهم في السيطرة على بلاد المسلمين وثوراتهم وأفكار أبنائهم.

ومن الطبيعي هنا أن يعملوا في مواجهة هذه المرجعية، بشتى الوسائل والأساليب لحذفها من المجتمعات المسلمة وتقليل تأثيرها وإضعاف علاقة الناس بها. فلم يدخروا جهداً في ذلك إلا واستخدموه.

إذا كان الاستعمار في السابق يحتاج إلى أساطيل وبوارج عسكرية، فإنه اليوم لا يحتاج إليها؛ بل يكفيه تلامذته الذين أنتج ثقافتهم وجعلهم يعبدون الغرب ونموذجه الحياتي والفكري، وأصبحوا يربطون المجتمع بذلك النموذج البائس أخلاقياً ودينياً وقيماً وإن كان زاهي الألوان بحسب العمران والأدوات. هو الآن لا يحتاج للعسكر لأن لديه عسكرياً يلبس نفس لباس المسلمين ويتكلم بلغتهم ونسبه فيهم لكن فكره يستقي من عين بعيدة وفكرة غريبة. نفس هذا العسكر سيسيطر على وزارة التعليم والثقافة

والإرشاد بل ربما القضاء أو حتى رئاسة البلاد، وسينتهي إلى إعداد مثل شيخ فضل الله النوري. والشهيد الصدر وأمثالهما. وسيسعى لتفتيت دور الحوزة العلمية والمرجعية الدينية في الأمة، بحيث تعيش على هامش الهامش!

سيستفيد هؤلاء من جهاز الكذب الإعلامي المركز، وهم يسيطرون على أكثر أدواته في تشويه صورة المرجعية الدينية، بدلاً من القتل بالسم كما كانوا يصنعون^(١) وتتجه أصابع الاتهام لهم، فيغيرون الأسلوب بحيث يتهم أحد القذرين منهم المرجعية العليا الدينية في النجف الأشرف بأنها قد استلمت مبلغ كذا مليون من المال لكيلا تفتي ضد المستعمرين!

وهذا ليس غريباً! إذ أن أولئك لا يعتقدون جنة ولا ناراً ولا حساباً ولا نشوراً، وإنما هو ربهم الدولار الذي يعبدونه طيلة حياتهم! إنما الغريب هو أن يصدق بعض المسلمين ذلك، إما لسداجة منهم بل بلاهة! وإما لتصفية حسابات مذهبية طائفية أو حتى توجهات شخصية!

◀ الثاني: الجهات الطائفية المتعصبة:

إذا كان العدو الأول وهو الجهات الاستعمارية من خارج

(١) حيث أن وفاة بعض مراجع التقليد كانت في ظروف استثنائية، ولم تسبق بأمراض معروفة، فقد احتمل كثير من الباحثين بل ومعاصرو أولئك المراجع أن تكون وفاتهم بالاغتيال بالسم والمواد الخفية، ونقل ذلك في حق الميرزا محمد تقي الشيرازي، والآخوند الخراساني، بل والسيد محمد المجاهد الطباطبائي.

الدائرة الإسلامية فإن العدو الثاني للمرجعية الدينية الشيعية هو من داخل الدائرة المسلمة، وهو الجهات الطائفية المتعصبة.

ولا بد أن يكون واضحاً هنا أننا لا نقصد أتباع مدرسة الخلفاء؛ ممن يرون - كما نرى - أن التعدد في المذاهب واختلاف الآراء بتبعها هو أمرٌ طبيعي؛ كان وسيبقى ولا مجال إطلاقاً لتوحيد المذاهب في مذهب واحد، واتباع منهج فارد، ولقد باءت محاولات الكثير من الحكام الذين سعوا في هذا الطريق الشائك بالفشل.

نعم ما ينبغي أن يكون سائداً هو التسالم والتواصل الاجتماعي، ولكل طريقه ومنهجه، فما يتم الاتفاق عليه بين المذاهب وهي الأصول العامة يُتعاون فيه ويُتشارك الجهد في دعمه، وما يختلف فيه ينفرد أتباع كل مذهب بمتفرداتهم مع المحافظة على احترام رموز الطرف الآخر، وتجنب مناطق التوتر الحمراء.

غير أنه كما وجد في الدائرة الاجتماعية لأتباع أهل البيت من يقوم بمناكفة أتباع مدرسة الخلفاء بالتركيز على ما يستثيرهم!

فقد وجدنا بعض الجهات الطائفية في أتباع المذهب الآخر وكأنها قد جعلت رسالتها هي إسقاط المرجعية الشيعية.

وتتعجب من بعض هؤلاء حيث يفترض فيهم أنهم يقدمون أنفسهم باعتبارهم علماء عارفين بالشريعة الإسلامية، ولكنهم يدخلون في هذا المستنقع إما بدوافع شخصية مادية، أو دوافع سياسية يخدمون فيها بعض الأنظمة الفاسدة، أو أخرى طائفية

مذهبية؛ فإذا ببعضهم مثلاً يكفر العلماء والمراجع لأنهم - بزعمه - يعرفون الحقيقة وهي في نظره أن التشيع باطل، ومع ذلك لا يكشفون تلك الحقيقة لأتباعهم! أرأيت عزيزي القارئ حماقة أكثر من هذا القائل ومن هذا القول؟ العلماء الذين يؤلفون عشرات المجلدات يستدلون فيها على حقانية التشيع وبطلان ما يخالفه من الآراء، وقيمون البراهين على ذلك.. في رأي هذا (الفتحل) هم يعرفون حقيقة بطلان التشيع ولكن يخفون ذلك عن أتباعهم! ولهذا يعتقد أنهم كفار!!

ومثل هؤلاء في حماقة! أولئك الذين يعتبرون أن المرجعية الدينية (بل وعموم الجهاز الديني الشيعي) يخدع الناس ويضحك عليهم بأخذ أخماس أموالهم والتنعيم بها والتصرف فيها بغير حق!

وجهل هؤلاء أن موضوع الخمس ووجوبه هو من الأمور التي اتفق عليها المسلمون، غاية الأمر أنهم اختلفوا في سعة دائرة هذا الموضوع فذهب فقهاء مدرسة الخلفاء إلى أن موضوع الخمس خاص بغنائم الحرب فقط، بينما قال فقهاء مدرسة أهل البيت إلى أنه يشمل ذلك كما يشمل أرباح المكاسب، وموضوعها موجود في هذا الزمان.

كما جهلوا أيضاً أن الخمس الذي يدفعه عامة الناس، كذلك يدفعه طلاب العلم، بل ومرجع التقليد إن كان هؤلاء أموال تزيد على مؤونتهم السنوية.

إن هؤلاء وأمثالهم هم كالذين يأتون من خارج الدائرة الإسلامية فلا يستوعبون بعض الأعمال والواجبات ويقومون بالتشويش، فإذا رأوا الحج ومناسكه تعجبوا من رمي الجمار بالاحجار! وتعجبوا من أخذ الإسلام الزكاة والصدقات من الأغنياء وإعطائها الفقراء.

ويزيد هؤلاء على أولئك سيئة وهي أنهم يقومون بتحريض الأنظمة الظالمة على المرجعيات الشيعية وأتباعها، فيهيئون الجو الديني لتلك الأنظمة الجائرة ليتقموا منهم. وبمجاز شرعي!

◀ العدو الثالث: في داخل الدائرة الشيعية

وهذا العدو أكثر من سابقه غرابة، إذ السابقان يمكن أن يتصور فيهما العداوة للجهات التي قلناها، ولكن أن تكون فئة أو فئات من داخل الدائرة الشيعية، ترفع الشهادة الثالثة بولاية أمير المؤمنين علي في أذانها والإقامة، وتعزي كما يعزي الآخرون على الإمام الحسين وتبكيه كما يبكونه!

ومع كل المشتركات التي بينها وبين المرجعية الدينية وسائر الشيعة قد تكون أشد عداوة لها من كل أحد! وأشنعها حرباً عليها، وتتنوع هذه الفئات في عناوين متعددة.

◀ فمنها أصحاب الدعوات المهدوية الكاذبة:

وليتضح أمر هؤلاء نقول: إن الشيعة يعتقدون بأن الأئمة المعصومين هم اثنا عشر؛ أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم الإمام

محمد المهدي بن الحسن العسكري عليه السلام، والإمام المهدي قد غاب غيبتين: صغرى كان له فيها سفراء خاصون أربعة، وكبرى وقد بدأت بعد موت السفير الرابع ومعناها أن الإمام عليه السلام محتجب عن الأبصار، وغائب ولو بالغيبة العنوانية عن الناس، فلا يوجد له نائب خاص ولا سفير يلتقيه! وبهذا المعنى ورد التوقيع الشهير عنه في تكذيب من ادعى المشاهدة^(١).

وأن البديل عن ذلك هو نظام المرجعية وأن «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه».

وقد سار على هذا المنهاج شيعة أهل البيت منذ غيبة الإمام الكبرى بالشكل الواسع، أكثر مما كان في زمان الأئمة من المرجعية المحدودة والتي أشرنا لها في بحث التقليد، من ارجاع الأئمة عامة أصحابهم إلى بعض فقهاءهم ورواتهم المميزين. يعني أنه بهذا الترتيب الجديد وبهذه النيابة العامة (من كان من الفقهاء..) قد انقضت مرحلة النيابة والسفارة الخاصة (التي كانت ممثلة بالسفراء الأربعة)^(٢).

(١) لتفصيل هذه المعلومات مع نصوصها يمكن للقارئ الكريم مراجعة كتابنا في سلسلة المعصومين: الإمام المهدي عدالة منتظرة..

(٢) في تاريخ الإمام محمد بن الحسن (المهدي المنتظر)، تذكر غيبته عجل الله فرجه في مرحلتين؛ الغيبة الصغرى له وتبدأ بسنة ٢٦٠ هـ وتنتهي بسنة ٣٢٩ هـ وقد عين الإمام عليه السلام أربعة نواب وسفراء خاصين عنه خلال هذه السنوات وهم عثمان بن سعيد العمري (من سنة ٢٦٠ إلى ٢٦٥ هـ) وابنه محمد بن

في هذه النقطة يأتي بعض الكاذبين فيدعون نيابة خاصة عن الإمام سعيًا وراء الرئاسة والزعامة أو المال والأتباع أو غير ذلك، وتتعدد دعاواهم؛ فتارة يقول بعضهم إنه ابن الإمام المهدي (!) ولا يعتني بالإجابة على سؤال عن الفاصلة الزمانية بينه وبين الإمام! بل بعض من يدعي ذلك هو لا ينتسب للأسرة النبوية، وأسرته معروفة في منطقته وهم ليسوا من سادة أهل البيت.. لكن لا يهتم بذلك!

وبعضهم يزعم أنه باب الإمام ويجتمع معه وقد وكله الإمام المهدي بشيعته!! وهو موضع سر الإمام! وعندما تسأل أتباع هذا الشخص: عن ميزته حتى يكون كذلك! فهل له ميزة علمية أو سلوكية أو غير ذلك؟ ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^(١).

وبعضهم يستعين بالأحلام والرؤى والأطياف.. وبدلاً من أن

عثمان العمري (من سنة ٢٦٥ إلى ٣٠٤ هـ) والحسين بن روح النوبختي (من سنة ٣٠٤ إلى ٣٢٦ هـ) وعلي بن محمد السمرى (من سنة ٣٢٦ إلى ٣٢٩ هـ).. وقبل موت السفير الرابع السمرى بأيام صدر عنه الإمام عليه السلام توقيع (بيان) يشير فيه إلى أن السمرى سيموت، وبأن باب اللقاء عن طريق السفراء الخاصين قد أغلق، وما يرتبط بأمور الاستفتاءات الدينية والمعارف الشرعية ينبغي أن يؤخذ من الفقهاء العدول، وأن التقليد ينبغي أن يكون لهم. وبموت السمرى بدأت الغيبة الكبرى، والتي نحن نعيش في زمانها. ولتفاصيل هذه المعاني، ومسؤولية المؤمن في زمان الغيبة هذه، يمكن مراجعة كتابنا: الإمام المهدي: عدالة منتظرة. في سلسلة النبي والعتره.

يجيب على أسئلتك براهين علمية يقول لك مثلاً: هذه الليلة سترى في المنام ما يكون دليلاً لك! وهؤلاء يعتمدون على جهة نفسية هي أن الكثير من الأحلام والرؤى هي عبارة عن انعكاس لما يفكر فيه الإنسان من آمال أو مخاوف! فإذا قال لك سترى هذه الليلة كذا وكذا، يكون كمن لقّنك في اللاوعي ما ستراه في الرؤيا. وقد ذكرنا جانباً من أحوالهم في كتابنا عن الإمام المهدي عجل الله فرجه.

اللافت للنظر أن كذبة الدعوات المهدوية هؤلاء يركزون أشد حملاتهم على المرجعية الدينية الشيعية ويعتبرونها عدو الإمام المهدي وعدوهم! ويركزون على محاولة فصل الناس عنها، ويشنعون عليها بالكذب والباطل. والهدف من ذلك واضح فإنه ما دامت المرجعية الدينية قوية وأنظار الناس متوجهة إليها فلا يمكن هؤلاء أن يستغفلوهم ﴿لَيُرَدُّوهُمْ وَلَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾^(١).

إنه من الطبيعي أن يعادي هؤلاء المرجعية الدينية لأنها تملك ما لا يملكون، وتتميز بما لا يعرفون! المرجعية الدينية تملك الفقه في درجاتها العالية لفهم الأحكام واستنباطها، بعد أن أنفق هؤلاء عقوداً طويلة من الزمان في بحث وتحقيق المباني الفقهية والأصولية والرجالية والقرآنية حتى أصبح الفقه بأدلته في راحة أيديهم كخطوطها. بينما أولئك الكاذبون لا يملكون سوى الادعاءات والتمويه على البسطاء! ولذلك هم في الغالب مختفون، لا يعرفهم أحدٌ ولا يناقشون علماً ولا ينتجون فهماً.

(١) الأنعام: ١٣٧.

ولذلك بإمكانك التعرف عليهم بسهولة من خلال هذا الاختبار؛ فإذا رأيته قد أصابته الحمى عند ذكر المرجعية الدينية وأمطرها بوابل من الاتهامات، فهناك احتمال كبير أن يكون من هذه الفئة.. أو من نظيراتها.

◀ ومنهم المتسلقون للرئاسة:

بغض النظر عن ادعاء المهدوية والارتباط بها، فإنه قد يوجد أفراد لديهم طموحات دنيوية عارمة، ولا يروق لهم أن يكونوا في صف المنافسة المعتاد والذي قد يحتاج لسنوات طويلة لكي ينافس غيره. وقد وجدنا في زماننا بعض هؤلاء ممن لا مانع لديه أن يحصل على المال من أي مصدر كان، ليحرك ماكينة إعلامية وقناة فضائية تبث على مدار الساعة في مثالب العلماء والمراجع - في زعمه -.

والغاية من ذلك واضحة، فإن الحديث السلبي والشتم لخطيب مبتدئ أو طالب علم مجهول لا يحقق هؤلاء المتسلقين شهرة ولا حضوراً بين الناس! لكن التوجه للقمة ومنافحتها والهجوم على المرجعية العليا سواء كان بما يتصوره من مناقشة علمية أو هجوم شخصي أو نحو ذلك.. كل ذلك يجعله حاضراً في المجتمع الشيعي. على الأقل يتناقل الناس كلامه بعنوان الاستنكار له، والتبرؤ منه، وهذا بالنسبة للمتسلقين للرئاسة لا يضرهم، بل يجعل أسماءهم معروفة ويجعل كلامهم حديث المجالس، وهذا ما يريده هؤلاء.

ولن يعدم هؤلاء بعض المؤيدين من الناقمين على الدين أصلاً،

أو المعادين للمتدينين، أو المخالفين للحوزة العلمية والمرجعية الدينية، بل قد يحصلون على من يؤيدهم ما دام الكلام هو ضد المرجعية (أ) التي ينافسونها!

وربما يميل البعض إلى اتهام هؤلاء المتسلقين بأنهم مدفوعون من جهات استعمارية معادية وممولون من قبلها أيضاً. وأظن أنه ليس بالضرورة أن يكون كذلك، بمعنى أن يأتي المستعمر وذيوله وينشئوا قناة فضائية ويوظفوا لها شخصاً معيناً! ولكننا لا نستبعد مع ذلك أن تستفيد الجهات المعادية للدين - من القسم الأول أو الثاني - من جهود عبيد الرئاسات والمتسلقين للشهرة، وتوظف جهودهم في إسقاط المرجعية الدينية الشيعية. ومع التقاء المصالح لا نستبعد أن يتم تمويلهم بوسائل مختلفة، كعنوان تبرعات مؤمنين أو «ندور!!» أو أمثال ذلك.

وهذا القسم - كما رأينا - لا يوجد عندهم خطوط حمراء، فهم في داخل أنفسهم يعلمون أنهم يعملون للدين ويطمعون لها، ولا يرجون لله وقاراً، فكل شيء عندهم ما دام ضد المرجعية الدينية - ولا سيما العليا - فهو مباح! الغيبة هي إدامهم اليومي. والافتراء ذكرهم الرسمي! والسب والفحش في القول هو وِردهم! بل القذف بالزنا واللوواط! الموجب حداً شرعياً. لكن هؤلاء يقولون ذلك مكرراً وفي القنوات الفضائية حيث يحتمل أن يسمعها الآلاف.

ولعله لمثل هؤلاء أشار المرجع الديني المحرم السيد محمد سعيد الحكيم في كلمة منشورة له، شاكياً إلى الله سبحانه ما يلقي

مراجع الدين وعلماء الحوزة الكبار من مثل هؤلاء، قال في حوار منشور معه «اطلعنا على بعض الافتراءات على أعظم مراجعنا - الذين تجلهم الحوزة العلمية - لا يقوم بها من له أدنى مسكة من الكرامة، فضلاً عن الدين، وليس المراد بها إلا زعزعة الثقة بخط المرجعية العام، الذي هو فخر هذه الطائفة ووسام الشرف في جبينها، وطريقها الموصل لها إلى الله تعالى، وبه تكامل شخصيتها وفعاليتها.

فبعين الله تعالى ما لقيه ويلقاه علماءنا الأبرار نتيجة ثباتهم على مبادئهم، وصلابتهم في مواقفهم، واستقامتهم في مسيرتهم، ورفضهم التعاون والتنسيق مع قوى الشر والطغيان والسير في فلكها.

ونسأله سبحانه أن يثبتهم على ذلك ويسدد خطاهم، ويشكر سعيهم ويعظم أجرهم ويعز نصرهم. إنه ولي المؤمنين وناصر المظلومين. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وليت شعري إذا تزعزعت الثقة بهذا الخط فما هو البديل الخالي عن السلبات والمفارقات؟! وأين يتجه المؤمنون؟! وكيف يصلون إلى ربهم ويحفظون دينهم عن التحريف والتلاعب؟!

وإذا لم تكن المرجعية - التي نشترط فيها العدالة بمرتبة عالية - أهلاً للثقة فماذا نفعل؟ هل نبقى بلا مرجعية؟!

أو نتعامل مع مرجعية غير آمنة، كما تعامل غيرنا ووصلوا إلى ما وصلوا وانتهوا إلى حيث انتهوا!«^(١)

(١) الحكيم؛ السيد محمد سعيد: المرجعية الدينية وقضايا أخرى ١ / ٧٨.

◀ ومنهم المتعجلون في تسنم الدور المرجعي:

من المعلوم أن باب التقليد مفتوح بما قرره التوقيع المعروف (فللعوام أن يقلدوه) وبالتالي باب المرجعية سواء كانت مرجعية محدودة أو عامة، المهم هو توفر الشخص على ميزات وكفاءات علمية وعملية أخلاقية تؤهله لتسنم هذا الدور.

ليس باب المرجعية مغلقا على الفرس الإيرانيين ولا على العرب العراقيين ولا على السادة من نسل الرسول ولا على عائلة مرجعية معينة، ولا، ولا. بل هو مفتوح لكل من يكون قد حمل تلك الميزات، وكلما كانت درجتها فيه أعلى، كتميز علمي استثنائي أو قداسة معنوية وأخلاقية وأمثال ذلك، بل حتى الحضور الاجتماعي والسياسي، كان احتمال رجوع الناس إليه بالتقليد وتحقيق مرجعيته أكثر من غيره.

ولا مانع في هذا المجال من أن يقدم شخص عالم نفسه على أنه مؤهل للمرجعية، ويعرض ما عنده على الملأ من خلال دروسه ونظرياته وما شابهها في الحوزة العلمية حتى يتعرف فضلاء الحوزة عليه، بل ويعرفونه للمؤمنين.

وفي الوقت الذي رأينا كثيرا من الفقهاء والمجتهدين، في زماننا وسمعنا وقرأنا عن تاريخهم قبل عصرنا، وهم في أفضل الدرجات التي تؤهلهم للمرجعية العامة، ومع ذلك قد أعرضوا عنها، ولم يتقدموا باتجاهها مترًا واحدًا، رأينا أشخاصا سنطلق عليهم هنا

المتعجلين في تسنم المرجعية لما سيأتي من ذكر بعض صفاتهم.

هذا التعجل الذي يقترن بالحديث السلبي عن المراجع الآخرين، وإن كان يسميه بأنه نقد علمي، أو نقد للنظرية وهو ليس كذلك. يجعلنا نصنف هذه الفئة ضمن صنف الأعداء للمرجعية الدينية.

وذلك من جهة لأن هؤلاء قد يمارسون - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - نفس دور الأعداء في إسقاط المرجعية، وأحياناً يكون دورهم أسوأ من الأعداء الخارجيين، لأن من يراهم يقول «شهد شاهد من أهلها».

ولأن هؤلاء أيضاً لما كانوا قد عرفوا الصنعة العلمية، وكانوا في هذا السلك، وقد يكونون مؤهلين بالفعل من الناحية النظرية والعلمية للدور المرجعي، فإنهم سيستخدمون نفس المصطلحات والأدوات، فتكون قدرتهم على ضرب الخصم - في رأيهم - أكبر من الغرباء، وبالتالي فالضرر المتحقق منهم على المرجعية بل والطائفة خطير.

إن بعض هؤلاء يتوهمون في أنهم متى ما أسقطوا هذه المرجعيات القائمة، لأي سبب من الأسباب، ستصل النوبة إليهم! وأن صعودهم المجد سيكون على عظام من سقط أمامهم. وهذا وهمٌ بل غفلة عن أن سقوط هذا المرجع أو ذاك بفعل دعايتي المضادة له، ستؤثر على كل الكيان المرجعي وستضر بارتباط الناس

به، وأول من سيتأثر هو أنا صاحب الدعاية المضادة.

كما أن هذا الكلام المضاد لفلان وفلان من المراجع من جهتي،
 سيعطي لأتباع ذلك المرجع الحق في أن يبينوا ما يعتقدونه من
 سيئات عندي، ولا ينبغي أن أتضايق حينها؛

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راضٍ سنه من يسيرها.

أساليبهم في إسقاط المرجعية الدينية

يصعب حصر أساليب مخالفتي المرجعية في محاولات إسقاطها بالكامل أو تعطيل دورها وتأثيرها بين الناس، والمختصر في هذا أنهم يحاولون أن يفعلوا كل شيء لتحقيق هذا الغرض. ولكن يمكن لنا أن نختار الأساليب الأكثر تداولاً واستعمالاً منهم، وسنستفيد من الترقيم بالتسلسل لتسهيل متابعة القارئ الكريم.

1/ الدعوة إلى إلغاء المرجعية بالكامل:

ويمكن أن نرصد في هذا عنوانين: الأول: من يزعم بأن الطريق إلى حق أهل البيت وتراث الأئمة مفتوح لكل أحد، فما الداعي إلى تعيين وسائطهم المراجع؟

يقول هؤلاء: إن الأئمة قد خلفوا لنا من الأحاديث والروايات عشرات الآلاف وهي موجودة في الكتب المشهورة ومنتشرة في كل بلدان الشيعة، ومن حيث مواضيعها هي وافية بكل احتياجات الناس. وما على المؤمنين إلا الرجوع إليها واستفادة الحكم منها. هذا من حيث النظرية.

ومن حيث العمل فإن بإمكاننا أن نعرف الأعمال التي تحظى برضا الإمام صاحب العصر والزمان، وما دام الأمر كذلك فلا نحتاج إلى المرجعية الدينية، لأن الغرض هو تحقيق رضا الإمام وفيه رضا الله تعالى!

والجواب على هاتين الشبهتين ما يلي:

أولاً: إنه لا ريب بأن التراث الذي خلفه لنا أئمة الهدى عظيمٌ ووافٍ بالحاجة، لكن المشكلة هي أن هذا التراث لا يستطيع كل أحد أن يتعامل معه. ولا بد للاستفادة منه من خريطة ودليل، كما هو الحال في كل الأمور، فإن أصول العقائير الطبية كلها موجودة في الطبيعة لكن الاستفادة منها متوقفة على معرفة بخريطتها وعلى صيدلاني يستطيع التركيب والتأليف بينها. ولم يقل أحد لا نحتاج للطبيب أو الصيدلاني لأن الطبيعة فيها كل العقائير والمواد.

إن ما تحتويه كتب الحديث من أحاديث أهل البيت يشبه مخزناً كبيراً يحتوي على كل قطع الغيار للسيارة، ولكن لكي نستخرج منه سيارة، لا بد من مهندس ميكانيكي خبير يربط بين تلك القطع بنحو معين حتى يحولها إلى سيارة كاملة.

والناظر في الأحاديث يرى الأمر واضحاً، فكيف تعرف صحة سند الحديث من سقمه؟ وكيف تستطيع الجمع بين حديثين متعارضين؟ إن هذه تحتاج إلى سنوات طويلة من الدرس والبحث وليس الأمر بهذه السهولة. خصوصاً وأئمة الشيعة لا نتعبد بكل ما جاء في الكتب الأربعة أو نصحح كل ما فيها. وليس عندنا طريقة

مدرسة الخلفاء من انهم اعتبروا كتابين أو أكثر صحاحًا وانتهى الأمر. هذا من الناحية النظرية.

وثانيًا: وأما من الناحية العملية فقد يستطيع الإنسان في بعض الموارد أن يطمئن بأن هذا المورد محقق لرضا الإمام صاحب الزمان، ولكن أكثر الموارد ليست هكذا! فماذا يصنع فيها؟

بل يمكن القول بأن العمل بفتاوى الفقهاء العظام والمراجع الكرام لا شك أنه يحقق رضا صاحب الزمان عجل الله فرجه، وهو في هذا أقرب إلى الحق من عمل الانسان غير المتخصص برأي نفسه، وفي هذا نقض لاستدلال المستدل! إنه لو كنا بين أن نعمل بفتوى وقول شخص تعلم وبحث وحقق في أحاديث أهل البيت مدة خمسين سنة، وبين أن يعمل شخص لم يقرأ الروايات إلا خلال فترة قصيرة كأشهر أو أسابيع، فلا شك أن الوجدان يحكم باتباع الأول.

وقد أجاب المرجع الديني المرحوم السيد محمد صادق الروحاني عن مثل هذه الشبهة بما نصه: «مجموعة من الشباب يقولون: إن أعمالنا هي التي توصلنا إلى رضا الإمام المهدي، وليس المرجع الذي نرجع إليه في أعمالنا هو الذي يوصلنا لذلك، فإنه لا يتجاوز أن يكون مرجعًا نأخذ منه الفقه فقط» فما هو قولكم لهؤلاء الشباب؟

باسمه جلّت أسماؤه: رضا الإمام المهدي إنّما هو بالعمل بفتوى المراجع العظام الذين أمر بالرجوع إليهم، وأخبر بأنهم الحجة على شيعته.

وبعبارة أخرى: إنّ الأعمال وحدها لا تكفي لنيل رضا الإمام الحجة إلا أن تكون على طبق فتاوى مراجع الطائفة (أعزّ الله كلمتهم، وأنار برهانهم)، وبالتالي فإنّ فتاوى الفقهاء هي الموصلة لرضا الإمام من خلال العمل بها^(١).

2/ الدعوة لاستبدال المرجعية بالحالة المدنية أو السياسية:

من أساليب الإسقاط للمرجعية الدينية، الدعوة إلى تبديل القيادة العامة في المجتمع الشيعي، إما بالحالة المدنية بحيث تصبح قيادة الناس وإدارتهم بيد المثقفين والأكاديميين أو بيد الأحزاب الإسلامية مثلاً.

وربما تمت صياغة هذا التوجه بعنوان آخر وهو أن الإسلام لا يوجد فيه طبقة دينية، أو (اكليروس) كما يقولون، فهو ليس مثل المسيحية، وإنما بإمكان المسلم أن يعبد ربه من دون الحاجة إلى وسيط فضلاً عن أن تكون قيادته في الحياة دينية كما هو حال المرجعية.

والأفضل في مثل هذه الحالة أن يكون المجتمع الشيعي كما هو حال سائر المجتمعات يمارس فيها القيادة، الأطباء والمثقفون والكفاءات العلمية.. وهكذا. وأن تستعمل النمط الحديث من الإدارة.

والجواب على ذلك هو: أنه متى نازعت المرجعية هؤلاء

(١) الروحاني؛ السيد محمد صادق: أجوبة المسائل في الفكر والعقيدة والتاريخ والأخلاق ١٥٦/٢.

الناس موقع القيادة؟ ومتى سعت لذلك؟

المرجعية الدينية في الغالب منشغلة بتحقيق المسائل الدينية وعاكفة على صيانة الحوزة العلمية ومستفرغة جُلَّ جهدها في ما يرتبط بهذا الموضوع فمتى كانت تنازع في موضوع القيادة؟

لقد رأينا العلماء الكبار الذين لا يقلون شأنًا عن غيرهم في كفاءاتهم ومع ذلك اختاروا طريق الاعتزال الاجتماعي والانكفاء إلى علمهم والاقتصار على ذلك وكم حاول الغير التأثير عليهم، أن يتصدوا لمهام المرجعية فما استطاع هؤلاء إقناعهم وما قبل أولئك بالتصدي. لا نريد أن نمجد هذا التوجه بلا حدود ولكنه في حدوده الأولى يعرب عن عزوف عن هذه الأمور الدنيوية.

ثم ماذا يعني أن يتصدى الأطباء والمثقفون والكفاءات للقيادة الاجتماعية؟ إذا كان المقصود أن يتصدوا للأمور الدينية من إفتاء وما يرتبط به والقضايا الشرعية في المجتمع، فهذا ما لا تخصص لهم فيه، بل لا يعرف بعضهم أولياته. فكيف يتصدون له؟

وإذا كان غير ذلك، فهذه الأمور ليست في حیطة المرجعية الدينية حتى يقال؛ ينبغي للمرجعية أن تتركها للكفاءات! وليتفضلوا؛ «فهذا الميدان يا حميدان»! إن الواقع الاجتماعي ليشير إلى خلاف ذلك، وإن هناك شكوى من ترك بعض الكفاءات مسؤولياتها الاجتماعية لصالح التقدم الشخصي والحياة الفردية المرفهة!.

3/ التشكيك في تشيع المرجعية:

وهذا من أعاجيب الزمان! وما عشتَ أراك الدهر عجباً! فقد رأينا البعض من هؤلاء يأتي ببعض النصوص المجتزأة من فتاوى المراجع. أو يضعها في إطار خاص بحيث يستثير السذج من شيعة أهل البيت عليه السلام، فقد يأتي بقول لأحد المراجع يفيد بأن الشهادة الثالثة بالولاية لأمر المؤمنين عليه السلام ليست جزءاً واجباً من الأذان والإقامة! ثم يبدأ في التهجم أنه انظروا إلى هذا المرجع (البكري والبكري)!^(١) كيف يقول إن أمير المؤمنين لا ولاية له! وهل كان أساس الدين إلا ولاية أمير المؤمنين؟ وهل دُبحنا إلا لأجل ولاية أمير المؤمنين.. فكيف يقول هذا الرجل هذا الكلام؟ إنه إنما يقول ذلك لأن تشيعه ناقص أو لأنه يحامل الآخرين! فهو إذن غير مؤتمن على الدين!!

ومن هذا القبيل خذ الشيء الكثير! لأن مراجع الدين الحقيقيين لا يقولون كلاماً إلا وهو مُقاسٌّ بالملمتر، وموزونٌ بالمليغرام، فلا يتعدون ما ثبت لهم بالدليل وما قام عليه البرهان. وهذا ما لا ينفع مع العشوائيين الذين يتعاملون مع هذه القضايا بالانفعال والاحتمال وبعيداً عن الدليل والبرهان.

4/ التشكيك في أمانة المرجعية:

من الأمور التي يركز عليها مخالفو المرجعية الدينية التشكيك

(١) مصطلحات بعضها قديم كالبتري وبعضها جديد كالبكري، تشير إلى الانتماء التام لمدرسة الخلفاء أو الخلط بين المدرستين والايان بولاييتين ومنهجين.

في أمانة المرجعية ويزداد التشكيك حدة بحسب مستوى تلك المرجعية، فالمرجعية العليا تختص بالقدر الأكبر وبالتهم الأشنع! حتى لتكاد تتصور وأنت تقرأ ما يكتب مخالفوها أو يتحدثون به (وهو الأكثر لأن الحديث والكلام لا يطلب فيه مصادر، وإنما يعتمد على مثل القول: مصادر موثوقة، أو أنه يُقسم بالله وهذا أمرٌ سهلٌ عليهم) تتصور وأنت تسمعهم أنهم يتحدثون عن عصابة من عصابات المال، أو مافيا من مافيات الشهوات! لا عن أشخاصٍ رَوّضوا أنفسهم طيلة ستين أو سبعين عامًا على التقوى وعاشوا الزهد وشظف العيش ولا يزالون، وبينما تجري الأموال بين أيديهم، لا ترى من أثرها عليهم شيئاً.

ولأن الموضوع المالي مؤثّرٌ في الناس وخصوصاً من يعيش الضيق والفقر وصعوبة الحياة لذلك قد يلقي كلام المخالفين المشككين قبولاً عن بعض هذه الفئات.

ومن آخر ما سمع منها ونقل عنهم أن بعضهم فبرك قولاً عن بعض الوزراء الأمريكيّان - ونسبه كذباً إلى مذكراته والتي تبين أنه لا يوجد فيها تلك الكذبة - أن مرجعية الشيعة العليا استلمت كذا مليون دولار لكي تمنع الشيعة من مقاومة الأمريكان.. فكان الأمر كذباً في كذب.

هذا في الوقت الذي رفضت فيه المرجعية العليا وبتبعها المرجعيات الدينية الأخرى بحزم لقاء أي مسؤول أمريكي أو

استقبال أي رسالة منهم منذ وطأت أقدامهم أرض العراق.. هكذا ومع ذلك افترضوا عليها؟ فكيف لو سمحت لهم المرجعية باللقاء؟ هم يعلمون أن ذلك كان إهانة مربعة خمسة لدولتهم فكيف يتركونها تمر هكذا!

إن المبلغ الذي افترضوا على المرجعية أخذه، قد يكون مُحَسَّس شخص أو شخصين من تجار الشيعة الذين يعطون أخماسهم راضين مطمئنين بأدائهم الواجب المالي الشرعي وتسليمه لليد الأمانة عليه حتى تصرفه في مصارفة المقررة. أترى من يستلم أضعاف أضعافه سينجس يده باستلامه؟

هؤلاء المعادون للمرجعية ربما قرأوا عدة مرات آية ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١) وهي تنطبق تمام الانطباق على من ينقلون عنهم الكذب والافتراء ولكنهم - مع ذلك - ينقلون كلام أولئك الفاسقين وكأنه قرآن مبين!

5/ التشكيك في إدارة الجهاز المرجعي:

إذا لم ينفع النحو السابق من التشكيك في نفس المرجع الديني، يبدأ التشكيك في الأبناء - إن كان للمرجع أبناء - فهؤلاء سراق! يعشون في الحقوق الشرعية، فإن لم يكن له أبناء مثلاً، فيتم التركيز على الأصهار فهم كذلك - في رأي المشككين - فاسدون! والأقارب

(١) الحجرات: ٦.

هم كذا وكذا! فإذا كان الأقارب غير موجودين فتأتي النوبة على الوكلاء من التشويه؛ فالوكلاء يخزنون الأموال، والمقربون يشترون العمارات والشقق في البلاد الأوربية (لماذا في البلاد الأوربية)؟ لأنه لو قيل له أين الدليل سيقول اذهب وفتش!

بالطبع لا نريد أن نقول أن الوكلاء أو الأقارب أو الأبناء معصومون وأنه لا يصدر منهم خطأ، كلاً! وفي نفس الوقت الذي نقول فيه هذا الكلام بوضوح نقول: إن افتراض أن أبناء المرجع أو أقاربه أو وكلاءه فاسدون، كأصل دائم، وقضية لا تحتاج إلى نقاش لهو أمرٌ بعيد عن الحقيقة، وقريب إلى الباطل.

وكذلك اعتبار أن المرجع ينبغي أن يعيّن من يعيّنهُ بعد أن يستشير هؤلاء المشككين، ثم يأخذ قائمة منهم بالصالح وغيره! هو أمر غريبٌ حقاً! بالطبع هم لن يرضوا عن أحدٍ إلا بهذه الطريقة!

مع أنهم لو التفتوا لأنفسهم لحظة لرأوا أنفسهم يفترون في كثير من الأحيان ويغتابون في كل الأحيان مع التعمد والإصرار وعلى رؤوس الملاء وهو ما يفقدهم على الأقل، العدالة حتى بمستوى إمامة الجماعة على شخصين! فكيف يستشيرهم ويأخذ برأيهم وهم فاقدون للعدالة؟

6/ التشكيك في دورها وفائدتها:

هؤلاء المرجفون ما داموا في خطة اسقاط المرجعية الدينية ودورها، تراهم يشككون في عملها وفائدتها، فيشيعون أنها غائبة

عن الساحة وأنها لا تأثير لها ولا دور، فلا هي تتدخل في المسائل السياسية ولا وزن لها عالمياً، ولا برامج لها، هكذا.. فإذا صادف أن تدخلت هذه المرجعية أو مرجعية أخرى في الموضوع السياسي أو الاجتماعي وطرحت برامجها في الموضوعين تغيرت الحملة عليها لتكون: لماذا يتدخل هؤلاء في غير اختصاصهم الديني وهم لا خبرة لهم فيه!

لقد رأينا أنه عندما رأت بعض المرجعيات تطبيق ولاية الفقيه بمعناها الواسع وبما تحمل من تصدٍ للأمور، كيف تم شن الحملة عليها وسُفِّهت آراؤها وأعمالها! وعندما رأت مرجعيات أخرى تطبيق المبدأ نفسه بحدوده الضيقة في موارد خاصة، سخر هؤلاء من هذا الفعل وقالوا إن المرجعية تحولت إلى جمعية خيرية، ومؤسسة دفاين! وتركت المسائل السياسية الخطيرة!

حين تدخلت مرجعية في الشأن السياسي وأصدرت بيانات وخطباً بما يصلح به الأمر، هوجمت باعتبار أن عليها أن تنشغل بما يهمها وتترك للسياسيين ما هم أخبر به وأعلم! وعندما تركت ذلك حتى على مستوى التوجيه في خطب الجمعة هوجمت من قبلهم أنفسهم (!) ومن غيرهم بأن المرجعية لا دور لها ولا شأن!

والحقيقة في ذلك هو ما أشار إليه القرآن في موقف اليهود والنصارى من ﷺ ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١).

ماذا حققت المرجعية الدينية؟

لا شك أن هذا العنوان واسع للغاية! فإذا أردنا الإجابة عليه فمعنى ذلك أننا ينبغي أن نتحدث عن برهة زمنية لا تقل عن اثني عشر قرناً من الزمان، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى بسطٍ كبيرٍ في المعلومات، فلو أردت أن تكتب عناوين لهذه الفترة؛ بأسماء العلماء ومناطقهم وكتبهم لاحتجت إلى مجلدات فكيف لو أردت الحديث عن كل مرجع فيها وما حقق من إنجازات؟

ففي الواقع يصعب استيعاب هذه الفترة من حيث زمانها الطويل وأشخاصها الكثيرين وأحداثها المزدحمة! لكننا عملاً بما هو معروف من أنه «لا يُترك الميسور بالمعسور» وقبله قوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾^(١) نتعرض للإجابة عليه في العناوين التالية:

1/ حفظ العقيدة والأحكام في الأمة الإسلامية:

من الواضح أن العقيدة الإسلامية والشرعة تتعرضان لهجوم

(١) التغابن: ١٦.

من مخالفتي هذا الدين بدوافع مختلفة، قد يكون بعضها دينياً كما هو حال المؤسسات الدينية اليهودية أو المسيحية وقد يكون غير منطلق من منطلقات دينية بل سياسية واقتصادية ونحوها، كما هو حال المؤسسات الاستعمارية التي تريد استغلال الأمة وثرواتها وتجد أن تمسك الأمة بدينها يمنع من ذلك، ويصنع لها سياجاً من الحماية، فتقوم هذه المؤسسات بضرب الدين: عقيدة وشريعة من خلال إثارة الشبهات والإشكالات ونشر الشائعات الباطلة الهادفة إلى تقويض البناء العقيدي والشرعي في نفوس الناس. ووسائلهم في ذلك متعددة منها نشر الكتب والمؤلفات، ومنها إنشاء القنوات التلفزيونية، ومنها تربية الكفاءات (من مدرسين وسياسيين ومفكرين وصحفيين وغيرهم) لينشروا هذه التشكيكات والشبهات.

في مواجهة ذلك قامت المرجعية الدينية الشيعية - والحديث عنها - سواء بمباشرة المراجع أنفسهم أو بتكليف منهم - بمواجهة الشبهات الفكرية على كل المستويات وتصدت لها، فوقف مراجع الدين وعلماء الطائفة أمام الشبهات المسيحية واليهودية المشوشة على الفكر الإسلامي فمن ينظر إلى جهود المرحوم العلامة البلاغي^(١) وهو أستاذ المراجع المعاصرين وعمله المتميز في رد تلك الشبهات الأمر الذي كرس له عمره المبارك، وبعد أن أتقن من اللغات ما يحتاج إليه في مراجعة كتب العهدين: القديم والجديد، وشروحيهما وأنتج - لله دره - بعد ذلك عددًا من الكتب النافعة لكل من أراد مناقشة شبهات اليهود والمسيحيين.

(١) ذكرنا شيئاً من ترجمته وسيرة حياته وتعريفاً بكتبه في كتابنا: أعلام الإمامية.

وعلى مستوى إثارة الشبهات المذهبية من قبل مخالفى مذهب أهل البيت عليه السلام، كان تصدى المرجعية الدينية الشيعية فى مستوى فائق على تلك الإثارات، فهذا كتاب السيد مير حامد حسين النقوى (عبارات الأنوار) الذى أثبت فيه من مصادر مدرسة الخلفاء - لكونه أبلغ فى الإقناع - حجة الاحاديث التى يعتمد عليها أتباع أهل البيت فى إثبات إمامة أمير المؤمنين علي وأولاده المعصومين عليهم السلام.

وكذلك العمل المتميز الذى قام به الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين، فى مناقشة تفاصيل العقائد الشيعية وإثباتها، والدعوة إلى التقريب بين المذاهب من خلال الدعوة إلى التعرف على عقائد مذهب أهل البيت على حقيقتها وإثبات أن الدليل يعضدهم من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وما قام به المرحوم الشيخ عبد الحسين الأمينى النجفى فى كتابه الغدير هو عمل من الأعمال العظيمة لا سيما فى زمانه، ومع قلة الوسائل وصعوبة الظروف المحيطة به.

وما قام به مراجع الدين وتلامذتهم فى الرد على المذاهب الفكرية الباطلة المستوردة كالشيوعية وما تولد عنها، ولولا قيام الحوزة العلمية ومراجع الدين بمواجهتها بكتاباتهم المختلفة، لصار الشباب - طراً - طعمة حريقهم.

ولا نزال إلى اليوم نرى أن أحد أسباب تقدم مذهب أهل البيت عليه السلام فى العالم، هو قدرته على رد شبهات خصومه والبرهنة

على حقانية أفكاره، وهذا إنما يبدأ من المنبع العلمي العالي وهو المرجعية الكفوءة.

هذا في العصر الحديث، ولا يقل عنه أهمية ما قام به علماء أهل البيت ومراجعهم في الأزمنة السابقة، فمن ينظر إلى مؤلفات الشيخ المفيد رحمته وتلميذه الشريف المرتضى ومن بعدهما شيخ الطائفة الطوسي رضوان الله عليهم جميعا يجد هذه الحقيقة ماثلة وهي أن الشبهات التي وجهت لمذهب التشيع الإمامي لو لم تتوفر لها مثل هؤلاء الأفاضل لكان هذا المذهب في خطر كبير!

وذلك أن إنهاء أي دين أو مذهب لا يكون بالقوة والسلاح وإنما يكون بعجزه عن الاستجابة للتحديات الفكرية التي تواجهه من قبل خصومه، فإذا فشل في الإجابة عليها وتعثرت مراكزه في الإبحار في محيطها انفض أهله عنه فضلا عن غيرهم! ولقد رأينا كيف أن بعض المذاهب الفكرية والدينية قد انتهت على أثر هذا.

ومن ذلك يتبين الدور المهم لهؤلاء العلماء تحت توجيه المرجعية في حفظ مذهب أهل البيت عليهم السلام، وشيعتهم.

2/ التبيان الدقيق والعلمي لأحكام الشريعة:

إننا نعلم أن الغرض الأقصى والغاية العليا للمؤمن في هذه الحياة هو عبادة الله سبحانه وتعالى، وهذه إن تحقق فلم يخسر شيئاً، حتى لو لم يحقق أي شيء غيره، ولو لم تتحقق هذه الغاية فإنه لم ينجح في شيء، ويشير لذلك قول الله عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»^(١) ويفيد هذا التركيب في صورة النفي والاستثناء بيلاً، الحصر والقصر، أي أن هذه هي الغاية الوحيدة ليس إلا.

والعبادة لها معنى واسع ينتهي إلى أن أفعال الانسان (عبادية ومعاملاتية) لا بد أن تكون طبق منهج الله سبحانه وبحسب ما قرره. وآئذ تكون كل حركاته عبادية، صلاته وصومه كشغله وكسبه إذا التزم فيها بمنهج الله وشريعته فإنه يكون في عبادة.

والناظر في تاريخ المرجعية الدينية الشيعية يجد أن انشغالها الأساس هو في هذا الجانب، بحيث أفنى مراجع الدين منذ أول زمان الغيبة الكبرى وقبلها في تنقيح المباني وتحقيق القواعد وتصحيح الروايات التي يتوصل من خلالها إلى الحكم الشرعي الذي يكون المؤمن معذوراً أمام الله سبحانه عند اتباعه.

إن الصلاة وهي الفريضة اليومية على المؤمن تحتوي على مئات^(٢) الأحكام، من واجبات ومستحبات، وإذا ضم إليها مقدماتها من الطهارة - بقسميها - وغير ذلك يتضاعف عدد تلك الأحكام، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قيض للطائفة هؤلاء المراجع الذين نفحوا تلك البحوث العلمية وحققوها ووصلوا إلى نتائج هي التي نراها: كمسائل شرعية في الرسائل العملية. لكان يعسر

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) قال المحقق الشيخ آغا بزرگ الطهراني رحمته الله: «ألفية الشهيد» المشتملة على ألف واجب في الصلاة للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن مكي الشامي العاملي الجزيني الشهيد سنة (٧٨٦ هـ).

على المؤمنين أن يصلوا صلاة كصلاة رسول الله وأهل بيته. وهكذا الحال بالنسبة للحج والصوم وسائر العبادات، والأمر نفسه يجري في مسائل المعاملات من بيع وشراء وإيجار ونكاح وطلاق وقضاء وميراث وغيرها.

وفي غير هذا الإطار وجدنا كيف ضاعت الأحكام الحقيقية لتولي غير المؤهلين للفتوى بحيث يصدق ما قاله المعصوم «تجس السماء ماءها وتمنع الأرض بركتها»^(١).

ولكي يتبين لك عزيزي القارئ حجم العمل الضخم الذي قامت به المرجعية الدينية في هذا المجال، ما عليك إلا أن تأخذ منسك الحج في زمان شيخ الطائفة الطوسي رحمته، أو زمان العلامة الحلي، وتأخذ منسك الحج لأحد مراجع الدين المعاصرين لترى الفارق العظيم والكبير في كثرة وعمق الفروع والمسائل الفقهية المرتبطة بالحج. وكل ذلك من ورائه بحوث استدلالية عميقة ومفصلة، يأتي كل لاحق ليبنى على ما أسسه السابق وهكذا.

وقد قدر بعض الباحثين عدد المسائل الفقهية التي بحثها المراجع وانتهوا فيها إلى الأحكام الإلهية، بنحو خمسين ألف مسألة. وهذا العمل بحد ذاته لو لم يكن للمرجعية الدينية أي عمل آخر لكفى به عملاً مهماً وعظيماً! وذلك أنه بمثابة رسم الخريطة التفصيلية للوصول إلى الجنة والبعد عن النار بالتزام ما أمر الله به

(١) الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي ٥/ ٢٩١.

كما أمر به وبلغه النبي والأئمة والاجتباب عما نهى ونهوا عنه.

ولذلك ننظر إلى ما يقوله غير الواعين والمشككون في دور المرجعية الدينية من أن شغلهم هو في مسائل الحيض والنفاس، ننظر إليه بازدراء؛ وذلك أنه لو فرضنا أن هذا هو عملهم - فقط - فهو ليس قليلا لأنه مرتبط بالصلاة والصوم والحج والعبادة كلها إذ تتوقف عبادة المرأة على العلم بهذه الأمور، فهي مهمة للغاية وتستحق العكوف على مسائلها، حيث أن العبادة هي هدف خلقه الانسان.

وأیضا فإن هذا القائل لا يعرف حقيقة مجهودات المرجعية الدينية سواء في جانبها العلمي التشريعي وتبيان أحكام الدين (عباداته ومعاملاته) والعقائد، بالإضافة إلى سائر أعمالها المشكورة التي سبق بعضها ويأتي البعض الآخر.

فانظر إلى نتاج الشيخ الطوسي في الفقه (الاستدلالي، والتفريعي والمجرد) وإلى ما ألفه الحلّيان؛ المحقق صاحب الشرائع، الذي زادت شروحه - لإتقانه - على سبعين شرحا متنوعا، والعلامة ابن اخته في كتبه المتنوعة في الفقه (من مقارنة، وأقوال، واستدلالي).

وانظر إلى ما حبره الشهيدان العاملان الأول والثاني (من اللعة والروضة والمسالك وغيرها من المصنفات الباقية والمستمرة النفع)، وإلى نتاج الأردبيلي وتلامذته، وصاحب الرياض وأساتذته، وتطول القائمة لو أردنا التفصيل فيها.

3/ الحفاظ على استقلال بلاد المسلمين:

بالرغم من أن المرجعية الدينية الشيعية قد عزلت تماماً عن الموضوع السياسي بقرار الاستعماريين وتلامذتهم ووكلائهم، وحرمت من كل الفرص، بل ضيق عليها في أكثر من مجال، إلا أنه إذا أحاط الخطر باستقلال المسلمين وكيان دولة من دولهم، كانت المرجعية الدينية الشيعية تتصدى بمقدار ما تستطيع وأحياناً على رغم السلطات الحاكمة. وكانت تتقدم الصفوف حتى لو كان في ذلك حصول الخطر والضرر عليها وعلى الحوزات العلمية، ونشير هنا إلى بعض النماذج حتى لا يخرج هذا الكتاب عن الحجم والمدى الذي يحكمه.

◀ ففي سنة ١٢٤١ هـ عندما أقدمت روسيا القيصرية على اقتطاع أجزاء من بلاد إيران المسلمة، في زمان فتح علي شاه القاجاري، وكان حكام إيران القاجار على درجة من ضعف العزيمة والارتهاق للمعادلات الدولية، بحيث لم يحركوا ساكناً، فلما رأى مرجع زمانه السيد محمد (والذي عرف بالمجاهد فيما بعد)^(١) ذلك، أصدر فتوى بوجوب

(١) السيد محمد المجاهد بن السيد علي صاحب الرياض (ت ١٢٤٢ هـ)، وهو الذي جمع المجدين في زعامة الدين وجهاد الكافرين، فإنه بعدما أخذ العلم على يد أقطاب عصره ومنهم والده صاحب الرياض «حتى جزم والده بأنه اعلم منه فصار لا يفتي وابنه في كربلاء فعلم ابنه بذلك فرحل إلى أصفهان وسكنها ثلاث عشرة سنة وهو المدرس فيها والمرجع في علمي الأصول والفقه لكل علمائنا وصنف فيها مفاتيح الأصول وغيره حتى توفي والده

الجهاد ضد الروس وخرج على رأس جيش من طلابه ومن التحق بهم في الطريق من كربلاء المقدسة باتجاه إيران لمواجهة الروس المحتلين.. وبالرغم من أن السيد المجاهد قد مات بعد ذلك (أو قتل غيلة) إلا أنه كان أحد النماذج في مواجهة المرجعية الدينية للمحتلين لبلد إسلامي.

◀ وفي وقت لاحق قام الميرزا محمد حسن الشيرازي الكبير، بمواجهة البريطانيين الذين أرادوا السيطرة على اقتصاد إيران وارتفانه باتفاقيات جائزة عقدوها مع السلطان ناصر الدين شاه ورشوه بمتاع قليل في مقابل سيطرتهم على تجارة التبغ في كل إيران. فما كان من الميرزا رحمته الله إلا أن أصدر فتواه التاريخية المشهورة التي كنست اتفاقية البريطانيين مع الشاه ولممت شركاتهم أدواتها ورحلت.. وكانت تلك الفتوى من سطر واحد يفيد بأن «استعمال التبغ في هذا الزمان يعد محاربة لصاحب العصر والزمان».

◀ وإذا كان هذا نصيب البريطانيين في إيران، فما كان نصيبهم في العراق بأحسن منه، حيث رفع راية الجهاد ضد احتلالهم العراق مراجع ومجتهدون، في ما عرف

فرجع إلى كربلاء فكان المرجع العام»، وعندما أخذت الدولة الروسية تتعدى على أطراف إيران واستولت على بعض مناطقها وكان الشاه القاجاري حينها متخاذلاً عن المقاومة نهض السيد محمد المجاهد مع جمع غفير من العلماء من كربلاء قاصدين إيران لإعلان الجهاد والتشديد لمقاومة الروس، وتحريك الدولة القاجارية بهذا الاتجاه، فكان أن عرف بهذا اللقب الخالد: المجاهد.

بثورة العشرين (١٩٢٠ م) وكان في طليعة أولئك المراجع الشيخ محمد تقي الشيرازي، وإلى جانبه طلاب وفضلاء الحوزة العلمية كالسيد محمد سعيد الحبوبى وشيخ الشريعة الاصفهاني والشيخ الخالصي والسيد الحكيم وغيرهم. وحمل العلماء السلاح في وجه البريطانيين وحشدوا العشائر العراقية لقتالهم.

◀ وما مواقف السيد شرف الدين رحمته الله ومقاومته للاستعمار الفرنسي في لبنان بقليلة، حتى لقد حكموه بالإعدام وحاولوا القبض عليه، وأحرقوا كتبه ومكتبته.

◀ والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء الذي أرقه ما يجري في فلسطين من طرد أهلها وتهجيرهم لصالح اليهود وبحماية الدول الكبرى المستعمرة، فاستجاب لدعوة وسافر إلى فلسطين لحضور المؤتمر الإسلامي المدافع عن قضية فلسطين، وألقى فيه خطاباً كان حديث الحاضرين ووسائل الاعلام.

◀ وفي زماننا هذا رأينا كيف أن الإمام روح الله الخميني رحمته الله قد استطاع أن يحرك الشعب الإيراني في مطلع هذا القرن الهجري، ليحارب الفساد والانحراف ويقيم دولة إسلامية، هي شاهد على دور المرجعية الدينية وعطائها.

◀ وبجوار هذا البلد كان العراق مهدداً في وجوده الحضاري والثقافي باجتياح داعشي متطرف شبيه بالاجتياح المغولي

وكانت كل التقديرات تشير إلى سقوط العراق في هذا المستنقع الدامي لو تحقق ذلك، وبينما عجزت القيادات السياسية ورفعت الراية البيضاء أمام هذا الخطر، رفع المرجع الأعلى السيد السيستاني حفظه الله لواء أجداده في الحفاظ على كيان الإسلام، وأعلن فتوى الجهاد الكفائي، فإذا بتلك النار الشيطانية الملتهبة تنطفئ وتخبو.

هذا كله مع أن المرجعية الدينية الشيعية كانت تعيش على هامش الميدان السياسي، ولم يسمح لها بممارسة أدوارها كما ينبغي! ومع ذلك كان المراجع إذا رأوا أن كيان الإسلام في خطر أو أن استقلال بلدانه مهدد كانوا يتحركون وإن لم يرغب في ذلك رجال الحكم والسياسة. بل إذا رأوا بعض حكام البلاد الإسلامية يريدون تغيير الهوية المسلمة لهذه البلاد أو يحاربون أحكام الدين بشكل تام كانوا يقدمون على المعارضة، والمواجهة لأولئك الحكام.

ويشير بعض الباحثين إلى الفرق بين ما حدث في إيران وبين ما حدث في تركيا، عندما اعتمد حاكمي البلدين (رضا بهلوي وكمال أتاتورك) خطة لتغريب البلدين بشكل كامل، بحيث تبدأ من الحرف واللغة، وتمر باللباس والمظهر العام ومنع الحجاب، وتنتهي إلى منع القضاء الشرعي، وأخيراً محو الهوية الإسلامية للبلدين.. فنجح كمال أتاتورك إلى حد كبير في زمانه وما بعد، بينما فشل بهلوي فشلاً ذريعاً.. يرجع الباحثون الفرق بين البلدين والنتائج التي تحققت فيهما إلى ضعف القيادة الدينية في تركيا وكون العلماء فيها

بمثابة الموظفين لدى الدولة، وإلى قوة المرجعية الدينية في إيران، ودور العلماء المتميز فيها. حيث رأى العلماء أن هذه الخطة تنهي استقلال البلد، وحضور الإسلام فيها.

4/ حفظ الكيان الشيعي لأتباع أهل البيت:

من الواضح أن مذهب أهل البيت عليهم السلام منذ أيام الأئمة المعصومين لم يكن محميًا من قبل السلاطين بل كان هؤلاء يعارضونه بل ويحاولون القضاء عليه، واستمر الحال في موقف النظام الرسمي في بلاد المسلمين وسلاطينهم إلى أيامنا الحالية.

وتتساءل: كيف عبر التشيع وأتباعه حقول الألغام هذه خلال أكثر من ألف سنة وأربعمئة من دون دولة، ولا مال، ولا سلاح!

وكيف تحول التشيع من شرذمة قليلة مطاردة، إلى ما يزيد عن ثلث المسلمين عددًا، ونظيرهم قوة وتأثيرًا في العالم؟

إن ذلك لم يكن إلا بخطط المرجعية الدينية وسعيها ثم اتباع شيعة أهل البيت لهذه المرجعية.

إن العالم لا يعترف بالأفراد. والدول التي ينتمي إليها شيعة أهل البيت مختلفة ومتعددة، وفي الجملة لا ترغب بظهور واضح لهويتهم، فما الذي يعرفهم؟ وما الذي يعطي لهم - بصفتهم المذهبية - كيانًا خاصًا؟

إنه بعد العقيدة والثقافة الشيعية، وجود قيادة دينية ومرجعية

يتحركون معها وبها. وعندما يقول القائل (ماذا حققت لنا) هذا الضمير الدال على جماعة المتكلمين (نا)، لم يكن ليصبح له وجودٌ واعتبار لولا تشكل هذا الكيان، وبينما تشكلت كيانات ومذاهب أخرى محمية بالسلطة والقوة،^(١) تشكل الكيان الشيعي بعد عصر الغيبة بمرجعيات واعية وقادرة علمياً، استطاعت أن تلم شتات شيعة أهل البيت وتقوي ضعفهم وتربطهم بثقافة واحدة - كما بيّنا سابقاً - وبمركز قرار واحد أو مراكز قرار منسجمة.

وبالرغم من محاولات السلاطين الظالمين اجتثاث المذهب والقضاء على وجوده الظاهري بمختلف الوسائل، إلا أن مرجعيات الشيعة استطاعت أن تعبر هذه التحديات، وأن لا تستدرج إلى المواجهات القاتلة فحفظت كيان التشيع من الاندثار والانحيار.

وقد ابتدأ المعادون للمذهب من أواخر أيام شيخ الطائفة الطوسي رحمته الله، في الهجوم على رموز المذهب الجعفري وشعائره، بل

(١) الأندلسي؛ ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢ / ٢٢٩: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قبله، فكان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه والمتتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاضي في أقطارنا إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به. على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلى قبول رأيه لديهم، وكذلك جرى الأمر في إفريقية لما ولي القضاء بها سحنون بن سعيد، ثم نشأ الناس على ما أنشأ».

لقد هاجموا شيخ الطائفة نفسه وأحرقوا جانباً مهماً من مكتبته، كما عطلوا درسه وحاول غوغاء الحنابلة المتعصبون في بغداد القضاء على شيخ الطائفة نفسه إلا أنه انسحب إلى النجف بجوار أمير المؤمنين عليه السلام، ليؤسس بدايات الحوزة العلمية في النجف الأشرف والتي استمرت من تلك الأيام إلى أيامنا.

وهكذا كانت الأمور وكانت المرجعية تعبر حقول الألغام هذه واحدة بعد أخرى، تارة مع سلاطين المسلمين وأخرى مع اجتياح المغول وثالثة مع محاولات السيطرة الصفوية ورابعة.. وهكذا.

كما تجاوزت المرجعية الدينية حروباً طائفية حاولت الجهات المعادية إلقاء الشيعة فيها، فقد حاول الوالي العثماني في بغداد إشعال نار طائفية في سامراء مع قدوم الميرزا الشيرازي الكبير إليها، وحاولت بريطانيا في هذه الأثناء التدخل بزعم حماية الشيعة في وجه الدولة التركية، إلا أن حكمة الميرزا الشيرازي ووعيه أبعدا البريطانيين عن التدخل ورجعوا مدحورين، وفي نفس الوقت عالج الموقف مع الوالي العثماني وأنصاره بنحو أخذ الخلاف وأبطل ما كان الأعداء يطلبون.

وفي نفس الوقت كان مراجع الدين إذا تهدد وجود شيعة أهل البيت أو حوزاتهم العلمية في مناطقهم كانوا يدافعون ويحشدون للدفاع، وأمامك نموذج الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمته الله، فقد استطاع أن يصد هجمات البدو الوهابيين عن النجف الأشرف،

ومن بعده تلميذه الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر بوضع خطة لتدريب أبناء النجف على حمل السلاح للدفاع عنها، كما أمر بترتيب سراديب النجف وربطها بشكل يحولها إلى مكان لحماية العوائل حين هجوم الأعداء، ولذلك بقيت مدينة النجف الأشرف حصينة وعصية على المهاجمين ولم يحصل فيها ما حصل في كربلاء من القتل والنهب والسلب في نفس تلك الفترة حيث فوجئت بهجوم الأعداء.

وأما في العصر الحديث فالأمر واضح حيث تشكل ما يسمى بالدولة الحديثة في بلاد المسلمين وكانت هذه الدول في أغلبها تفتت كل العلاقات باستثناء العلاقة (الوطنية) وبشكل خاص العلاقة مع (الحاكم الفعلي) الذي قد يتغير في سنوات أو شهور! فهل تراه يقبل بارتباط الشيعة في بلاده بأي شخصية مرجعية؟ فعانى الشيعة ومرجعياتهم الأمرين من هذه الحالة، والغيرة التي دونها غيرة الزوجة من سائر النساء!

فبقي الكيان الشيعي - بتميزه في فهم الدين وبنموذجه الخاص والتزامه بشعائر المذهب - مرتبطاً بالمرجعية الدينية والتي كانت أشبه بالحبل الرابط بين حبات المسبحة حتى لا تنفرط وتتشتطى.

5/ الحفاظ على الوحدة الإسلامية بين الشعوب والدول:

قد يتصور البعض أن هناك تخالفاً بين الحفاظ على الكيان الشيعي وبين الحفاظ على الوحدة الإسلامية! لكن أثبتت المرجعية الدينية

الشيعية - ولا تزال - عدم ذلك، وأنه بالإمكان الجمع بين الأمرين.
وبإمكاننا أن نشير إلى الأمور التالية:

◀ / ضبط إيقاع الفئات المتطرفة وجعلها في حدودها:

فالمرجعية الدينية تعلم أن في كل مذهب يوجد متطرفون في نفي غيرهم وتكفير من سواهم بل ويعملون على تكثير الخلافات بين المذاهب وتشديدها بحيث تصعد من الأمور الفرعية إلى أن تصبح عقائدية ومن كونها مذهبية إلى أن تصبح ديناً، بل ويرتبون عليها تعبئة مجتمعاتهم عليها بحيث لا يقبلون بأي نحو من أنحاء التواصل والتفاهم بين أبناء المذاهب المتعددة في الدائرة المسلمة، وصولاً إلى الاستفادة من الفرص المختلفة لتشديد الاحتراب الداخلي. وهم يقومون بذلك لأهداف متعددة ليس الآن مجال الحديث عنها.

المشكلة هي أن بعض قيادات المذاهب الأخرى قد تعتبر هذه الفئات المتطرفة، هي الموقف الرسمي للمذهب ذاك، وترتب عليه الآثار من العداوة والتعبئة المضادة وما شابه، بينما الأمر ليس كذلك، وتلك الفئات لا تمثل إلا فئات ضئيلة من أبناء مذهبها لكن صوتهما وصخبها عال ومُدَوِّش كالقنابل الصوتية.

ولقد رأينا أن المرجعية الدينية الشيعية لا تعتبر الفئات المتطرفة في المذاهب الأخرى ممثلة عن المذهب كاملاً وإنما هي تمثل فئات ضئيلة ذات مصالح معينة، فكانت هذه المرجعية الدينية مثلاً

توثق علاقتها وارتباطها وتواصلها مع الأزهر الشريف في القاهرة باعتبار أنه يمثل الأغلبية في المسلمين، وتتفاعل مع المؤسسات الإسلامية ذات الاتجاه المتناغم مع سائر المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومشیخة المذهب الأباضي في عمان، وهكذا!

هذا بالرغم من وجود فئات متطرفة في هذه المناطق وغيرها تأبى التواصل وتحذ القطیعة والاحتراب والهجوم على سائر المذاهب، وعلى التشیع بالذات.

وفي نفس الوقت فإن المرجعية الدينية لم تتخذ الطريق المتطرف بالرغم من أنه يستقطب أصحاب الحماس والمشاعر المذهبية، بل رفضت الوقوف مع هذه الفئات - مع أن بعضها مخلص لمذهبه - وتبنت المنهج المتوازن المعتدل الذي لا يقوم على أساس تهديم باقي المذاهب ولا الحرب معها.

ونلاحظ ذلك في أن الجهات المتطرفة في المذهب لا تتمتع - غالباً - بحماية المرجعية الدينية لا سيما العليا في الشيعة. بل لا تحصل على الرضا بفعلها كما يلحظ الناظر إلى الفتاوى الصادرة عنها. ولا سيما في هذه العقود المعاصرة.

وبالرغم من أن هذا هو اتجاه عام في المرجعية الدينية الشيعية إلا أننا نخص بالذكر هنا مرجعية الإمام السيد حسين الطباطبائي البروجردی^(١) الذي أبلى بلاء حسناً في هذا الجانب على صعيد التوجيه

(١) للتفصيل في هذا الشأن يراجع محاضراتنا في سلسلة أعلام الإمامية: بعنوان السيد البروجردی: فارس الوحدة والتنوير

الفكري والتخطيط العملي والفتاوى الرسمية، وإنشاء المؤسسات.

والناظر اليوم لفتاوى المرجعية الدينية العليا^(١) يجد ما ذكرناه جلياً واضحاً. نعم ربما يلحظ المتأمل انتكاسة في تاريخ هذا الانسجام أيام المحقق الكركي رحمته الله ونعتقد أن ذلك حصل على أثر دخول السياسة على خط المرجعية وما تتطلبه السياسة من أمور فكان الصراع العثماني الصفوي هو حامل الراية، وتبع ذلك بالطبع - كما قيل - كتب وفتاوى وممارسات وهذا يعتبر استثناء في تاريخ المرجعية، ولذلك رأينا أن المرجعية الدينية في خارج إيران في تلك الفترة لم تتفاعل بالشكل الكامل مع ما كان يجري فيها.

◀ ب/ الإصلاح بين الدول المسلمة عند التمكن:

وفي موضع أكبر رأينا العمل العظيم الذي قام به الشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمته الله عندما سعى في الإصلاح بين الدولتين التركية العثمانية والإيرانية القاجارية، وكان له منزلة عند الحاكم القاجاري فتح علي شاه إذ أشار عليه في إطلاق سراح الأسرى الأتراك مما هباً للصلح بينهما. ومن الواضح أن الحرب بين الدولتين كانت تعبئتها الكبرى على أساس مذهبي، فكل فريق يعبئ مقاتليه ومجمعه بأشد ما يمكن من التعبئة الدينية لكي ينتصر في القتال.

(١) فقد حرم التهجم على رموز أهل السنة المذهبيين، كما اعتبر أهل السنة «أنفسنا» وليس مجرد إخوان في الدين! ودعا في الكثير من بياناته إلى الحفاظ على الوحدة الإسلامية ونبذ عوامل التفرقة. للتفصيل يراجع موقع المرجع

وفي إحدى معارك العثمانيين مع القاجار تم أسر أعداد كبيرة من الأتراك، فقام الشيخ جعفر كاشف الغطاء بالتوسط لدى الشاه القاجاري وتم إطلاق سراح هؤلاء، الأمر الذي انعكس هدوءاً على الساحة الإسلامية، وقد واصل هذا الدور من بعده ولده الشيخ موسى حيث أوقع الصلح بين الدولتين سنة (١٢٣٧ هـ) فسمي بالمصلح بين الدولتين.

◀ ج/ مخاطبة الشعوب والنخب المسلمة في الوحدة:

وقد ذكرنا شيئاً عن ابنه الشيخ محمد حسين الذي طوف في العالم الإسلامي عاقداً الاجتماعات مع زعماء المذاهب الأخرى وعلمائها في تشييد كيان الاتحاد والتقارب^(١) فسافر إلى الحجاز والشام وإلى فلسطين وله المشاركة المهمة في المؤتمر الإسلامي ومواقفه المعروفة، وإلى الحجاز حيث تباحث مع كبار علمائها في هذا الشأن، سنة ١٣٢٩، وسافر إلى القاهرة ومكث فيها ثلاثة أشهر وخطب في الأزهر الشريف، وعرج على باكستان ولبنان من أجل هذا الغرض في فترات مختلفة.

وكان النداء لتحرير بلاد المسلمين من الاستعمار، عبر توحيد الصفوف الإسلامية هو الورد الدائم للمرجعية، وقد أشار باحثون إلى بعض أعمالها بالقول: «الشيخ الآخوند الخراساني قُتِبَتْ (١٩١١م) نادى في بيان له بتوحيد الصفوف.

(١) وقد صرح هو وغيره أنه ليس المقصود من الوحدة والتقارب أن تجعل المذاهب الإسلامية مذهباً واحداً.

وبعد ذلك ظهر على لسان شيخ الشريعة الإصفهاني قدس سره بيان له يحث المسلمين على الاتحاد لمواجهة الاستعمار.

وتبلور هذا الخطاب في زمان السيد هبة الدين الشهرستاني قدس سره.

وأول من طبقه ووضع أسسسه الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره والسيد شرف الدين العاملي قدس سره، ولكن الأول تبلور بخطبه وأعماله ومناظراته وسفره للمؤتمرات، وبعد ذلك خطا على خطاهم الشيخ الزنجاني قدس سره، والشيخ محمد جواد مغنية قدس سره، والشيخ المظفر قدس سره.

ومن العلماء المتأخرين الذين سلكوا هذا الطريق في حوزة النجف الأشرف الشيخ علي كاشف الغطاء قدس سره ^(١).

6/ حفظ إيمان المؤمنين في مناطقهم وتوسعة دائرة المذهب:

بالتدبير الذكي الذي كانت تقوم به المرجعية الدينية الشيعية من تعيين وكلاء ومندوبين لها في مختلف المناطق الشيعية، بحيث كانت كل البلدات والقرى مرتبطة بالمرجعية من خلال وكلائها المعتمدين، الذين كانوا يبينون للناس أحكام شرعهم، وعقائد دينهم، ويكونون بذلك أدلاء على صراط أهل البيت عليه السلام، ويقىمون الجماعات والجمع، ويصلحون بين الناس بقدر الاستطاعة، ^(٢) ولم

(١) كتاب/ روابط حوزة النجف الاشرف مع جامع الازهر/ محمد الكرباسي/
الكرونيامؤسسة كاشف الغطاء: 585?id=https://www.kashifalgetaa.com/

(٢) ذكر المرجع الديني المرحوم السيد محمد الشيرازي في كتابه «إلى الوكلاء في البلاد» نحو ٨٩ مهمة متنوعة، يطلب من الوكيل القيام بها. فليراجع.

يقتصر هذا على البلاد المسلمة بل امتد إلى الدول الغربية البعيدة، فتبنت المرجعية الدينية بناء وتأسيس وتمويل المساجد، والمراكز والجمعيات الإسلامية ويصعب عد وحساب المراكز والمؤسسات الإسلامية التي أسستها ومولتها المرجعية الدينية في العالم. لا سيما مع تعدد المراجع وتعدد الانتماء المرجعي في تلك المناطق، وقد كان لهذا - في بعض جهاته - أثر إيجابي في أن تكثر هذه المراكز والجماعات والجمعيات، وأن يحصل التنافس في سبيل تقديم الخدمات الدينية والثقافية. وإن كان له بعض الأعراض الجانبية السلبية على أثر الابتعاد عن قواعد التنافس السليم، وعدم الالتزام في التعامل الأخلاقي بتوجيهات مراجع الدين.

ومع إشارتنا إلى هذه الجهة لا ينبغي أن نغفل الآثار الإيجابية الكبيرة لهذا التعدد والتنوع.

وبهذه الطريقة من التأسيس والمتابعة وبعث الوكلاء والعلماء، أصبح الكثير ممن يعيشون في بلاد الاغتراب يجدون ما يحفظهم ويحفظ عوائلهم من الانجرار خلف تيارات اللادينية، والعبث، ويستعينون بمثل هذه المراكز والحسينيات ونشاط الوكلاء في توفير أجواء الإيمان والالتزام. وهذا واضح لكل من عاش في تلك المناطق أو سافر إليها.

بالطبع فإن كل هذه المشاريع والنشاطات لم تكن لتحدث لولا الدعم المادي المتمثل في الحقوق الشرعية حيث أجازت صرف تلك المبالغ في تلك الموارد. فما كان في تلك الفترات مثلاً دولة تصرف

على التبليغ للمذهب كما هو الحال في بعض المذاهب الأخرى.
 بل تحركت المرجعية الدينية الشيعية في توسعة دائرة المذهب،
 ونشره في مناطق جديدة لم تكن تعرف التشيع وطريق أهل البيت.
 والناظر في تاريخ انتشار المذهب الإمامي يجد العجب في هذا.
 وقد ذكرنا في كتابنا - صفحات من التاريخ السياسي للشيعية -
 ومحاضراتنا المكمل له، كيف أن المرجعية الدينية سعت بشكل
 مباشر وغير مباشر في إيصال نور الهداية للناس في مختلف أرجاء
 العالم لتقريبهم إلى منهاج آل محمد.

فالنظر إلى ما قام به العلامة الحلي رحمته الله من التأثير على الشاه
 خدابنده في إيران في تمسك الشاه بمذهب أهل البيت وإعلانه
 ذلك. وفيما بعد الدور الذي قام به المحقق الكركي في نشره بعد أن
 أعلن الصفويون التزامه بالمذهب الاثني عشري، والأعمال الكثيرة
 التي أداها الكركي والفضلاء والمجتهدون الذين جاؤوا معه بحيث
 تحول الإيرانيون إلى مذهب أهل البيت بشكل كامل.

وما قامت به الحوزة العلمية ومراجع الدين في العراق من
 تثقيف وتعليم الناس في وسط وجنوب العراق على أحكام وتعاليم
 آل محمد حتى صارت أكثرية السكان^(١) من أتباع أهل البيت عليهم السلام.

والمختصر:

أن الناظر إلى وضع الشيعة وما كانوا عليه في القرون الماضية،

(١) آل سيف؛ فوزي: صفحات من التاريخ السياسي للشيعية.

ووضعهم الفعلي ليلحظ شيئاً عظيماً من التقدم والنمو، وذلك بعد توفيق الله سبحانه وبركات محمد وآله، وتوضيحات الشيعة أنفسهم، راجع إلى القيادة الحكيمة التي عبرت كل ميادين الألغام، حتى أوصلت الشيعة والتشيع إلى ما هو عليه الآن.

إن السيارة التي تقطع الصحراء الصعبة، كما تتأثر بجودة صناعتها وقطع الغيار فيها، تتأثر بشكل أساس بالقائد الحكيم الذي يوصلها إلى موقع الأمان.

مميزات المرجعية الدينية الشيعية

الغالب أن كل منصب من المناصب يشترط شروطاً وصفات لمن يشغله؛ فمنصب الملك مثلاً في الدول الملكية يشترط فيه - غالباً - أن يكون أولاً من العائلة المالكة، وأحياناً من فرع خاص فيها، فلا يستطيع كل مواطن فيها أن يكون ملكاً، بل أحياناً لا يستطيع أبناء فرع من فروع تلك العائلة شغل منصب الملك، للنظام المنصوص عليه أو المتعارف عليه. فيتوارث المنصب من أب لابن أو من أخ لأخيه بعد توفر الشرط الأول وهو النسب ثم تأتي بقية الشروط من أصلحيته من غيره وهكذا.

وقد يكون أحد الشروط في منصب معين هو أن يكون من عرق معين، كما هو الحال في اشتراط مشهور مدرسة الخلفاء في خليفة المسلمين أن يكون عربياً وأن يكون من قريش! ولو كان يحكم على بلاد العجم أو الترك.

وفيما يرتبط بالزعامة الدينية في المسلمين، فقد حُسم الأمر

في مدرسة الخلفاء من وقت مبكر في الإسلام بأن الزعامة الدينية منوطة بقرار الخليفة والحاكم، فهو الذي يعين قاضي القضاة، والمفتي العام، والإمام الأكبر - كما يسمونه في مصر - فالميزة الأساس هي أنه معين من أعلى سلطة سياسية حاكمة، وتصبح أوامره نافذة ما كان هذا الخليفة أو الحاكم نافذ الأمر مطاعاً، فإذا سقط أمر الحاكم سقط بتبعه من عينهم من الموظفين ومنهم هذا المفتي أو القاضي الأكبر!

ولا نريد القول إن ذلك دائماً يتم اعتباطاً ومن غير مقاييس! وإنما نريد القول أن تصرفه الاجتماعي (في المال والولايات فضلاً عن الأحكام الشرعية) لا يكون إلا بعد اختياره من قبل الحاكم الرسمي وسلطان البلاد الغالب.

ولا يختلف في هذا الحال أن تكون الدولة ذات بنية دينية أو لا تكون، فحتى (الجمهوريات القائمة على أنظمة وثقافة علمانية) تلتزم هذا الأمر، فما يرتبط بالشؤون الدينية - سواء اتسعت أو ضاقت دائرتها - إنما يتصرف فيها ويقرر العالم الذي تعينه الدولة وتسبغ على أوامره الصفة النافذة.

في المقابل فإن مذهب أهل البيت عليهم السلام يختلف اختلافاً واضحاً في هذا الأمر، فقد بقي اختيار العالم والفقهاء الذي له الحق في الأمور الدينية إمضاءً ومنعاً، وفي الأحكام العامة تنفيذاً وتعطيلاً، بقي تحت اختيار المكلف والفرد المؤمن، وبناء على تشخيصه بأن هذا

العالم والفقيه أو ذاك هو الذي تنطبق عليه الصفات الواردة في من يجب تقليده واتباع أوامره، وأنه حجة من إمامه المعصوم الذي هو حجة من ربه عليه.

في هذه الحالة من كان حائزاً على تلك الميزات والصفات فيأمكنه اختياره و«للعوام أن يقلدوه» ولو كان سجيناً لا يستطيع أن يفك قيد نفسه أو محجوراً عليه في بيته بأمر الحاكم! ومن لم يكن كذلك - يرى شيعة أهل البيت - أنه لو صدرت مراسيم الدنيا في شأنه لما كان ملزماً باتباعه عن قناعة وطاعة قلب. نعم قد يضطر إلى مجاراته والخضوع له، مرغماً أو تقيّة أو غير ذلك لكنه لا يعتبره طريقاً سالكا لله عز وجل، وإنما (أثمتكم وفدكم إلى الله فانظروا من توفدون).

فما هي تلك الميزات والصفات:

1/ الدرجة العليا من الفقهة والاجتهاد:

وامتلاك القدرة على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها ومنابعها، وذلك أنه لما كانت الحوادث والقضايا تولد فروعاً وأسئلة فقهية، لم تكن بعينها موجودة في الأزمنة السابقة، كان لا بد من الاجتهاد فيها هو موجود من آيات القرآن الكريم والروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وأخبار الأئمة المعصومين، وسائر الأدلة.

وبالرغم من وجود آيات القرآن الكريم والروايات بين أيدي الناس إلا أن من الواضح أنهم لا يستطيعون الاستفادة منها

واستنباط الأحكام. تماماً مثلما أن النباتات وأصول العقاقير الطبية موجودة في الطبيعة والبساتين إلا أن الذي يستطيع تركيبها ونفع الناس بها هم الصيادلة العارفون والأطباء الماهرون.

ومع اختلاف درجات الفهم والاستيعاب لما هو موجود في المصادر التشريعية تلك، فإن القدر المتيقن في من يلزم اتباعهم وقبول كلامهم هم الفقهاء الحاذقون الذين يمتلكون علمية فائقة بل أعلمية عن غيرهم كما عليه رأي المشهور. لا سيما في مواضع احتمال الخلاف في الآراء.

ولعل التوقيع المشهور الذي أجاز التقليد للعوام حين استفاد من كلمة «الفقهاء» حصراً، ناظر إلى هذا المعنى فإن كلمة الفقيه على وزن فعيل وهي من صيغ المبالغة، يختلف عمن يدرس الفقه، وعمن يحفظ مسائله. وإنما هو المتبحر في الفقه، والممارس له بتلك الدرجة التي قلناها، وعلى الأقل هو القدر المتيقن منها والمحرز أنه مراد من كلمة الفقيه.

وبهذا يكون قد أخرج عامة الناس بوضوح بل أخرج طلاب العلم وممارسيه ممن لم يبلغ درجة الفقيه، وانحصر الأمر في «من كان من الفقهاء...».

2/ العدالة بمرتبة الورع:

إن ائتمان شخص على عشرة دولارات مثلاً يختلف عن ائتمانه على مليون دولار، فبينما قد لا تحتاج في الأول إلا مرتبة بسيطة

من الأمانة، تحتاج في الثاني إلى أعلى درجات الأمانة بل العدالة والإيمان، وذلك لأن التحدي الذي يواجهه سيكون عظيماً، ووسوسة الشيطان له ستكون أكبر، وثقل المسؤولية كذلك.

لقد نقل التاريخ بل رأينا في أيامنا أن بعض من كان مؤمناً ويضرب به المثل في التدين، لما عرضت عليه المناصب التي تحتها الأموال الطائلة، أضاع نفسه ودينه حتى لم يعرف شماله من يمينه! وإذا به مع تحدي الأموال هذه يسقط سقوطاً ذريعاً.

ومنصب المرجعية فيه من الإغراء ما ليس بالقليل، ففيه الأموال العظيمة حيث يحمل الناس خمس أموالهم وهي في بعض الحالات في مجموعها تتجاوز المليارات، وفيه من امتحانات الدنيا والشهوات الشيء العظيم وفيه الرئاسة وهي «أضر شيء على دين المسلم»، فحتاج إلى عدالة لا بمرتبة ما يشترط في إمام الجماعة وإنما بأعلى الدرجات^(١) لخطورة ما تحتها وما يصدر عنها.

وقد ورد في التوقيع المذكور في ما يرتبط بهذه الصفة قوله «صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه» فكما يحتاج البدن إلى صيانة تقيه مسببات الأمراض فكذلك تحتاج النفس إلى صيانة تمنع جرائم الفساد الداخلي أن تصل لنفسه وتفسدها، وكذلك أن يكون همه الحفاظ على دينه؛ سواء كان هذا بمعنى دينه الشخصي أو

(١) بالإضافة إلى أن طبيعة المنصب تقتضي ذلك، والدليل عليها واضح فقد ذكر ذلك بالصراحة المرجع الديني السيد محمد سعيد الحكيم في كتابه المرجعية الدينية..

دين الأمة العام، أي حافظاً للدين والرسالة. وطريق ذلك أن يكون مخالفاً لأهوائه ومشتهياته فإن هذا مما يعرف به صواب الطريق «نظر أقربهما إلى هواه فخالفه» وهذا بالإضافة إلى احتمال أن يكون الله قد جعل الواقع هو هكذا، فيه جانب تربوي وتهذيب أخلاقي.

وبقدر ما يخالف هواه هو متعلق بأمر مولاه سواء كان معنى المولى هنا المولى المجازي؛ وهو الإمام المعصوم أو المولى الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى.

وإذا كانت هذه من الصفات والميزات التي لا بد من توفرها في مرجع التقليد كشخص،^(١) فإن هناك ميزات في نفس الجهاز الإداري للشيعية، ومنصب المرجعية نفسه. ومنها:

3/ الاستقلالية عن الأنظمة الحاكمة التي لم تأت بمسوغ شرعي:

ولعل الباحث يرى أن نقطة التميز في مرجعية الدين في مذاهب مدرسة الخلفاء، وهو تعيين السلطة والحاكم لهذا الشخص ليصبح بذلك التعيين صاحب الأمر والنهي الشرعي، عكس نقطة التميز هذه هو نقطة التميز في المرجعية الدينية الشيعية، فإذا ارتبطت بمثل تلك الأنظمة تعييناً أو ترجيحاً أو تأييداً كان ذلك ضعفاً فيها بل نهاية لدورها.

وهذه الاستقلالية تعني أن تعيين المرجعية لم يأت بقرار من

(١) تركنا ذكر مواصفات آخر كالعقل والبلوغ وأن يكون إمامياً اثني عشرياً وأمثال ذلك.. لوضوحها.

تلك الأنظمة، وكذلك فإن ميزانيتها وتمويل أنشطتها وحوزاتها هو بعيد عن تلك الأنظمة ومعتمد اعتماداً تاماً على ما يتوفر لها من الحقوق الشرعية^(١) ولأجل ذلك فإن المرجعية الدينية الشيعية لا تجد نفسها مديونة لهذه الأنظمة بشيء لكي تفتي على ما يريده هوى الحاكم. ولا أن أشخاصها موظفون عنده ورزقهم يأتي من خلاله، حتى يضغط عليهم بهذا الجانب، كما هو الحال في المفتين في مدرسة الخلفاء، فإن تعيينهم يأتي بقرار من الحاكم المسيطر الذي يعتبرونه ولي الأمر (كائناً من كان عند بعضهم) ومعيشتهم ورواتبهم بل وصلاتهم في مساجد البلاد كل ذلك بإذنه وأمره، ومع غضبه عليهم يمكن أن يسلبهم كل هذه الأمور، فهم مضطرون لمسايرته فيما يريد. والنادر منهم هو الذي يخرج على هذا النظام ليواحه بالحرمان من كل شيء وربما تعطل - بسبب ذلك - دوره الديني.

بينما لا نجد هذا في المجتمع الشيعي الموالي لأهل البيت عليه السلام، فلا هم يستلمون رواتبهم من الدولة والأنظمة ولا ميزانيتهم ترتبط بهم.. وإنما لهم حالة استقلالية تجعلهم أقدر على الحركة - من هذه الجهة - ممن عداهم.

وقد ذكرنا في موضع آخر، بأن أحد أسباب فشل حملة التغريب التي قادها البهلوي الأول وابنه في إيران، ونجاح تلك الحملة في

(١) الحقوق الشرعية اصطلاح يقصد منه المال الذي يصل للفقيه ويكون أولى بالتصرف فيه ووضعه في موارده كالخمس والزكاة وربما أضاف لها البعض الكفارات والنذور.

تركيا على يد كمال أتاتورك، على الأقل في أيامه وإلى عهد قريب، أن أتاتورك استطاع أن يجمد وأن يلغي وجود علماء الإسلام الذين يخالفون توجهاته وأن يمنع عنهم الأموال الحكومية والمناصب (الدينية) بل والمساجد والتكايا ما لم يلتزموا بتوجيهات نظامه.

وهذا بخلاف الحالة في إيران حيث لا يستطيع الحاكم أن يصنع ذلك فإن المرجعية الدينية تعيش عالماً مستقلاً في ميزانيتها وقراراتها ووكلائها ومساجدها وقد وفر الخمس الشرعي^(١) حرية واسعة في الحركة للمرجعية الدينية التي لم تعتمد أصلاً على ميزانية الدولة.

4/ الاختيار الفردي الحر للمرجعية الدينية من الناس:

مثلاً أن العبادات كالصلاة والصوم هي مسؤولية شرعية فردية وواجب عيني على المؤمن، ولا يكفي أن يقوم بذلك غيره، ولا تسقط التكاليف هذه بقيام الغير بها عنه، كان أمر التقليد والرجوع الى الفقيه العادل مسؤولية شرعية فردية تقوم على اختيار الشخص نفسه.

هذا الأمر - في الجملة - يمنع من تدخل الكبراء، فضلاً عن

(١) يفتي فقهاء الإمامية بأنه يجب على المكلف أن يعطي ٢٠٪ مما زاد على مؤونته مما اكتسبه في سنته، ويصطلح عليه باسم / الخمس، وينطلقون في ذلك مما جاء في القرآن الكريم سورة الأنفال ٤١ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالسَّكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ ولا يخصصون ذلك بالغنمة الحربية كما يفعل فقهاء مدرسة الخلفاء، بالإضافة إلى استدلالهم بها ورد من روايات معتبرة عن الأئمة المعصومين، وقد تعرضنا لذلك مفصلاً في سلسلة قصة تشريع العبادات.

الأجانب في تعيين مرجع التقليد، وفرضه على الطائفة خلافا لما ذكرنا عن بعضهم عند حديثنا في موضوع آخر،^(١) فليس الأمر على طريقة الانتخابات إذ يتعين الرئيس حتى لو كانت مزورة وعلى الجميع أن يخضع له بعد ذلك.

ليس الأمر هكذا في المرجعية الشيعية، لأن هنا عنصراً أساسياً وهو قبول المقلدين وقرارهم في اتباعه وعدم اتباعه، فلو فرضنا - وهو فرض للجدل ليس أكثر - أن جهة ما عينت شخصاً ما للمرجعية ثم لم يقبل فضلاء الحوزة، وأساتذة بحوث الخارج، ووكلاء المراجع،^(٢) بل والمقلدون أنفسهم لم يقبلوا به، لا يستطيع في هذه الحالة أن يمارس أي دور من أدوار المرجعية.

ولأن الاختيار هنا حرٌّ وفردى - في الغالب - وجدنا أحياناً أن البيت الواحد قد يكون التقليد فيه لمرجعين أو ثلاثة أو أكثر بحسب توجهات وتشخيص أفراد البيت ذاك. ونحن هنا لا نريد أن نحكم على هذا الأمر بأنه حسن أو سيء وهل الأفضل وحدة المرجعية في الطائفة أو تعددها، فهذا بحث آخر، وإنما نتحدث عن واقع موجود وهو أن الاختيار لما كان حرّاً وفردياً كما ذكرنا فإن التعدد حاصل، ولذلك لا يمكن أن يُفرض شخص على عائلة واحدة بكاملها فضلاً عن الطائفة كلها.

وإنما أبناء الطائفة؛ بأنفسهم أو بالاستعانة بمن يثقون بهم -

(١) هل للغيب يد في المرجعية؟

(٢) سياقي في بحث آخر كيفية تعيين المرجعية في شخص أو أشخاص.

يشخصون أن فلائنا هو الذي تنطبق عليه المواصفات المطلوبة في مرجع التقليد، من الناحية العلمية والعملية وأنه الأجدر بالتقليد. فيقومون بتقليده والرجوع إليه، وهذا المعنى من الاختيار لا يحصل اتفاق فيه.

5/ المرجعية الدينية ليست وراثية:

كما ذكرنا في مقدمة هذا الموضوع من أن بعض المناصب تتقوم وتعتمد على الوراثة والنسب ثم تأتي بقية الصفات والميزات، كالأنظمة الملكية في الدول إلا أن المرجعية الدينية الشيعية ليست هكذا، ففيها تنعكس المعادلة، فأولا ينظر إلى الصفات والميزات التي تقدم ذكرها من الفقهارة والاجتهاد في الجانب النظري والورع في الجانب العملي والسلوكي، ثم تأتي صفات أخرى ويكون النسب متأخراً، وهذا كما يقول أهل الأصول: المرجعية بالنسبة للنسب لا بشرط، أي قد يكون ابن المرجع أو أخوه غير حائز على الشروط والصفات المطلوبة في المرجع، فلا ينفع انتسابه للمرجع شيئاً! وقد يكون الشخص حائزاً على تلك الشروط ولكنه ليس قريباً من المرجع بل ليس من بلده أو من قوميته، فلا يضره ذلك بشيء!

ولا يعني ذلك أننا نرفض مرجعية ما لأن أباه أو أخاه أو ابن عمه كان مرجعاً! كلا فهذا خلاف الإنصاف. إذ من الممكن أن يكون في عائلة ما قدرات علمية شامخة وفقهاء مقتدرون،^(١) فلا

(١) اشتهر في تاريخ الشيعة أسر علمية تحدث عن بعضها في التاريخ السيد بحر العلوم في كتابه الفوائد الرجالية. والناظر للواقع الحاضر يلاحظ ذلك أيضاً.

يصح أن تكون قرابتهم من المرجع الذي كان، عقوبة لهم بحرمانهم.
وإنما المدار هو على توفر الشرائط المطلوبة، فإن كانت فيها
ونعمت، وإلا فلا.

6/ هناك صفات تفضيلية وإن كانت ليست تأسيسية:

يمكن أن تحسب لهذا العالم أو ذاك، بالرغم من أنها لا تدخل
في الشرائط التي ذكرناها، ولكنها قد تسبب مزيد رغبة عند بعض
المؤمنين في التوجه إلى شخص دون غيره وتقليله دون سواء
وتفضيله عند المقارنة.

ومن ذلك المعرفة أو الممارسة السياسية أو حتى تشكيل الدولة،
فقد تكون باعثاً عند بعض المؤمنين خصوصاً ممن يستهويهم هذا
النحو من الفكر أو الممارسة، على تفضيل مرجعية على أخرى
يعتقدون بعدم امتلاكها لنفس المقدار من هذا الجانب.

ومن ذلك حسن الإدارة الاجتماعية، سواء فيما يرتبط بالتعامل
مع الناس أو تأسيس المؤسسات والمراكز وما شابه ذلك فإن هذه
بدورها قد تكون باعثاً على تفضيل المؤمنين من يحمل هذه الصفة
من المرجعيات الدينية على غيرها.

ومن ذلك مثلاً التركيز على الجوانب الثقيفية والتوعوية، فقد
يجد بعض المؤمنين أن مرجعية ما تهتم بهذا الجانب أكثر من غيرها،
ويعتقد هذا البعض أن حاجة الأمة هي في هذا الاتجاه فيكون ذلك
باعثاً على تفضيلهم إياها على غيرها.. وهلم جراً.

والمهم أن يعرف المؤمن أن هذه هي صفات تفضيلية وليست تأسيسية، وإنما الجانب الأصلي هو ما ذكرنا من الشرائط الأولى التي وردت في حديث الإمام العسكري عليه السلام: الفقاهاة - أو الاعلمية - والورع.

تضحيات المرجعية الدينية

يترافق الابتلاء مع الإيمان كأنهما شقيقان، وفي حياة من أصبحوا مراجع التقليد، وجدنا ذلك واضحًا، وكأنه قاعدة لازمة! ويبدأ ذلك من الحالة المعاشية الصعبة، في المسكن والطعام واللباس وما يتعلق بذلك، مرورًا بمضايقة الحكومات والجهات المتنفذة من السجن أحيانًا إلى التسفير والإبعاد من الحوزة بل من الوطن، وانتهاءً بالقتل والتصفية الجسدية.

الغريب في الأمر أن حالة الضيق المعاشي قد تستمر إلى ما بعد تسنم منصب المرجعية وربما حتى العليا! نقول الغريب، لأن عامة المؤمنين متى فتح الله عليهم أبواب الرزق، ترفهوا في الحياة - وهو أمر محلل - ورفعوا عنهم وطأة الضيق، وعن عيالهم المعاناة! لكننا لا نجد ذلك في الحالات المرجعية، فالغالب أننا نرى أنه لم يتغير عليهم الحال فالبيت الذي كان يسكنه قبل مرجعيته هو نفسه بعدها واللباس هو اللباس والطعام كذلك وغيرها..

نتحدث هنا عن المرجعية الدينية الشيعية كحالة عامة، وغالبية فلا يُنقَض علينا بمثال جزئي، قد لا يكون حاوياً على كل الصفات أو اقتضت ظروفه غير ذلك. فلسنا أمام معادلة رياضية لا تقبل الاستثناء.

◀ الزهد عفة النفس وشطف العيش:

الغالب في حياة طلاب العلم الحوزويين هو أنهم يعيشون مستوى بسيطاً من الحياة المادية، لا تخطئه العين فبمجرد أن تدخل إلى بلدة من بلدان الحوزات العلمية تعرب لك مبانيها وبيوتها ومدارسها وشوارعها عما ذكرنا، ويرجع بعضه إلى إهمال من قبل الحكومات التي لا ترعى هذه المناطق، وإلى عدم الإمكانيات الشخصية لطالب العلم.

وفوق هذا فإن من عناصر التربية الأخلاقية التي يفترض أن تكون في طلاب العلم، عدم التعلق بالدنيا، ويساعد الجو العام على هذا حيث التنافس لا في المظاهر وإنما في تحصيل العلم والجدية في الدرس.

وهنا لا نريد أن نعطي صورة مثالية ملائكية عن الحوزة العلمية وطلابها وأجوائها، فليس الأمر هكذا! ولكن كل بيئة من شأنها أن يتنافس من يعيش فيها، فيما هو الغرض من تلك البيئة وما به السبق. فالبيئة الرياضية مثلاً يتوقع منها أن تنتج لاعبين رياضيين يتسابقون في هذا المضمار، ولا يعقل أن يكون التنافس

فيها على المعرفة الهندسية أو الطبية! وهكذا البيئة الاقتصادية لا يتوقع ممن يعيش فيها أن يتنافس في بناء العضلات وكمال الاجسام وإنما التنافس فيها في تنمية المال والمعرفة بالتجارة وهكذا.

والبيئة الحوزوية يتنافس فيها في تحصيل العلم الشرعي وتربية النفس، ولا يتوقع منها غير ذلك. وكما أن سائر البيئات سيكون فيها الممتاز الذي يحل في المرتبة الأولى، والمتوسط، يكون فيها أيضا العاثر وغير الجاد الذي لا يحصل على شيء سوى أن اسمه رياضي مثلا أو اقتصادي، كذلك هو الحال في الحوزات العلمية فقد تجد فيها من أصحاب المراتب العالية، ومتوسطي المراتب مثلا تجد بعض غير الجادين، والفاشلين بالنتيجة.

نقول البيئة العامة الموجودة في الحوزات والتي تزرع فيها بذور المرجعية هي قائمة على أساس البعد عن الكماليات قدر الإمكان بل هي إلى شطف العيش أقرب.

ولا يُنقَض على هذا الكلام بأن بعض العلماء أو طلاب العلم يعيشون حياة مرفهة، فهذا وإن كان صحيحاً، إلا أنه في نسبة ضئيلة بالقياس إلى عامة طلاب الحوزات، كما أنه لا ينظر إليه بنظرة تقدير كما ينظر إلى الزاهد، ولا يشار إليه على أنه قدوة!

وفي هذا السياق تكثر القصص حتى تعسر على الحصر والعد، فإن شئت تحدثت عن الشيخ (الأعظم) المرتضى الأنصاري^(١) الذي

(١) سيأتي شيء من الحديث عن سيرته.

لم يتغير حاله بعد المرجعية العامة عما كان عليه قبل المرجعية، حتى قيل إنه جاء أحد التجار وأخبره أنه جاء بمبلغ من المال (ليس من الحقوق الشرعية وإنما من حر ماله) وأنه يريد أن يهديه ذلك المبلغ ليني له (أو يشتري) بيتاً مناسباً، فقبل الشيخ المال منه، واشترى به أرضاً أقيم عليه مسجد لا يزال معروفاً باسمه رحمته في نهاية (سوق الحويش في النجف)! وبقي هو في منزله السابق المستأجر، وعندما توفي قيل إن مقدار تركته كانت تعادل (١٧) توماناً!^(١)

ومثل ذلك ما نقل عن الميرزا محمد تقي الشيرازي الذي عرف بعض التجار من منطقته عوزة وحاجته للمسكن فبعث له بمبلغ ٥٠٠ ليرة ذهب ليشتري له داراً، فما كان من الميرزا إلا أنه أودع المبلغ عند بعض الخبازين، حتى إذا صارت المرجعية له حوله خبراً لطلاب العلم.

وعاش أمثالهم زهرة شبابهم في حال شديدة من الحاجة، وصبروا عليها ابتغاء وجه الله وخدمة لمنهج أهل البيت عليه السلام وتحقيق علومهم، مثل الشيخ مهدي النراقي صاحب جامع السعادات الذي كان فقيراً إلى الحد الذي كان فيه يطالع درسه على سراج بيت الخلاء في المدرسة، مع ما كان يكتنف ذلك من الإحراج والأذى!

ونظيره السيد أبو الحسن الإصفهاني الذي بلغ به الحال أن

(١) ذكر البعض أنها ٣ دنانير ولا أعلم هل هي تساوي ١٧ توماناً بمقاييس ذلك الزمان أو لا!

كان في أيام دراسته لم يجد اجرة البيت فألقى صاحب المنزل أثاث السيد خارج البيت، وأخرج عياله إلى الشارع فاضطر أن ينام في حجرات مسجد الكوفة لعدة ليال حتى تيسر له الأمر..

ولك أن تنظر في الكتب المخصصة لحياة العلماء لتتأمل إلى حالات أشد من المعاناة والصعوبة، غير الذي ذكرنا.

وإذا كان العلماء ومراجع التقليد قد عاشوا هذه الحياة العسيرة أيام دراستهم وأيضاً بعد مرجعيتهم! وتصبروا عليها مختارين في ذلك ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ فلم يكن هذا المجال هو الوحيد في تضحياتهم ومعاناتهم، بل كان هناك أمور أصعب، ومنها:

◀ المعاناة مع سلاطين الجور:

وجد في أزمنة مختلفة في بلاد المسلمين، بعض السلاطين تنكبوا جانب العدل، وامتطوا صهوة الظلم الجاحمة، فكانت الأمة منهم في تعب وعناء، وتصور هؤلاء بأن مراجع الدين ينافسونهم في دنياهم، وما علموا أن تحقيق مسألة في الفقه أو الأصول بأدلتها عند هؤلاء الفقهاء، تعدل دنيا الحاكمين، وتفوق لذتهم والشعور بالسعادة فيها ملك المشرقين!

وكلما زاد قبول الناس لهؤلاء الفقهاء، وتمكنت محبتهم في قلوبهم، مع أن الفقهاء (يأخذون) من الناس الأموال - كما في صورة الخمس وأشباهه - والإنسان بطبعه ميال لمن يعطيه لا لمن يأخذ منه.. كلما زاد قبول الناس للفقهاء والمراجع، زاد توجس

الظالمين منهم، وانشغلوا بالتخطيط والتدبير للإضرار بهم.

فكان أن أنتج ذلك علاقة سلبية، اكتفى فيها العلماء والفقهاء غالباً بالانصراف عن دنيا الحاكمين وسياساتهم، واقتصروا على بحوثهم وعلمهم وطلابهم، وعمرؤا حوزات دروسهم، بل ابتعدوا جغرافياً عن مراكز السلطان وعواصم البلدان، واعتزلوا في مدن نائية وقرى بعيدة عن مراكز القرار والسياسة، ولعل الناظر لا تخطئ عيناه أنه منذ خروج شيخ الطائفة الطوسي من بغداد سنة (٤٤٨ هـ) إلى النجف وإلى أيامنا المعاصرة لم تعد الحوزات إلى مراكز البلاد إلا استثناء ولفترات قصيرة لا تكاد تذكر.

بل بلغ اعتزال العلماء رجال الحكم وسلاطين البلاد حدّاً بحيث أن من يتهم بأنه على علاقة مع السلاطين، يُعرض عنه الناس وتزوّر عنه الحوزات. ولا يرضى عنه طلابها!

هذا من جهة العلماء والفقهاء، وأما من جهة السلاطين فكما أخطأوا في الموقف أولاً، اخطأوا ثانياً عندما اعتبروا أن كل ما يفعله هؤلاء العلماء هو لمناكفتهم ومعارضتهم! وأخطأوا ثالثاً عندما جعلوا محور علاقتهم بالعلماء والفقهاء قائماً على القوة الجبرية بشتى أشكالها فامتحنوا العلماء والفقهاء بأشكال مختلفة منها:

◀ التهجير والتسفير:

وتطول قائمة العلماء الذين تم «تسفيرهم وتهجيرهم» من الحوزات العلمية أو مدنهم وبلداتهم، إلى أماكن أخرى، سواء بشكل

مباشر أو بإيجاد أجواء يكون الفقيه فيه أمام أحد الخيارين، القتل أو الخروج من الوطن! وهو الذي حصل لشيخ الطائفة الطوسي حيث حرض السلطان السلجوقي متعصبة العوام الطائفيين بالهجوم على مكتبته وبيته ومجلس درسه، وقتله لو تمكنوا! فما كان من الشيخ إلا أن ترك بغداد و﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ومع الشيخ سافر تلامذته - بالرغم منهم - من بلدهم إلى النجف التي ستصبح فيما بعد قبلة الحوزات.

وفي العصر الحديث قام البريطانيون أيام احتلالهم العراق بتهجير كبار علماء الحوزة في النجف: الميرزا النائيني والشيخ مهدي الخالصي والسيد أبو الحسن الاصفهاني، وغيرهم.

وكذلك كان المرحوم السيد الخميني قد تم تسفيره بواسطة السلطة من قم المقدسة إلى خارج البلاد وأمضى نحو ١٥ عاما وهو في المنفى ما بين تركيا والعراق. وقد تم إبعاد المرحوم السيد صادق الروحاني من الحوزة إلى بلدة نائية وفرض عليه الإقامة فيها، بحيث لا يخرج منها، وقد أشار إلى ذلك في بعض بحوثه العلمية وأنه صنف ذلك الكتاب في وقت إبعاده عن الحوزة وبلده.

وأما في العراق فتلك قصة أخرى من المعاناة الشاملة التي حصلت مع مجيء حزب البعث، وبدايات حكم صدام حسين، فقد كان فيها التهجير بالجملة لا بالأفراد، وبالعوائل لا الأشخاص!

والسجن فيها (بالكوم) وعنوان العائلة بغض النظر عن الاسم والعمر. فكان على أثر ذلك أن طحنت عوائل من آل الحكيم والصدر وبحر العلوم والشيرازي والمرعشي والتبريزي والخلخالي والخوائي والجواهري والقبانجي وغيرهم. وكأنها كان نص دعاء الندبة «فَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَسُبِيَ مَنْ سُبِيَ وَأَقْصِيَ مَنْ أُقْصِيَ وَجَرَى الْقَضَاءُ لَهُمْ بِمَا يُرْجَى لَهُ حُسْنُ الْمَثُوبَةِ» نازلاً في حقهم وواصفاً لأحوالهم.

◀ السجن:

تعرض الكثير من الفقهاء ومراجع الدين إلى اعتقالات تعسفية ولا سيما في العراق وإيران، وفي مثال العراق فقد كان الفقيه يسجن ويسجن معه عدد كبير من عائلته، ومثلما كان اعتقال الفقهاء والعلماء من غير مبرر فقد كان بالنسبة إلى أقاربهم (من أولاد وأحفاد وأصهار) أوضح في كونه تعسفياً ظالماً ومن غير مبرر شرعي أو قانوني.

◀ والقتل:

وتتواصل قائمة التضحيات التي قدمتها المرجعية والفقهاء، والمعاناة التي تجرعوا مراراتها بكل الأشكال ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْنُوا﴾^(١)، حتى اقترنت الشهادة والفقاهة في تاريخ الشيعة في (زواج دائم) فكان الشهيد الأول والثاني والثالث والرابع، وتطول القائمة.. وقد ترجم الشيخ

(١) آل عمران: ١٤٦.

الأميني رحمته الله في كتابه (شهداء الفضيلة) لـ (١٣٤) عالماً شهيداً امتدّت إليهم أيدي الغدر والحقد والخيانة، فأودت بحياتهم، وكان عدد وافر منهم أصحاب درجات علمية في مقام المرجعية أو تؤهلهم لو استمرت حياتهم لذلك.

وأورد المجمع العالمي لأهل البيت في كتاب (شهداء العلم والفضيلة) نحو (٢٥٠) اسماً لشهداء الحوزات العلمية، ما بين فقيه مجتهد وفاضل محقق وخطيب متألق، وكل ذلك في مدة (٣٥) سنة من حكم النظام البعثي.

إن هذه التضحيات لم يكن دافعها من أصحابها سوى أنهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ وأنهم كانوا على منهاج أئمتهم الطاهرين، الذين وهبوا أنفسهم الزكية في سبيل الشريعة وهداية المؤمنين.

هل هناك يد للغيب في المرجعية

هل هناك يد للغيب في المرجعية الدينية الشيعية أو لا؟ بمعنى أن تسنم المنصب الأعلى - على الأقل - في المرجعية الدينية، هو من جملة ما يتدخل فيه الغيب، ويهيئ أسبابه لبعض ولا يهيئها لبعض آخر، ونقصد بالغيب هنا تدخل الإمام المهدي عجل الله فرجه. يمكن أن نتصور وجود ثلاث نظريات تتولى الإجابة على هذا السؤال.

◀ أولى النظريات: الفكرة المادية:

ويمكن شرحها بأنها ترى أن الوصول للمرجعية الدينية، والوصول على هذا المنصب هو كسائر انحاء الوصول الى الزعامة والقيادة، وهو أمر دنيوي يتنافس فيه أشخاص فيعيق هذا ذاك، ويتقدم هذا على ذاك أو حتى يعرقل وصوله، وفي هذه الأثناء يستخدم كل شخص قوته المالية، وقدرته الاجتماعية والإعلامية، ويستنفر أنصاره. والأمر في هذا هو أشبه بالانتخابات السياسية،

أو الجمعيات. والمعادلات التي تحكم تلك الصراعات والمنافسات تحكم الموضوع المرجعي.

بل ربما تقدم بعض أصحاب هذه الفكرة في الموضوع، ليشيروا إلى أن التحالفات المحلية وربما الدولية مؤثرة في نيل شخص ما المرجعية وعدم نيل آخر لها، ولو أرادوا التصريح لقالوا بأن المخابرات الدولية هي التي يكون لها كلمة الفصل.

وبالتالي فأصحاب هذه الفكرة لا يرون في الموضوع المرجعي أي اختلاف عن غيره، بل لا يوجد فيه للوصول إليه أي نحو من المحرمات أو الممنوعات فالمهم الوصول إلى ذلك المنصب!

◀ نقد النظرية:

نعتقد أن هذه النظرية غريبة عن الواقع الشيعي، والمرجعي بوجه خاص، فإما هي لا تعرفه أصلاً أو حتى مع معرفتها إياه تريد فصل الناس عنه بالتشكيك في مشروعيته وقيميته، والتزامه الديني!

ولنا أن نقول شيئاً آخر؛ وهو أن بعض المجتمعات التي كانت تحت احتلال أو سيطرة بريطانية (كالعراق وإيران ومنطقة الخليج) هي مسكونة بفكرة خاطئة وهي أن المخابرات (وبالذات البريطانية) وبتعبيرهم «أبو ناجي» هي التي تدير كل شيء في العالم، حتى لو أن فحليين من الجمال اعتركا في بطن صحراء لرستان على ناقة، أو ثورين انتطحا في أطراف السماوة، فإنهم يبحثون عن أصابع «أبو

ناجي!»! وقد ركز البريطانيون - مع طول فترة بقائهم الاستعمارية وما بعد الاستعمار كنفوذ- هذه الفكرة بين الناس بوسائل إعلامهم المختلفة، ومنها الطبقات الشعبية، والأمثلة المتداولة.. هذه الفكرة.

وكأنهم نجحوا في إقناع الناس في هذه المناطق أن بريطانيا (التي كانت عظمى) ستبقى إلى الأبد عظمى بنفوذها وخططها وتدخلاتها. بل يكاد بعضهم من دون أن يصرح بذلك يؤمن بأنها إله، لا يتحرك في العالم شيء إلا بإذنه! فهي التي تقيم الدول وتسقطها وتحرك الناس وتوقفهم، وهي على كل شيء قديرة!

وهؤلاء بهذه الأفكار التي تخالف توحيد الله سبحانه، يؤمنون بعمق بأن الزعامات الدينية والمرجعيات هي بريطانية وقد جاءت بهم أجهزتها، ولا يعدمون في هذا الباب قصصا مفبركة، وحوادث مكذوبة أو قضايا لا دلالة فيها على ما يطلبون. لكنهم مع ذلك يتعاملون على أساس أنها حق، بل يفتخر بعضهم بها زاعما أنه يمتلك «معلومات خاصة» لا يعرفها غيره!

وتسأل هؤلاء: إن بإمكان هذه المخابرات كما ترعمون أن تعطي المال وأمثاله، لكن هل بإمكانها أن تعطي الزعامات العلوم كالفقه والأصول والرجال، وهل بإمكانها أن تخلق رجلاً يستطيع أن يبحث المسائل في أعلى درجات التخصص العلمي وما يسمى ببحث الخارج مدة خمسين سنة؟ وأن يجيب على كل الأسئلة الموجهة إليه وأن يناقش أدق النظريات العلمية ويستدل لرأيه الخاص؟

وأن يكون هذا بحيث يدعن له طلاب البحث الخارج والفضلاء الفقهاء..

هل بإمكان «أبو ناجي» المزعوم ومن وراءه أن يصنع ذلك؟
﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(١).

والحقيقة أن هذه النظرية خصوصاً بلباسها الثاني لا تستحق الرد عليها، ولكننا فعلنا ذلك لأن هناك من يستفيد منها ويتنفع بإشاعة فكرتها وإن كانت باطلة.

◀ الثانية: الفكرة الاجتماعية:

وهي لا تقبل الفكرة الأولى بالنحو الذي عرضناه، ولكنها تطرح بديلاً آخر وهو: أن المرجعية الدينية هي كسائر المناصب القيادية تحتاج الى مؤهلات شخصية من العلم والكفاءة العملية والورع وتحتاج حسن إدارة التوصل للقيادة أيضاً، وقد شهدنا أن بعض الفقهاء ربما كانت مؤهلاتهم الشخصية أعلى من غيرهم، لكن إدارتهم الاجتماعية لم تكن بقدره آخرين، فلم يتوصلوا إلى المرجعية العليا.

وهذه النظرية لا تقبل ما تقدم في النظرية الأولى لا سيما لجهة تدخل الجهات الخارجية في تعيين المرجعية، وإنما ترى أن المسألة ليس فيها جانب غيبي بمعنى أن يكون الإمام المعصوم مثلاً يتدخل

(١) الزخرف: ٨١.

في التعيين أو توجيه الناس إلى هذا المرجع بالذات دون غيره. تماماً مثلما أنها ترفض وجود تنافس أو صراع يخلو من القيم أو يتخطى المحرمات.. لا هذا ولا ذاك! وإنما هي ضمن الحالات الاجتماعية، فأَي المرجعيات كان أخطر فإن الزعامة تتجه نحوه!

◀ نقد النظرية:

نقول هذه الفكرة فيها جانب صحيح وفيها جانب نعتقد بخطئه، الصحيح منها هو أن المرجعية الدينية تحتاج الى مؤهلات شخصية عالية المستوى، مثلاً بأن يعرف المرشح للمرجعية بالعلمية الفائقة أو الأعلمية، وأن يكون معروفاً في الأوساط الحوزوية بالصفات الأخلاقية العالية وأهمها الورع.. هذا على المستوى الشخصي، ولا ريب أن حسن إدارة الموضوع المرجعي وهو يبدأ مما قبل مرحلة الترشيح لها مؤثر للغاية، فمن كان بطبعه سخيّاً جواداً هو أقرب إلى القبول من الناس، ومن كان حسن العشرة وأخلاقه الاجتماعية متميزة يتقدم في العادة على من لا يمتلك تلك الخصائص الأخلاقية.. هذا كله صحيح.

وأما الجانب الخاطيء فيما نعتقد، فهو النفي الكامل لتدخل الأمر الغيبي فيها بالمرّة! واعتبار أن هذه الدائرة ليست ضمن دائرة الغيب، هذا نعتقه غير صحيح.. للأسباب التي ستأتي في الحديث عن النظرية الثالثة التي تؤمن بمدخلة الغيب في أمر المرجعية الدينية.

◀ الثالثة: تدخّل الغيب:

ويرى أصحابها أن المرجعية الدينية تحتاج الى كل تلك المؤهلات الشخصية (العلمية والعملية والأخلاقية وحسن إدارة الوصول إلى المرجعية) لكن هناك لبنة أخيرة أساسية لا يمكن أن يصل البناء فيها الى كماله والمرجعية الدينية الى موقعها إلا بعد أن تكون يد التوفيق الغيبي والمدد الإلهي من قائم آل محمد عليه السلام والميراث.

وأن كل الصفات السابقة لو اجتمعت مالم تكن يد الغيب حاضرة فلا تتيسر المرجعية - لا سيما العليا للطائفة - لشخص.

ويستدل أصحاب هذه النظرية على ما ذهبوا إليه بالتالي:

بأن الله أنعم على البشر بنعم لا تحصى لكن أعظمها أن سهل لهم طرق الوصول إليه والتعرف عليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور^(١) وبعث الله سبحانه وتعالى رسله لهم مبشرين ومنذرين، وكان آخرهم سيد الأولين والآخرين محمداً عليه السلام الذي كان كما وصفه ربه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وَأَمَّ اللَّهُ نَعَمَتَهُ بِأَنْ «جَعَلَ أَوْصِيَاءَ مُسْتَحْفَظًا بَعْدَ مُسْتَحْفَظٍ...»^(٣)، فترك رسول الله في أمته اثني عشر معصوماً هم عترته، الذين إن

(١) الأحزاب: ٤٣ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا﴾.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) المشهدي؛ محمد بن جعفر: المزار ص ٥٧٥.

تمسكت بهم الأمة لن تضل من بعد النبي أبداً، وعلى الرغم من كل التضحيات التي قدمتها العترة الطاهرة حيث «قتل من قتل وسبي من سبي وأقصي من أقصي» إلا أن ذلك كان يستحق كل ما حدث لأنه فيه تمام الرسالة النبوية والحفاظ على الجهود المحمدية، وبقاء الناس في الصراط المستقيم.

هل يعقل بعد كل تلك التضحيات والجهود أن يترك الله سبحانه أمة نبيه والمؤمنين من خلقه وهم وارثو جهود تلك الصفوة هملاً بلا دليل؟ أو يتركهم للعب الطواغيت يتقاذفونهم يميناً وشمالاً تقاذف الكرة؟ ويعينون لهم طريقة عبادتهم وكيفية حياتهم؟

هل يعقل أن الله سبحانه لما كانت أمة النبي وأتباع الوصي بالآلاف عدداً كان مهتماً بهم غاية الاهتمام، حتى إذا صار بمئات الملايين - كما هو الحال في هذا الزمان - تركهم، وأهملهم؟

إن هذا غير ممكن ولا يمكن تعقله!

أترى الله سبحانه ترك الأمر في يد الغالبين، ومن كان له قدرات شخصية أو مالية، وإدارية، وتحالفات.

هذا غير معقول أبداً..

وقد يصوغ البعض هذه الفكرة بصياغة تتفق مع ما سمي بقاعدة اللطف في علم الكلام. ومقتضاها أن الله سبحانه للطفه بعباده فقد عرفهم ما يقربهم إلى الحق وبصرهم بما يوصلهم إلى الباطل. ومن ذلك أنه بعث إليهم الأنبياء ونصب الأوصياء.

فهل كانت هذه النعمة مقصورة على من عاش إلى زمان غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، يعني كانت مدة هذا اللطف نحو مائتين وخمسين سنة.. وأما باقي البشر في سائر العصور فهم محرومون من اللطف؟ - ويضيف أتباع هذه الفكرة، أمراً آخر وهو:

أننا نعتقد أن الإمام الحجة عجل الله فرجه، وإن كان غائباً عن النظر إلا أنه ليس غائباً عن التصرف والتدبير^(١) وهو مقتضى إمامته الفعلية ويشهد لها الأخبار الواردة ومنها ما نقل في توقعاته كما نقل عن الشيخ المفيد رحمته عن الإمام الحجة: «إِنَّا غَيْرُ مُهْمَلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ، وَلَا نَاسِينَ لِدِكْرِكُمْ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمْ اللَّأَوَاءُ، وَاصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ».

وإذا كان الإمام المهدي عجل الله فرجه لا يترك أوليائه والمؤمنين به في أمورهم الشخصية، بل يتدخل فيها ولا ينسى أتباعه - ضمن إطار الحكمة والوضع الخاص - فهل تراه صلوات الله عليه وعلى آبائه، يترك أمر المرجعية الدينية وهي القيادة العليا للطائفة التي تعين أحكام الله تعالى لملايين المؤمنين، وتتحكم في معاملاتهم؛ نكاحهم وطلاقهم ومواريثهم وعلاقاتهم.. يترك هذا المقام والمنصب مهماً ليسيطر عليه من لا يستحقه؟

هذا أمر لا يمكن أن يكون مقبولاً أو صحيحاً.

(١) قد ذكرنا ما يرتبط بهذه الفكرة في كتابنا في سلسلة النبي والعترة - الإمام المهدي: عدالة منتظرة.

وثالث الجهات التي يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية، وهي التجربة العملية للمرجعية الدينية العليا من زمان غيبة الامام الحجة عجل الله فرجه الشريف إلى أيامنا المعاصرة. وستعرض في بحث آخر إلى نماذج عن المرجعيات العليا في تاريخ الشيعة.

وقد بحثنا في موضوع ماذا حققت المرجعية الدينية الإنجازات الكبيرة التي حصلت ببركة قيادة هذه المرجعيات، وقد رأينا كيف أنها كانت مصداقاً للزعيم المناسب في عصره، وكيف قادت الطائفة بسلامة ونجاح. ولا نعتقد أن ذلك كان على سبيل الصدفة.

بل يضيف أصحاب هذه النظرية إلى مقالتهم؛ أن حوادث الكثير من صعود مرجعية معينة إلى المرجعية العليا كان على خلاف توقعات الكثير، بمن فيهم شخص المرجع نفسه، وآية ذلك أن بعضهم شرع في كتابة رسالته العملية في الأحكام، أو تعليقه على رسالة غيره، كان بعد وصول المرجعية العليا إليه، وبعضهم كان يقسم بأنه لم يكن يعمل من أجلها، وبعضهم كان يهرب منها.

ولك في مثال مرجعية الشيخ الأنصاري رحمته الله بعد مرجعية المرحوم صاحب الجواهر المثل الأكبر^(١).

(١) مثال ذلك ما ذكروا في حياة الشيخ الجواهري، فإنهم ينقلون أن الشيخ الجواهري لما حضرته الوفاة وكانوا ينتظرون أن يشير إلى من يرشحه للتدريس والزعامة الدينية ممن يرى فيه الكفاءة والقدرة، وكانوا يتوقعون أن يعين من تلامذته المقربين أو من أسرته! بل كانوا يتوقعون كل أحد إلا الشيخ مرتضى الأنصاري! نظراً لأن الشيخ محسوب على تلامذة منافسه الأكبر

وفي المقابل تنقل قصص آخرين ممن كانوا يتوقعون - ويتوقع لهم - المرجعية العليا، وطبعت رسائلهم العملية استباقاً لحصول حادث مفاجئ، فما حصلت لهم تلك المرجعية التي كانوا يتوقعون. ورأينا يتوافق مع أصحاب هذه النظرية لما تقدم من أدلتها.

ونعتقد أن أصحاب النظرية الأولى، بل حتى الثانية، على أثر كونهم في عالم المعادلات السياسية، والتحليلات التي ترتبط بها، وهي لا ريب لا ترتبط إلا بالأمور الظاهرية، والأسباب والمقدمات والنتائج المادية الملحوظة ويغيب فيها النظر الغيبي والتأثير الإلهي أو على الأقل هو غير مفهوم لديهم. فلما وردوا إلى تحليل مسألة المرجعية وهي التي تنتمي إلى أمر خارج هذا الإطار، لم يستطيعوا أن ينسلخوا من أجوائهم السياسية وتحليلاتهم الظاهرية حتى في هذا الموضوع.

الشيخ موسى كاشف الغطاء، ولم يكن الأنصاري يحضر مجلس درس الشيخ صاحب الجواهر إلا قليلاً وفي الفترات الأخيرة على سبيل التيمن والتبرك. ولم يكن محسوباً من (جماعته) أبداً.

الأمر الذي فاجأ الحاضرين عندما سأل صاحب الجواهر عنه، وطلب منهم أن يحثوا عن (ملا مرتضى) حتى عثروا عليه وهو في حرم أمير المؤمنين علي عليه السلام يدعو الله لشفاء الشيخ الجواهري!

وعندما حضر إلى بيت الشيخ الجواهري، نصحه بأن يخفف من احتياطاته على الناس وأن يتصدى للإفتاء والمرجعية ولكرسي التدريس!

ومثله الميرزا حسن الشيرازي الكبير صاحب نهضة التنبك الذي صارت له المرجعية العامة بعد الشيخ الأنصاري، حيث اجتمع عليه تلامذة استاذة الشيخ الأنصاري فحزن وقال: يعلم الله عز وجل انني لم أفكر في هذه اللحظة أبداً ان أكون مرجع الشيعة. وهكذا غيرهما.

كما يعسر على هؤلاء فهم كيف أن شخصاً يقضي من عمره خمسين سنة في شطف العيش وقلة الإمكانيات من أجل ماذا؟ قضية ليست بيده ولا يعلم أنه سيصل إليها أو تصل إليه. إن الصبر على العلم في حالة الجامعة وشبهها نتيجه معروفة وهو تخرج هذا الطالب وتوظيفه وترميم حياته من خلال ذلك بكونه طبيباً أو مهندساً وشبه ذلك. لكن أمر المرجعية مثلاً ليس مرتبطاً فقط بالعلم!

فهل مثل هذا تنتظره كما يقول أصحاب النظرية الأولى، أجهزة المخابرات حتى تهبى له أسباب الوصول للمرجعية؟ وكم عدد هؤلاء الذين تنتظرهم؟

هَبْ أنه ساعدته تلك التحالفات، فهل تستطيع إقناع عامة الشيعة بلزوم تقليده والرجوع إليه؟ مع علمنا بأن تقليد المرجع هو أمر اختياري عبادي، لا يقبل ضغطاً من أحد ولا ترغيباً من جهة! بل لو احتمل بعض المؤمنين - ولو من باب الاحتمال - أن مرجع تقليده مرتبط بنحو من الانحاء بجهة منحرفة فإنه يتخلى عن هذا التقليد في اللحظة.

وقد رأينا أن بعض الفقهاء عندما اتهموا - بالباطل - بموالاته بعض الظلمة المحليين فضلاً عن الجهات الدولية، وكان ذلك الاتهام في الغالب باطلاً، لم يعد لهم موقع بين المؤمنين فكيف لو كان ذلك التحالف مع جهات كافرة وكان صحيحاً؟

المرجعية الدينية: عرض تاريخي

في ما سبق من الصفحات ذكرنا بأن المرجعية الدينية، بما تعني من رجوع غير العالم إلى العالم (وضمن حدود معينة) كانت موجودة حتى في زمان حضور المعصومين عليه السلام. وقد أشرنا إلى الروايات والأخبار التي تثبت ذلك نظريا وممارسة.

إلا أن العادة قد جرت على تأريخ المرجعية بما بعد زمان الغيبة، وبشكل أدق بما بعد زمان مرحلة السفراء الأربعة، حيث انقطع الاتصال المباشر والمنتظم مع الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف، فعدّ من المرجعيات الدينية بناء على هذا مثل ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني، والشيخ علي بن الحسين بن بابويه القمي والد الشيخ الصدوق، ثم ابنه الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه.. وفي نفس مرحلة الشيخين الكليني ووالد الصدوق كانت مرجعية الشيخ ابن أبي عقيل العماني رحمهم الله جميعا.

وكنت قد كتبت حول مراجع الدين كتاباً خرج منه جزء

واحد، والثاني لما يزال، وفي الأول تعرضت بنحو من التفصيل لـ «أعلام الإمامية» شارحا فيه حياة نحو (٢٠) من مراجع الدين في مدرسة أهل البيت عليه السلام بالإضافة إلى نحو (٦) من المحققين والمؤلفين الكبار وإن لم يصلوا لمقام المرجعية.

وأراني هنا - وأنا سوف أذكر شيئا من تسلسل المرجعيات العليا في الطائفة - أنني سوف أستفيد مما كُتِبَ في ذلك الكتاب وإن كنت أنصح القارئ الكريم المحب للتفصيل بالرجوع إلى الكتاب المذكور، وسوف أذكر مختصراً عن سير تلك المرجعيات. ومن أولئكم:

1/ ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني:

فإنه بعد أن أخذ العلم في بلدته كلين (على وزن حسين) على يد علمائها لم يكفه ذلك فبدأ بالأسفار والترحل بحثا عن العلم والمعرفة، فسافر إلى بغداد وقم والكوفة في فترات مختلفة، وكان يجمع خلالها مادة كتابه (الكافي) حتى أتمه في عشرين سنة من الزمان كما صرح به النجاشي وغيره من الرجالين.

ويظهر أنه قد انتهى في رحلاته إلى بغداد وفيها لمع نجمه واشتهر بين شيعة أهل البيت، وغيرهم، حتى وصفه بعضهم بأنه من المجددين على رأس المئة الثالثة، وأنه رأس الإمامية، والظاهر أن هذا الأمر كان في بغداد حيث بقيت عاصمة الفكر والثقافة الدينية، وتعايش فيها العلماء على اختلاف مذاهبهم بمقدار ما كانت الخلافة العباسية تضعف، وهذا أتاح للحالة العلمية أن

تتحرر من ضغوط الخلفاء، ثم لما جاء البويهيون سلكوا طريقاً منفثاً بالرغم من توجهاتهم المذهبية المائلة إلى أهل البيت. وهذا شجع التوجه المذكور.

يعتبر عمل الشيخ الكليني أعلى الله مقامه بداية مرحلة جديدة في حفظ السنة الشريفة، وذلك أنه قبل زمان الشيخ الكليني وعمله في الكافي الذي يعتبر أول الموسوعات الحديثية المرتبة في أفق المدرسة الإمامية. كان الوجود من الأحاديث والروايات، على شكل أصول وكتب، إما كانت بيد رواها المباشرين أو الناقلين عنهم وكانت فاقدة للتبويب والترتيب، بل فاقدة للجمع.. فربما كان لدى أحد الرواة عدد من الأحاديث لا يعلم عنها من يعيش معه في بلدته من الرواة فضلاً عن من كان خارج البلدة وباقي الأطراف. وهذا بلا ريب يجعل أمر الاستدلال والاستنباط عسيراً، حيث لا يعطي للمجتهد المادة الخام (وفرة البحث الكافية) لمعرفة الحكم الشرعي.

ويعظم هذا الأمر خصوصاً إذا علمنا أن طبيعة ناقلي الشريعة من النبي والأوصياء كانت على بيان الأحكام بحسب الحوادث وهو ما يجعل أمر الاعتماد على التقييد والتخصيص المنفصلين، وتكميل الصورة في مجالس متعددة، طبيعياً وكثيراً.

وبعبارة أخرى: لم يكن بيان الأحكام الشرعية خصوصاً في باب العبادات على نحو التدريس في صفوف المدرسة بحيث يبدأ المدرس في كل يوم بشرح جانب ويكمّله في اليوم التالي حتى يستوعب بحث

الصلاة مثلاً بكامله، وإنما كان بنحو آخر، وذلك أن المؤمنين كانوا يسألون النبي ﷺ، ومن بعده الأئمة عليهم السلام، عن مسائل تعرض لهم فيجيئهم بقاعدة كلية، أو في خصوص المورد المعين..

وإذا كان هذا الأمر صادقاً في المسائل الفقهية الفرعية، فهو أصدق في المسائل الأصلية العقدية!

جاء الشيخ الكليني أعلى الله مقامه، وبدأ مهمة عسيرة في جمع الروايات المتفرقة هنا وهناك، من أفواه روايتها تارة ومن كتب مؤلفيها مع تحقيق صحة انتساب الكتاب تارة أخرى.

واستغرق في هذا العمل الجليل مدة عشرين عاماً كما سبق. نخل خلالها مئات الألوف من الأحاديث والروايات وحاول قدر وسعه أن يتحقق أو يطمئن من سلامة طرق النقل عن المعصومين.

ويعتبر اليوم كتاب الكليني (الكافي) أهم كتب الحديث عند الإمامية، لاحتوائه على الأصول (في العقائد) والفقه (المسائل الشرعية) والروضة (الاخلاق).. هذا من حيث مواضيعه حيث تميز على باقي الكتب الأربعة. ومن حيث عدد أحاديثه فقد يصل إلى ما يزيد على (١٥٥٠٠) (خمسة عشر ألف وخمسمائة حديث^(١)). عن رسول الله والأئمة المعصومين صلوات الله عليه وعليهم. وهو يزيد

(١) عبد الرسول الغفار: الكافي والكليني. أقول: قد اختلف الباحثون في عدد الأرقام هنا، تبعاً لأسلوب عدّ الأحاديث كما لو جاءت روايتان بسندين فهل تعد حديثاً أو حديثين؟ وهكذا لو كانت الرواية مسندة بنص ومرسلة في نص آخر فهل هما روايتان أو واحدة، وللتفصيل يراجع كتابنا أعلام الإمامية.

على ما جاء في الكتب الرئيسية في مدرسة الخلفاء مع حذف مكرراتها. وبالرغم من أن الإمامية لا يتعاملون مع كتاب الكافي على أنه «صحيح» إلا أن موقعه مهم جداً، فقد قال فيه الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ): «الكافي، وهو من أجل كتب الشيعة، وأكثرها فائدة».

وقال الشهيد محمد بن مكي (ت ٧٨٦ هـ) في إجازته لابن الخازن: كتاب الكافي في الحديث الذي لم يعمل الإمامية مثله.

وقال المحقق (الثاني) علي بن عبد العالي الكركي (ت ٩٤٠ هـ) في إجازته للقاضي صفي الدين عيسى: الكتاب الكبير في الحديث، المسمي بالكافي، الذي لم يعمل مثله.. وقد جمع هذا الكتاب من الأحاديث الشرعية، والأسرار الدينية، ما لا يوجد في غيره.

وقال الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ): «الكافي: أشرفها وأوثقها وأتمها وأجمعها، لاشتغالها على الأصول من بينها، وخلوها من الفضول وشينها».

ببركة العمل المتميز الذي قام به ثقة الإسلام الكليني في جمع كتابه الكافي وحفظه لروايات وأخبار أهل البيت المعصومين عليهم السلام، يكون قد حفظ (المدرسة الإمامية) في مصادر عقائدها الأصلية وأحكامها الشرعية وتوجيهاتها الأخلاقية بل ومعارفها العامة.

2/ الحسن بن علي ابن أبي عقيل العُماني

يفترض أن تكون ولادة الشيخ العُماني -نسبة إلى عمان المعروفة

على الخليج - في أواخر القرن الثالث وبدايات القرن الرابع، قبل بداية الغيبة الكبرى بثلاثة أو أربعة عقود تقريبا، حيث كان معاصرا للشيخ الكليني محمد بن يعقوب (صاحب الكافي) المتوفى سنة ٣٢٨هـ، وهما (العماني والكليني) من طبقة مشايخ جعفر بن محمد بن قولويه، حيث يروي عن الثاني، واستجاز من الأول.

لا تذكر المصادر شيئا مهما عن فترة أخذه العلم، أو العلماء الذين درس على أيديهم، وإنما تتحدث مباشرة عن أنه كان من كبار العلماء الذين كان الحُجاج عند ذهابهم إلى الحج يستصحبون معهم كتاب (التمسك بحبل آل الرسول) والذي كان بمثابة الرسالة العملية في تلك الفترة، فيأخذون قسم مناسك الحج لتطبيق أعمالهم على وفقه.

ومثلما أن ترجمة حياته لم تحظ بما يناسبها من الاهتمام، فإن كتبه أيضا قد ضاعت، ولكننا نستطيع أن نفهم موقعه العلمي، من خلال كثرة استشهاد العلماء المتأخرين عنه بأقواله تأييدا أو مناقشة. وأيضا من خلال كثرة النقل عنه.

وقد تم مؤخرا مشروع تجميع تراثه الفقهي^(١)، واستحصل من خلال النقل عنه في الكتب المختلفة على خلاصة لفقهه المنقول فيها. فكان كتابا كبيرا يقع في أكثر من خمسمائة صفحة.

ولا ريب أن هذا لا يشكل إلا القسم الضئيل من آرائه واستدلالاته الفقهية، وذلك أن ما ينقل عن العلماء في كتب أخرى ما هو إلا شيء

(١) الكوراني؛ الشيخ علي في كتاب: حياة ابن أبي عقيل العماني وفقهه. إعداد مركز المعجم الفقهي في الحوزة العلمية بقم.

بسيط، إما للتأييد به أو لمناقشته ومخالفته وهو لا يشكل نسبة كبيرة. وأهم ما يذكر في سيرته أنه كما قال السيد بحر العلوم أن «حال هذا الشيخ الجليل في الثقة والعلم والفضل والكلام والفقه أظهر من أن يحتاج إلى البيان وللأصحاب مزيد اعتناء بنقل أقواله وضبط فتاواه، خصوصاً الفاضلين، ومن تأخر عنهما. وهو أول من هذب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى»^(١)، فهو إذن أول من هذب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث عن الأصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى.. وليبيان هذا المعنى نشير إلى ما سبق قوله من أنه اشتدت الحاجة بعد الغيبة الكبرى إلى تأسيس طريقة في الاستدلال الفقهي، وذلك لانقطاع التواصل المباشر بين الشيعة وبين إمامهم. فهنا عندما يراد بيان الحكم الشرعي، لا يمكن إلا أن يكون بدليل وإلا فإن ذلك يكون افتراءً على الله ﴿قُلْ ءَللّٰهُ اَذِنَ لَكُمْ اَمْ عَلَى اللّٰهِ تَفْتَرُوْنَ﴾^(٢).

إن تأسيس قاعدة ونظرية يعتمد عليها الفقيه في معالجة الاستنباط هو من الأمور المهمة التي قام بها هذا العالم الجليل في الأفق الشيعي. ولهذا كان محلاً لجمال الثناء والتقدير من قبل علماء الطائفة، فقد رأيت كيف أثنى عليه السيد مهدي بحر العلوم، وهذا نص آخر ذكره السيد حسن الصدر حيث قال: «ومنهم (من علماء الشيعة): ابن أبي عقيل الحسن بن علي بن أبي عقيل أبو محمد العماني

(١) بحر العلوم: الطبائبي السيد مهدي؛ القواعد الرجالية ٢/ ٢٢٠.

(٢) سورة يونس: الآية ٥٩.

الحذاء، شيخ الشيعة ووجهها، وفقيهاها، والمتكلم المناظر البارع، أحد أركان الدين، المؤسس في الفقه، والمحقق في العلوم الشرعية، والمدقق في العلوم العقلية، له كتب كثيرة في كل الفنون الإسلامية، اشتهر بالفقه والتفريع، وصنف فيه كتاب المتمسك بحبل آل الرسول، قال النجاشي: وهو كتاب مشهور في الطائفة، ثم قال وسمعت شيخنا أبا عبد الله يكثر الثناء على هذا الرجل، وهو من أهل المائة الثالثة كان معاصرا للكليني ولعلي بن بابويه^(١).

هذا العمل المهم والابتكاري هو من إنجازات الفقيه العماني، والرواد الذين جاؤوا في ما بعد، بنوا على هذا الأساس الذي أنشأه ابن أبي عقيل. فقد جاء تلميذ تلميذه الشيخ المفيد البغدادي، والذي كان يكثر من الثناء على العماني كما نقله النجاشي عنه، ورفع البناء على الأساس الأول، وجاء من بعده تلميذه الشيخ الطوسي، وأحكمه وهكذا تكامل البناء الاستدلالي خطوة بعد خطوة وجيلا بعد جيل، حتى أصبحنا نرى اليوم هذه المدرسة الأصولية المتقنة لدى شيعة أهل البيت في الاستنباط الفقهي.

هذا بالإضافة إلى ما ذكرنا من أنه من خلال موقعه أصبح المرجعية الأولى لشيعة أهل البيت حتى أن مرجعيته امتدت إلى خراسان بحيث أن الحجاج الإيرانيين كانوا يعتمدون على فتاواه في حجهم ومناسكهم.

(١) الصدر؛ السيد حسن: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام. ٣٠٣ عن كتاب حياة بن أبي عقيل العماني.

3/ الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الصدوق)^(١)

قيل إن ولادته كانت بفضل دعاء الإمام الحجة محمد بن الحسن المهدي عجل الله فرجه، وذلك أن والده كان عالماً كبيراً ومحدثاً مهماً بحيث كان العلماء إذا أعوزتهم نصوص الروايات لجأوا إلى فتاواه! ولم يرزق بأولاد إلى أن كبرت سنه، وقد سيطر هذا الأمر على اهتمام الوالد علي بن موسى بن بابويه، وكان يعيش في زمان الغيبة الصغرى للإمام الحجة محمد المهدي، وتوفي سنة ٣٢٩هـ. لهذا قام بإرسال رسالة عبر السفير الثالث الحسين بن روح النوبختي، للإمام المهدي يسأله فيها الدعاء له بالذرية، فجاء الجواب «إنك لا ترزق من هذه وستملك جارية ديلمية وترزق منها ولدين فقيهين»^(٢). وبالفعل هكذا كان فما مرت الأيام حتى اشترى جارية ديلمية، ورزق منها ولدين سمى أحدهما بمحمد والذي عرف فيما بعد بالصدوق و ثانيهما بالحسين. الولد محمد الذي كان عطية الله لأبيه على كبر سن الوالد ونفاد عمره، كان تعويضاً عن ذلك التأخير بكل المقاييس، فقد كان آية في الحفظ حتى كان الناس يتعجبون من حفظه وأخيه الحسين!

وأقبل محمد بن علي بن الحسين على العلم بنهم شديد، فقد كان يتتبع العلماء كما يتتبع الفاقدين ضالته، وكانت الحكمة والمعرفة ضالة الشيخ المترجم له، ولذا فقد أخذ العلم عن (٢٥٠) من العلماء

(١) خلاصة ترجمته الموجودة في كتابنا أعلام الامامية.

(٢) الطوسي: الغيبة ٣٠٨.

في مختلف الفنون. وهذا العدد لم يُرَ لغيره!

كما أنه في سبيل تحصيل العلم سافر إلى بلدان كثيرة منها: الري نيسابور، ومشهد الرضا عليه السلام، وسمرقند، وبلخ، واسترآباد، وهمدان، وجرجان، وبغداد، والكوفة، ومكة، والمدينة^(١).

ويعد الشيخ الصدوق المؤسس الثاني للموسوعات الحديثية المصنفة (ومن ذلك عدّ كتابه من لا يحضره الفقيه من الكتب الأربعة التي عليها مدار الاستنباط الفقهي لدى الشيعة).

فبعد أن بدأ ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في مشروعه الرائد (الكافي)، وقام باستخلاص ذلك الكتاب من مجموعة هائلة من الروايات التي تشتمل على الصحيح والضعيف، جاء الشيخ الصدوق ليتمم ما بدأه الكليني عبر عدة أمور:

(١) تصفية المصادر من الرواة الضعاف والغلاة والمجهولين، وقد أتم هذا الأمر بقدر وسعه فكان خطوة مهمة في هذا الصعيد.

(٢) مقاومة ما رآه الصدوق توجهها نحو الغلو: فقد شن حملة عنيفة على توجه الغلاة (ومنهم المفوضة الذين يعتقدون بأن الله سبحانه قد خلق الخلق ثم فوض إلى الأنبياء أو الأوصياء أمر إدارة الكون فهم يديرونه مباشرة واستقلالا واعتبر الاعتقاد بذلك نوعا من الشرك بالله تعالى، وعلى خلاف اعتقاد الإمامية.

(١) الصدوق؛ ابن بابويه: المقنع، المقدمة ٨.

نعم قد خالف المشهور من علماء الشيعة الشيخ الصدوق في بعض التطبيقات والمصاديق - كنسبة السهو إلى النبي ﷺ - لكن هذا لا يهون من الجهد المهم الذي قام به هذا الشيخ في تنقية المصادر ومواجهة توجهات التزيد والارتفاع والغلو، والتي ربما كانت لولا مقاومته القوية لها، لكانت الاتجاه السائد في المذهب.

وتفصيل الحديث في هذا الأمر وتحقيقه قد ذكرناه في كتابنا أعلام الإمامية، ولا مجال هنا لإعادته.

موقعه العلمي ذاك أهله لأن يكون مرجع الطائفة وزعيمها، وهذا ما أقر به عامة العلماء. فقد قال شيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) عنه: «محمد بن علي بن بابويه القمي جليل القدر حافظ للأحاديث، بصير بالرجال، ناقد للأخبار، ولم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه»^(١).

وقال عنه الشيخ حسين بن عبد الصمد والد البهائي (ت ٩٨٤ هـ): «وكان هذا الشيخ جليل القدر عظيم المنزلة في الخاصة والعامة، حافظاً للأحاديث بصيراً بالفقه والرجال والعلوم العقلية والنقلية، ناقداً للأخبار، شيخ الفرقة الناجية وفقهها ووجهها بخراسان وعراق العجم، وله أيضاً كتب جليلة»^(٢).

وعبر شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) من علماء مدرسة

(١) الطوسي؛ شيخ الطائفة: الفهرست ٢٣٧.

(٢) البهائي العاملي؛ حسين: وصول الأخبار إلى أصول الأخبار ص ٨٦.

الخلفاء بأنه «رأس الامامية، أبو جعفر، محمد بن العلامة علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، صاحب التصانيف السائرة بين الرافضة... يضرب بحفظه المثل»^(١).

4/ الشيخ محمد بن النعمان العكبري (المفيد) ت 413 هـ

كانت ولادته في بغداد في منطقة عكبرى، وإليها ينسب. آلت إليها زعامة الشيعة في زمانه حين بلغ أربعين سنة، وحيث كان النقاش المذهبي في تلك الفترة هو العنوان الأكبر والميدان الأوسع، فقد فاق الشيخ المفيد أقرانه، وتجاوز مخالفه لما كان عليه من القدرة الاستثنائية في هذا المجال. ويكفيه في ذلك شهادة ابن النديم وهو الخبير المتبع حيث قال: «قد انتهت إليه رئاسة متكلمي الشيعة ومقدم في صناعة علم الكلام على أصحابه، دقيق الفطنة ماضي الخاطر شاهدته فرأيته بارعاً»^(٢).

ولم تكن مواهب الشيخ المفيد مقتصرة على العقائد والنقاش فيها، والحوارات المذهبية، بل كان فقيهاً متميزاً ابتكر منهجاً في الاستدلال الفقهي زواج فيه بين النقل والعقل، واعتمد فيه النصوص الروائية مثلما اعتمد على الأدلة العقلية، وهو بهذا انقذ الفقه الإمامي من الانزلاق إلى مستنقعات مدرسة الرأي التي طغى فيها الرأي الشخصي والاستحسانات لا سيما عند التعارض في النصوص، حتى تم تجاوز بينات الوحي، كما أنقذه من التكلس في

(١) الذهبي؛ شمس الدين: سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٠٣.

(٢) البغدادي؛ ابن النديم: فهرست ابن النديم ص ٢٢٦.

قوالب الجمود على النصوص، فأصبح الفقه الإمامي ينظر بعينين باصرتين؛ عين النص الصريح وعين العقل الصحيح. وعلى ضوء ذلك فقد كتب في أصول الفقه وألف كتابه المُنقعة في الفقه على هذا الأساس، كما ربي جيلا من التلامذة على هذا المنهج والذين كان لهم دور مهم في صياغة فقه المدرسة الإمامية. كان منهم الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) وسالار الديلمي (ت ٤٦٣ هـ) وابو الفتح الكراچكي (ت ٤٤٩ هـ).

ويستطيع الباحث أن يرى مساحة مرجعيته من خلال الأسئلة والاستفتاءات التي كانت تأتي إليه من مناطق مختلفة تطلب فيها الموقف الشرعي، فإن الذين ذكروا أسماء كتبه كتلميذه الشيخ النجاشي الرجالي المعروف (ت ٤٥٠ هـ) في ترجمته لأستاذه، قد ذكر عناوين كثيرة لتلك المسائل منها: جوابات المسائل السروية الواردة من الشريف الفاضل بسارية، في مواضيع شتى، وجوابات المسائل الشيرازية، وجوابات المسائل الصاغانية، وهي عشر مسائل شنع فيها أبو حنيفة على الشيعة، وجوابات المسائل الطبرية (أهل طبرستان)، وجوابات المسائل في اللطيف من الكلام، وجوابات المسائل المازندرانية، وجوابات المسائل الموصليات في العدد والرؤية، وجوابات المسائل النوبندجانية الواردة من أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الفارسي وجوابات المسائل النيشابورية. وجواب أهل جرجان في تحريم الفقاع، وجواب أهل الرقة في الأهلة والعدد، وجوابات المسائل العكبورية وجوابات المسائل الجرجانية وجوابات المسائل الحرائية.

هذا فضلاً عما يقارب هذا العدد من الأجوبة المعنونة بعناوين شخصية. ولعلها هي بدورها أسئلة عامة ولكن كتبها شخص واحد وتمت الإجابة عليها وعنوانتها باسم مرسلها.

وفي نظرة خاطفة ترى أن تلك المسائل تتعدد مناطقها ما بين العراق وإيران وبلاد الشام. مما يشير إلى اتساع دائرة مرجعيته رضوان الله تعالى عليه.

كما أن تعامل البويهيين - الذين كان لهم الأمر والنهي الفعلي في بغداد - مع الشيخ المفيد على أنه رأس الشيعة وعمادهم. بل ومواقف السلاجقة المتعصبين والذين جاؤوا بعد أن أسقطوا هيمنة البويهيين على بغداد ونفيهم إياه في بعض الفترات، لتهدة الاضطرابات المذهبية في بغداد يشير إلى تلك الحقيقة.

نشير إلى أن بعض مشوّشي الفكر زعموا أن الشيخ المفيد هو مؤسس المذهب الإمامي الاثني عشري! وأنه هو الذي وضع نظرياته وأفكاره في العقائد والفقه والأصول. وهؤلاء نقول: لو كان التشيع مذهباً بشرياً كما هو الحال بالنسبة للمذاهب الأربعة لكان المفيد حريّاً بذلك وجديراً به، فهو يفوق أئمة المذاهب الأربعة مجتمعين في مختلف المجالات!

ولكن لما كان المذهب الإمامي ينتمي للمعصومين بدءاً من رسول الله ﷺ ثم أمير المؤمنين وأبنائه المعصومين، فإن أقصى ما يستطيعه الشيخ المفيد ونظراءه أنهم يتأملون في كلمات المعصومين عليه السلام

ويستكشفون أعماقها ودقائقها بالنحو الذي لا يطيقه غيرهم، ولذلك يتألقون هذا التألق. ولذلك فأنت ترى أنه في الفقه يعتمد على أحاديثهم وما تهدي إليه مما هو عين ما يحكم به العقل^(١)، وفي الاحتجاج حيث قال فيه بعضهم إن لديه من القدرة ما لو أراد أن يقيم الدليل على أن أسطوانة المسجد ذهب لفعل!

كل ذلك إنما هو استجلاء لما قالوه صلوات الله عليهم باختصار وإيجاز فاستطاع الشيخ المفيد أن يفتقه ويقره ويشرحه.. ليس إلا. وهذا بقدر ما يشير إلى عظمة الشيخ المفيد (الشارح والمستكشف) فإنه يدل بشكل أوضح على عظمة المعصوم (القائل والمصدر).

وقد تعددت مواضيع وعناوين تأليفاته وكتبه، حتى أنهاها بعض مترجميه إلى ١٩٤ كتاباً، وقلل بعضهم هذا العدد واحتمل التداخل بين العناوين، فذكر ما يصل إلى ١٧٥ عنواناً، وعلى التقديرين فإن هذا العدد كبير.

ومن كتبه المشهورة: المُنْعَةِ في الفقه وهو الكتاب الذي استدل تلميذه الشيخ الطوسي على أحكامه، فجاء بكتاب تهذيب الأحكام وهو أحد الكتب الأربعة التي يعول عليها الفقهاء منذ زمان تأليفه حتى اليوم في الاستنباط والاستدلال الفقهي. فأصل المتن الفقهي هو للشيخ المفيد وشرحه الاستدلالي للطوسي.

ومنها: كتاب الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، وفيه سيرة

(١) حتى لقد اشتهر القول من أن: العقل رسول باطن والرسول عقل ظاهر.

المعصومين عليه السلام بترتيب جيد وانتقاء للمواضيع ومعالجة للروايات المختلفة، وقد اعتمد عليه من كتب في سيرة المعصومين عليهم السلام.

وأما الكتب العقائدية والحوارات المذهبية وإثبات حقانية ما عليه مذهب أهل البيت عليهم السلام بالأدلة والبراهين العقلية والنقلية، فحدّث ولن تبلغ المدى!

وبهذا المقدار نكتفي في الحديث عن الشيخ المفيد، حيث أن ترجمة هؤلاء في هذا الكتاب مبنية على الاختصار والاشارة.

5/ شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 هـ)

إذا أطلق في الحوزات لقب (شيخ الطائفة) أو (الشيخ) في الفقه، فلا يتبادر غير شخص الشيخ الطوسي محمد بن الحسن رضوان الله تعالى عليه، وقد صمد هذا اللقب في حقه ألف سنة من الزمان، ولم يأت بعده أحد يزاحمه عليه مع كثرة وعظمة من جاء بعده من الفقهاء.

ولم يأت هذا اللقب والاختصاص من فراغ! وإنما كان له ما يؤيده بل يؤكده! فهذا الشيخ الجليل ما ترك باباً من أبواب العلم الديني إلا طرقه وفتحه، وما غادر فناً من فنون المعرفة الشرعية إلا وبرع فيه!

وقد كتبت في (أعلام الإمامية) ترجمة له سأستعين بها مختصراً إياها بحيث يتناسب مع وضع الكتاب هذا ومن أراد التفصيل فليرجع للكتاب المذكور.

قدم محمد بن الحسن (والذي سيصبح شيخ الطائفة فيما بعد) إلى بغداد سنة ٤٠٨ هـ، وعمره ٢٦ سنة ليستفيد من درس ومحضر الشيخ المفيد محمد بن النعمان مدة خمس سنوات بدأ فيها بشرح كتاب أستاذه المقنعة في الفقه كما تقدم آنفاً.

ومع وفاة شيخه المفيد سنة (٤١٣ هـ) انتقل إلى درس الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي الذي أولاه عناية خاصة لما رأى من تفوقه ونبوغه، إلى أن توفي المرتضى سنة (٤٣٦ هـ).

وبعد وفاة الشريف المرتضى أصبح الشيخ الطوسي محمد بن الحسن أبرز علماء الشيعة، بل والسنة أيضاً في تلك الفترة، وفاقهم جميعاً حتى أن الخليفة العباسي آنئذ وهو القائم بأمر الله عهد إليه بكرسي الكلام، وهو المنصب الذي لا يعطى إلا لمن أذعن الآخرون لعلمه وفضله. واستمر الحال هكذا (١١) سنة، أي إلى سنة (٤٤٧ هـ) حين دخل طغرل بك قائد السلاجقة إلى بغداد لتبدأ فترة الظلمات العلمية فيها.

لقد كانت بغداد تعيش في الفترة السابقة على السلاجقة، أيام البويهيين الذي وإن تم الاختلاف في مذهبهم وأنهم هل كانوا زيدية أو إمامية إلا أن هناك اتفاقاً على أن أجواء الحرية الفكرية والعلمية كانت سائدة، ولا سيما أيام وزارة الصاحب اسماعيل بن عباد، الشاعر المتميز والأديب المتفوق، إلى درجة أنه استدعى القاضي عبد الجبار المعتزلي (الشافعي المذهب) ليكون قاضياً على الري، وقد ألف كتابه المغني في التوحيد والعدل، وجعل جزأه

الأخير في الإمامة وأورد فيها كل الحجج التي يؤمن بها في عدم إمامة الأئمة الاثني عشر، وفي تثبيت ما يعتقده من خلافة الخلفاء. كل هذا وهو قاض لوزير شيعي هو الصاحب بن عباد وفي دولة شيعية. كما ذكرنا.

الأمر الذي دعا الشريف المرتضى إلى تأليف كتابه (الشافي في الإمامة) ردًا على كتاب القاضي عبد الجبار المعتزلي. واختصر الشيخ الطوسي كتاب الشافي فيما بعد.

تغير الجوُّ تمامًا بدخول العسكريين الأتراك السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ وقضائهم على الدولة البويهية، حيث صودرت الحرية العلمية لصالح تطرف الغوغاء، واستبدل البحث العلمي بالهجوم على المكتبات وحرقتها، وضمن هذه الأجواء أحرقت مكتبة الشيخ الطوسي وهوجمت داره ونهبت سنة ٤٤٨ هـ وأراد أولئك الغوغاء قتله! وكما قال ابن كثير «ألزم الروافض بترك الاذان بحي على خير العمل، وأمروا أن ينادي مؤذنه في أذان الصبح، وبعد حي على الفلاح: الصلاة خير من النوم، مرتين، وأزيل ما كان على أبواب المساجد ومساجدهم من كتابة: محمد وعلي خير البشر، ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ، ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة.. وأمر رئيس الرؤساء الوالي بقتل أبي عبد الله بن الجلاب شيخ الروافض، لما كان تظاهر به من الرفض والغلو فيه، فقتل على باب دكانه!»^(١).

(١) ابن كثير - البداية والنهاية ١٢/ ٨٣. ولم يقتصر الأمر على الفتنة بين الشيعة والسنة بل كما قال نفسه «وفيها وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، فقوي

هذا الواقع الجديد وعلائم الفتنة المذهبية التي كان يسعها الطائفيون من جهة ويتجاوب معها العسكر السلاجقة من جهة أخرى، حدا بشيخ الطائفة الطوسي درءاً للفتنة وسداً لباب الحرب المذهبية أن يهاجر منتقلاً إلى جوار مرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في النجف الأشرف، ليلقي رحله هناك، ولينتقل بانتقاله إليها أهل العلم وطلاب المعرفة والتحقيق فكان أن بدأت النجف عصرًا جديدًا مع الحوزة العلمية التي تأسست بانتقال شيخ الطائفة إليها.

الحوزة العلمية في جوار باب مدينة العلم:

يقول الشاعر في حق مخالفه:

أردت مساعتي فأجرت مسرتي

وقد يحسن الانسان من حيث لا يدري

لو كان الذين طاردوا شيخ الطائفة الطوسي، واضطروه إلى الخروج من بغداد إلى النجف يعلمون ما الذي سينفتح على يده من الإنجاز لتركوا مطاردته وتوسلوا إليه أن يبقى في بغداد!! فالشيخ الذي غادر بغداد ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ إلى النجف أصبح محور الحركة العلمية، وكما الفراشات تنجذب إلى الضوء المشع، فقد استقطب الشيخ الطوسي أهل العلم ليس من بغداد والذين

جانب الحنابلة قوة عظيمة، بحيث إنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات.

كانوا قد حضروا درسه، بل سائر طلاب العلوم من أطراف النجف ممن لم يسبق لهم حضور عنده.

وبالرغم من أن الفترة التي بقي فيها شيخ الطائفة في النجف كانت قصيرة (١١) سنة إلا أنها كانت حافلة بالبركة بما يكفي لكي تكون بداية قوية لحوزة علمية كبيرة ومؤثرة. وفيها أكمل الشيخ من كتبه ما كان بدأه في بغداد.

لقد كان الشيخ الطوسي رضوان الله عليه، عالماً موسوعياً بل (عالمٌ) كبير من المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة، فما من باب من أبواب العلم السائد يومئذ مما فيه منفعة، ومحل بحث إلا وطرقه وأبدى رأياً فيه، حتى ليقف الناظر متحيراً مذهوشاً، كيف استطاع هذا الشيخ أن يؤلف كل هذه الكتب مع ما أحاط به من الظروف السياسية الضاغطة؟

ولم يكن عمله في كتبه جمعاً، وتصنيفاً، بل كان الغالب فيه أنه ابتكار وإبداع نظر.

وهذا الأمر جعله يهيمن على الساحة العلمية ليس في زمانه وعلى تلامذته المباشرين فحسب بل استمر إلى ما بعد وفاته قرابة قرن من الزمان، إلى أيام الفقيه المجدد ابن ادريس الحلي، حتى لقد خيف من أن هذه السيطرة العلمية سيكون لها آثار سلبية على الاجتهاد^(١)، وإبداع النظر إذ كان الجيل الذي جاء بعد الشيخ يتهيب

(١) قال المحقق الطهراني آقا بزرك في مقدمة كتاب التبيان: مضت على علماء الشيعة سنون متطاولة وأجيال متعاقبة ولم يكن من المهين على أحد منهم ان

أن يأتي بآراء مخالفة لآراء شيخ الطائفة، أو يبيدي مخالفة لنظرياته.
وبمرور على كتبه سيتبين أنها من الناحية الكمية كثيرة العدد
حيث تجاوزت (٤٥) كتاباً كما أشار إليه أكثر مترجميه^(١).
وسنأتي على ذكر أكثر تلك الكتب بحسب مواضيعها، ليتبين
للقارئ العزيز موسوعية هذا العالم الجليل:
ففي تفسير القرآن وعلومه: كان كتاب التبيان في تفسير القرآن،
والمسائل الدمشقية في تفسير القرآن: وهي اثنتا عشرة مسألة،
والمسائل الرجبية في تفسير بعض آيات القرآن،
وفي الحديث: كان كتاب تهذيب الأحكام، والاستبصار فيما
اختلف من الأخبار

وفي الفقه: مسائل الخلاف في الأحكام، النهاية، والمبسوط،
مسألة في وجوب الجزية على اليهود والمنتمين إلى الجبابة. مسألة

يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى، وكانوا يعدون أحاديثه أصلاً مسلماً،
ويكتفون بها، ويعدون التأليف في قبالتها، واصدار الفتوى مع وجودها
تجاسراً على الشيخ وإهانة له، واستمرت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ
ابن إدريس فكان - أعلى الله مقامه - يسميهم بالمقلدة، وهو أول من خالف
بعض آراء الشيخ وفتاواه وفتح باب الرد على نظرياته، ومع ذلك فقد بقوا
على تلك الحال حتى ان المحقق وابن أخته العلامة الحلي ومن عاصرهما بقوا
لا يعدون رأي شيخ الطائفة.

(١) أنظر آقا بزرك الطهراني في مقدمة كتاب التبيان، والشيخ مجتبى العراقي في
مقدمة كتاب الخلاف، والشيخ حسن السعيد في مقدمة كتاب الاقتصاد.

في تحريم الفقاع. مسائل ابن البراج. المسائل الجنبلائية في الفقه. المسائل الحائرية في الفقه (٣٠٠ مسألة). المسائل الحلبية في الفقه، ومناسك الحج في مجرد العمل، الايجاز في الفرائض، الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد.

وفي العقائد والكلام: تلخيص كتاب الشافي في الإمامة: لعلم الهدى السيد المرتضى، المفصح في الإمامة، وأصول العقائد، رياضة العقول، مقدمة في علم الكلام، وكتاب الغيبة في المهدي المنتظر، وما لا يسع المكلف الاخلال به، الفرق بين النبي والإمام، النقض على ابن شاذان (الأشعري) في مسألة الغار، المسائل الرازية في قضايا الوعيد، ما يعلل وما لا يعلل.

وفي الأصول: العدة في الأصول، والعمل بخبر الواحد وحجته، شرح الشرح في الأصول، تمهيد الأصول في شرح جمل العلم والعمل.

وفي الرجال: اختيار معرفة الناقلين، ورجال الشيخ الطوسي، والفهرست.

وفي السيرة والتاريخ: مقتل الإمام الحسين عليه السلام، مختصر أخبار المختار بن أبي عبيد الثقفي.

في الأدعية والزيارات: مصباح المتهجد، مختصر عمل يوم وليلة، مختصر المصباح، هداية المسترشد وبصيرة المتعبد.

متفرقات: الأمالي، أنس الوحيد، المسائل الإلياسية: وهي مائة مسألة في فنون مختلفة.

وقد شرحنا في كتابنا أعلام الإمامية، خصائص كل كتاب من هذه الكتب.

◀ تلامذته:

لن نتحدث عن تلامذة الشيخ الطوسي أو نذكر أسماءهم، فكل الجيل الذي جاء بعده في النجف الأشرف إلى مئة سنة يعدون من تلامذة مدرسته، وطلاب علمه.

◀ وفاة الشيخ:

في سنة ٤٦٠ هـ توفي شيخ الطائفة في النجف الأشرف، ودفن في منزله، الذي أصبح فيما بعد مسجداً باقياً إلى اليوم، باسمه حيث يقع في جهة باب مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام المعاكس لجهة القبلة.

6/ العلامة الحلي: الحسن بن يوسف بن المطهر (ت 728 هـ)

قد اشتهر بين المسلمين أن الله سبحانه وتعالى (يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها)، ومن ألمع أولئك شخصية كان العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر رضوان الله تعالى عليه. حيث أنه بشيء من التبعية يلاحظ الناظر المتأمل مقدار الأثر الذي تركه العلامة الحلي بعده، سواء في الدعوة إلى طريق أهل البيت عليه السلام، أو على صعيد الاستدلال والاستنباط الفقهي في ابتكاره لمناهج ظلت هي السائدة إلى يومنا هذا، وهكذا

في العطاء العلمي والفكري الباقي في كتبه الكثيرة ومؤلفاته كما سيأتي الحديث عنها.

في الحلة وهي مدينة تقع جنوب بغداد على بعد ١٠٠ كيلو منها كانت ولادة الحسن بن يوسف، في أسرة علمية، ورث منها حب العلم من طرفيه.

فوالده وأستاذه الأول هو الشيخ سديد الدين يوسف بن علي بن المطهر، وهو العالم الجليل الذي أشار إليه المحقق الحلي صاحب الشرائع على أنه أعلم تلاميذه بالأصولين (الفقه والكلام) عندما سئل عن خيرة تلامذته، وهو نفسه الذي ذهب لمقابلة هولاكو عندما اجتاحت جيوشه مدن العراق واستطاع أن يحميه عن تدمير الحلة، وأن يأخذ منه أماناً لأهلها.

وخاله المحقق الشيخ نجم الدين ابو القاسم جعفر بن الحسن، صاحب الكتب المهمة في الفقه والأصول، وأفضلها كتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام) الذي يعد منذ زمان تأليفه وإلى يومنا هذا في طليعة المتون الفقهية، المنظمة تنظيمًا منهجيًا راقياً، وهو على اختصاره (أربعة أجزاء بالطبع الحديث) دورة فقهية كاملة، فيها إشارات إلى الأدلة، وقد شرح ما بين شرح مزجي واستدلالي، وبصورة التعليقة أكثر من ٧٠ مرة.

ولم يكن دور السيد علي بن موسى بن طاووس في تربيته أقل من دور أبيه وخاله، ولعل أكبر تأثيره فيه الجانب الأخلاقي والمعنوي الروحي، حيث عرف السيد ابن طاووس بأنه صاحب

الكرامات والتي تحدث عنها العلامة الحلي نفسه.

ولم يقتصر أخذ العلامة على علماء المدرسة الإمامية، وإنما تعداهم ليدرس ويتباحث مع علماء مدرسة الخلفاء، فقد ذكر في بعض إجازاته أسماء عدد من العلماء الذين أخذ عنهم، وأنصفهم ذكراً وثناءً، فقد تحدث عن الشيخ شمس الدين محمد الكيشي الشافعي، وقال عنه إنه كان من أفضل علماء الشافعية، وكان من أنصف الناس في البحث، كنت أقرأ عليه وأورد عليه اعتراضات في بعض الأوقات فيفكر ثم يجيب تارة وتارة أخرى يقول: حتى نفكر في هذا عاودني هذا السؤال. فأعاوده يوماً ويومين وثلاثة. فتارة يجيب، وتارة يقول: هذا عجزت عن جوابه. والشيخ برهان الدين النسفي الحنفي، المصنف في الجدل وهذا الشيخ كما قال العلامة كان عظيم الشأن زاهداً مصنفًا في الجدل، استخرج مسائل مشكلة، قرأت عليه بعض مصنفاته في الجدل، وله مصنفات متعددة.

◀ دور العلامة في تشيع إيران:

مع أن التزام الإيرانيين بالتشيع وانتشاره فيهم مر بمراحل متعددة، غير أن أهم تلك المراحل كانت عندما التزم بعض سلاطين المغول بمذهب أهل البيت وأعلنه رسمياً، وفي مرحلة لاحقة قام بالدور نفسه الصفويون.

والتزام السلطان المغولي محمد خدابنده، وهو الذي أقر التشيع كمذهب رسمي، بل المذهب الرسمي كان ببركة العلامة الحلي رضوان الله عليه، ذلك أنه وإن تعددت رواية الأسباب التي دعت

السلطان المغولي إلى التفكير في اتخاذ مذهب جديد غير المذاهب السائدة، إلا أنها تتفق على أن بطل المشهد كان العلامة الحلي.

فبعد أن أسقط المغول الخلافة العباسية، وسيطروا على العراق وغيرها من البلاد المسلمة. وبعد أن زاح دخان المعارك، تأثر كثير منهم بالفكر الإسلامي والعقائد الدينية العامة، غير أن قضية المذاهب كانت قضية ساخنة، فبالرغم من أن بلاد المسلمين كانت قد تعرضت إلى تلك المشاكل إلا أن الصراعات المذهبية كانت على أشدها. وكان كل فريق يريد أن يستقطب شخصيات المغول لمذهبه ويبعدهم عن المذهب الآخر لكي يستقوي المذهب بانتمائهم إليه.

يقال: إن بعض السلاطين المغول مثل غازان خان اتخذ موقفاً متوسطاً بين المذاهب فكان يتعاطف مع الجميع، ويسمح للجميع بممارسة نشاطه. وإن كان يميل إلى التشيع.

إلا إن اختيار السلطان أوجايتو محمد خدابنده التشيع صراحة وإعلانه إياه على انه المذهب الرسمي، وتغيير الخطبة لكي تصطبغ بصبغة شيعية، والتظاهر بالشعائر الشيعية، شكل دفعة قوية لانتشار المذهب.

◀ فإنهم يذكرون في تشيعه عدة حوادث:

منها أنه مَلَّ من النزاع الحاصل بين الشافعية والاحناف فكل منهم يشوه له مذهب الآخر، فاقترح عليه سيد تاج الدين الأوجي

أن ينظر في التشيع^(١).

ومنها: أنه غاضب زوجته فطلقها ثلاثاً في مجلس واحد، وكان يفش عن مخرج لا ينتهي إلى أن تنكح زوجها غيره^(٢).

فكان أن استقدم العلامة الحلي، الذي ناظر علماء بقية المذاهب وفاقهم، فأعلن السلطان تشيعه على أثر ذلك.

◀ العلامة الحلي ودوره في البناء العلمي للشيعة:

من جملة معرفات علم الفقيه، أثره الكتابي الذي يتركه من بعده للوسط العلمي حيث يكون لساناً ناطقاً مستمراً بعده يتعرف الباحثون من خلاله على أفكاره وآرائه ولسان حاله في ذلك (هأؤم أقرأوا كِتَابِيَه)، ولا يستطيع أحد في هذه الحالة أن ينكر علمه إذا اطلع على ما كتب، خصوصاً إذا لاحظ أن الكتاب قد صنف في مرحلته الزمنية المعينة.

كما أن من معرفات علم العالم، أثره في من بعده من حيث تغير طريقة الاستدلال والاستنباط بالنحو الذي طرقه وعرفه هذا العالم. فإذا أضاف هذا العالم مبادئ جديدة أثرت على الوسط العلمي (سواء قبلها ذلك الوسط العلمي أو ناقشها وبقيت محلاً للأخذ والرد) فهذا أيضاً معرف آخر للعالم. بخلاف ما إذا مر على

(١) ذكر ذلك الشيخ فارس الحسون في مقدمته لكتاب إرشاد الأذهان للعلامة الحلي.

(٢) ذكره السيد الأمين في الأعيان: ج ٥، ص ٣٩٦: ناقلاً إياه عن الشيخ محمد تقى المجلسي.

هذا الوسط، مروراً هادئاً لا يثير سؤالاً، ولا يفتح باب جواب ولا
يجل مشكلة ولا يصنع مشكلة!

وقد اجتمع الأمران في العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن
المطهر رحمته بأفضل ما يمكن اجتماعه لأحد، ففي الجانب الثاني وهو:

◀ أثره في الحوزات العلمية:

يعتبر العلامة الحلي رحمته تعالى مؤسساً لما سمي بالاصطلاح
الجديد في علم الرجال، وهو تقسيم الأخبار والروايات إلى أربعة
أقسام: الصحيح، والحسن، والموثق، والضعيف.

وهذه الطريقة الجديدة في تصنيف الأخبار أنتجت نتائج
مهمة، منها أنها وضعت مقياساً واضحاً (سندياً) لقبول الخبر
ورده، ومسطرة يمكن عن طريقها تصحيح الرواية وتحديد الموقف
منها، في الوقت الذي كان هذا المصطلح غير واضح. فبين من كان
يعتقد بصحة أحاديث الكتب الأربعة (الكافي، والفقيه والتهذيب،
والاستبصار) كما ذهب إليه أكثر المحدثين الأخباريين، وبين من
كان يعتقد بأن الطريق لتصحيح الحديث هو التعرف على القرائن
التي تفيد الوثوق بصدوره عن المعصوم.

وبالرغم من أنه قد ينسب ذلك على نحو التريديد كما في
مقدمات الحقائق إلى السيد ابن طاووس شيخ العلامة وأستاذه،
إلا أن الذي كرس هذا المصطلح في الفقه، وحوله إلى منهج كان هو
العلامة حتى لو لم نقل بأنه كان المبتكر له، وهو غير بعيد كما أشار

إليه بعضهم من أن اطلاع العلامة على منهجية مدرسة الخلفاء، حداه إلى أن يضع ضوابط أيضا للروايات في المدرسة الشيعية، وهذا الكلام وإن كان يقال أحيانا في سياق الانتقاد والالتهام، إلا أنه لو فرضنا صحته لا يكون شيئا سيئا، إذا كانت نتيجته وضع منهجية صارمة في الاستدلال.

كما أن العلامة رحمته الله كان بعد الجيل الأول من الفقهاء كشيخ الطائفة ممن خاض في بحر بحث الفقه المقارن بين المذاهب الإسلامية، في كتاب تذكرة الفقهاء الذي يعرب عن تبحره وإحاطته بالأدلة، وكذلك كتابه منتهى المطلب. ولا يستغني الباحثون في الفقه المقارن عن هذين الكتابين.

◀ كتب العلامة الحلي وآثاره:

نقل عن المحدث الشيخ يوسف البحراني قوله: لقد قيل إنه وزع تصنيفه على أيام عمره من يوم ولادته إلى موته، فكان قسط كل يوم كراسا، مع ما كان عليه من الاشتغال بالإفادة والاستفادة والتدريس والأسفار والحضور عند الملوك. والمباحثات مع الجمهور ونحو ذلك من الأشغال، وهذا هو العجب العجيب الذي لا شك فيه ولا ارتياب^(١).

وبالفعل فإن من ينظر إلى عدد كتبه بتعداد مجلداتها الكثيرة، ولم تكن في الغالب نقولات، وإنما هي أعمال فكر واستدلال،

(١) الحسون، فارس في مقدمة إرشاد الأذهان ١٥٣.١ نقلا عن لؤلؤة البحرين.

مع اختلاف ميادينها، وتعدد مواضيعها، لا بد أن يستولي عليه العجب، بل يغرق في الإعجاب بهذه الشخصية الاستثنائية.

وقد ذكر الشيخ الحسون في مقدمته الوافية عن شخصية العلامة الحلي (١٠١) عنواناً من عناوين الكتب التي ثبتت نسبتها للعلامة، وهي (ما يناهز ثلاثين كتاباً في الكلام وأصول الدين والجدل والاحتجاج وآداب البحث والمناظرة. وعشرين كتاباً في الفقه وحده بينها ما كان في عدة مجلدات. وسبعة كتب في أصول الفقه وفي التفسير كتابين، وفي الحديث خمسة كتب، وفي الرجال ثلاثة كتب، وفي المعقول ستّة وعشرين كتاباً، وفي الأدعية كتابين، وفي النحو أربعة كتب، وفي الفضائل كتابين إلى غير ذلك من مؤلفاته)^(١).

◀ شهادات قيمة في دوره وأثره:

لا يعرف الفضل أحد أكثر من أهله، ولا يقيم العالم في بازار التقييم أحسن من خريت العلم والفقاهة، ولذا سوف نورد شهادتين فقط من عشرات الشهادات التي قيلت في حق العلامة، شهادتين من فقيهين عظيمين في المدرستين (مدرسة المحدثين ومدرسة المجتهدين)، الأولى للمحدث الفقيه الشيخ يوسف البحراني الذي تأتي ترجمته حيث قال في حق العلامة: وكان هذا الشيخ وحيد عصره، وفريد دهره، الذي لم تكتحل حدقة الزمان له بمثل ولا

(١) الحسيني، أحمد في مقدمة تبصرة المتعلمين. ٩

نظير، كما لا يخفى على من أحاط خُبراً بما بلغ إليه من عظم الشأن في هذه الطائفة ولا ينبئك مثل خبير.. وبالجملة فإنه بحر العلوم الذي لا يوجد له ساحل، وكعبة الفضائل التي تطوى إليها المراحل^(١).

والأخرى: شهادة من السيد مهدي بحر العلوم في حق العلامة حيث قال: علامة العالم وفخر نوع بني آدم، أعظم العلماء شأنًا وأعلاهم برهانًا. سحاب الفضل الهاطل وبحر العلم الذي ليس له ساحل، جمع من العلوم ما تفرق في جميع الناس، وأحاط من الفنون بما لا يحيط به القياس، مروج المذهب والشرعة في المائة السابعة، ورئيس علماء الشيعة من غير مدافعة، صنف في كل علم كتبًا، وآتاه الله من كل شيء سببًا، أما الفقه فهو أبو عذره وخواص بحره.. وأما الأصول والرجال فإليه فيها تشد الرحال وبه تبلغ الآمال وهو ابن بجدها ومالك أزمتهما. أما المنطق والكلام فهو الشيخ الرئيس فيهما والإمام^(٢).

◀ بين العلامة والشيخ البيضاوي

يعد الشيخ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي الشيرازي المتوفى سنة ٦٩٢هـ، من أعظم علماء الشافعية، ومن أهم مفسري المسلمين، ومذ ألف كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) في تفسير القرآن والذي عرف بتفسير البيضاوي، فقد

(١) البحراني؛ الشيخ يوسف: لؤلؤة البحرين ٢١٠.

(٢) بحر العلوم؛ السيد مهدي: الفوائد الرجالية ٢/ ٢٧٥.

استقطب اهتمام علماء المدرستين، وذلك لما كان يتمتع به البيضاوي من دقة وذكاء وسعة تتبع. وقد ذكروا في شأنه أيضا أنه وجه رسالة يناقش فيها العلامة الحلي رحمته، بعدما اطلع على قول العلامة في كتاب القواعد، (ولو تيقنهما - أي: الطهارة والحدث - متحدين متعاقبين وشك في المتأخر، فإن لم يعلم حاله قبل زمانها تطهر وإلا استصحبه)، وبدأ في تلك الرسالة بقوله: يا مولانا جمال الدين أدام الله فواضلك، أنت إمام المجتهدين في علم الأصول، وقد تقرر في الأصول مسألة إجماعية، هي: أن الاستصحاب حجة ما لم يظهر دليل على رفعه، ومعه لا يبقى حجة. بل يصير خلافه هو الحجة. إلى آخر ما ذكر في مناقشته لقول العلامة.

فكان أن أجابه العلامة بكتاب جاء فيه: وقفت على ما أفاده مولانا الإمام العالم أدام الله فضائله وأسبغ عليه فواضله، وتعجبت من صدور هذا الاعتراض عنه، فإن العبد ما استدل بالاستصحاب بل استدل بقياس مركب. إلى آخر ما ذكر في جوابه). ثم أنفذه إلى شیراز، ولما وقف القاضي البيضاوي على هذا الجواب استحسنته جدا وأثنى على العلامة^(١).

وأنت ترى عزيزي القارئ مقدار الاحترام الذي يكنه كل من العلمين العالمين لصاحبه، بالرغم من اختلاف مدرستهما الفقهية والعقدية!

(١) الحسون، فارس في مقدمة إرشاد الأذهان ١/ ١٤٨.

7/ المحقق الثاني الشيخ علي عبد العالي الكركي (ت 940 هـ)

لا يكاد مؤرخ يمر على تأسيس الدولة الصفوية في إيران (بدءاً من ٩٠٥ هـ) ثم قوتها وتحويلها إيران إلى دولة شيعية كاملة، تتبنى التشيع وتشره، وترفع لواءه وتنصره إلا ويشير إلى الدور المهم والمؤثر للشيخ الكركي الذي يعرف في الوسط الحوزوي والفقهية بالمحقق الثاني^(١) وذلك لأن التحول من مذهب إلى آخر على مستوى الدولة والمجتمع يختلف منه على مستوى الفرد، ففي الحالة الثانية لا يحتاج الفرد إلا لقناعة بالمذهب الجديد، واعتقاد بعقائده، وتغيير بعض الكيفيات العبادية، وينتهي الأمر.

إلا أن الأمر عندما يكون على مستوى الدولة، فهي بحاجة إلى تغيير في النظام القضائي، حيث سيحل فقه محل فقه آخر، وهذا يقتضي أن يتفقه القضاة الفعليون بالفقه الجديد، أو المجيء بقضاة آخرين واستبدال الطاقم كله لا سيما مع عدم قناعة القضاة السابقين بالمذهب الجديد. والكلام نفسه يأتي فيما يرتبط بإدارة الحالة الدينية، من صلوات الجمعة والجماعات وخطبائها، وإدارة المساجد والهيئات، وقضايا الأوقاف والمدارس الدينية.

ويمتد ذلك إلى قضايا التوجيه والمعرفة الدينية، فبينما كان يقوم على أساس معين وهو الإسلام بفهم مدرسة الخلفاء، ها هو يصبح الإسلام بفهم مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

(١) المحقق الأول صاحب الشرائع

بل قد يصل الأمر إلى القاعدة والفلسفة التي يركز عليها وجود هذا النظام والسلطان.

كل هذه الأعمال والتغيرات كان الشيخ علي الكركي قائدها وربان سفيتها، ولذلك لو وصفه بعضهم بأنه «بطل تشيع إيران» لما كان مبالغة.

ويتميز دور الشيخ الكركي عن أدوار من سبقه من العلماء الذين عملوا على إدخال مذهب التشيع إلى إيران ولا سيما العلامة الحلي رحمته الله والذي مر شيء من الحديث عنه آنفاً، في أن أولئك العلماء قد ركزوا على تشيع البلاط السلطاني، ولم يغيروا النظام العام والثقافة الشعبية، بخلاف المحقق الكركي الذي - بالإضافة إلى تأثيره على البلاط - عمل على تغيير الثقافة الدينية السائدة، والنظام الشرعي المرتبط بالناس من مساجد وأوقاف ومدارس وصلوات وما شابه..

والنتيجة أنه في الحالة السابقة، وحيث كان السلاطين مختلفين في مدى تقبل المذهب، أو في الحماس إلى الدعوة إليه، كان يتأثر حضور المذهب بحماس السلطان الحاكم وجوداً وعدماً! بينما هو في الحالة الثانية لا يرتبط به بالضرورة.

ولأجل هذا فقد (استورد) مئات العلماء - من مختلف المستويات - من البلاد العربية، وشجعهم على البقاء في إيران وأوكل إليهم المهمات، من قضاء وصلوات جماعة وغير ذلك وأجرى لهم المكافآت والمرتبات العالية، واستثمر فرصة وجود

الشاه طهماسب والذي كان متحمساً للمذهب وللشيخ الكركي بالذات، استثمر ذلك واستفاد منه فائدة كبيرة. هذا مع أن الكركي كان في زمان الشاه إسماعيل مدة ١٥ سنة لنفس الغرض ولكنه لم يحقق ما تحقق له أيام الشاه طهماسب الذي استقدمه مرة أخرى من النجف الأشرف وفوض إليه الأمور و(أعطاه الخيط والمخيط). ومنحه رتبة «شيخ الإسلام».

فقد «أرسل إلى الشيخ حسين بن عبد الصمد - والد البهائي - الذي كان يدرس في (نورية) بعلبك وأغراه بالسفر إلى أصفهان، ولعب الكركيون دوراً فعالاً في تنظيم الحياة العلمية والثقافية والاقتصادية والعمرانية في إيران إذ فتحو المدارس، وصرفوا على الطلاب، ونظموا الخراج والقضاء، وضبطوا اتجاه القبلة في أكثرية بلاد العجم، وهندسوا المساجد والمآذن والقباب، وحثوا الناس على الالتزام بالدين، وألفوا الكتب في الدفاع عن مذهبهم وردوا على علماء السنة وجادلوه، وردوا على رهبان النصارى.. قال المحقق البحراني في لؤلؤة البحرين: كان (المحقق) من علماء دولة الشاه طهماسب الصفوي، جعل أمور المملكة بيده، وكتب رقماً إلى جميع الممالك بامثال ما يأمر به الشيخ المذكور وإن أصل الملك إنما هو له، لأنه نائب الإمام عليه السلام، فكان الشيخ يكتب إلى جميع البلدان كتباً بدستور العمل في الخراج، وما ينبغي تدبيره في شؤون الرعية...»^(١)

وقد ساعد الشيخ الكركي في هذا أن الأوضاع في الدول العربية الخاضعة للعثمانيين الاتراك كانت في غاية السوء من الناحية المذهبية فقد صدر من بعض فقهاء الدولة العثمانية فتاوى بتكفير وجواز قتل الشيعة، وهو الأمر الذي سهل هجرة كثير من العلماء لا سيما من بلاد الشام ولبنان إلى إيران حيث قوبلوا بالحفاوة والإكرام وكان لهم دور مؤثر في نشر التشيع في المستويات الشعبية، وقد كتب باحثون عن الهجرة العاملة إلى إيران، تفاصيلها وآثارها، ما يمكن للقارئ أن يرجع له.

تحولت إيران الصفوية إلى شيعية على مستوى الرئاسة والسلطان مع قدوم الشاه اسماعيل الأول، وهذا لا يحتاج إلا إلى قناعة سلطانية ومرسوم يتلى بأن يؤذن بالشهادة الثالثة في الأذان، وبحيٍّ على خير العمل لكن التحول على المستوى الشعبي والاجتماعي والتنظيمي كان يحتاج إلى جيش من طلاب العلم يقومون بنشر مبادئ هذا المذهب؛ عقائده وأحكامه.. ويربون الناس عليه. وهذا لم يتم إلا خلال فترة طويلة استغرقت أيام الشاه إسماعيل وشرطاً مهماً من أيام ابنه الشاه طهماسب إلى وفاة الشيخ الكركي رحمته الله سنة (٩٤٠ هـ).

8/ العلامة المولى محمد باقر المجلسي (1111 هـ)

بعد أن تربى في اصفهان على يد والده وأخذ عنه العلم، وعن علماء آخرين، متحلياً بنبوغ مبكر، ولذلك ما أن صار عمره ٣٣ سنة حتى أصبحت له الرئاسة العلمية في اصفهان، واعترف له من

سواه بالفضل، وكان له من التلامذة كما سيأتي الحديث ما يصل إلى ألف طالب ومتعلم.

◀ نقاط عن بعض أدواره:

ويمكن لنا أن نوجز بعض الأدوار التي قام بها العلامة المجلسي في حياته في أصفهان وهي عاصمة الدولة الإيرانية حينئذٍ بالنحو التالي:

(١) التأليف والتصنيف:

وفي هذا المجال نحن نلاحظ عدة خصائص في تأليفاته:

الأولى: أن بعضها كان موسوعياً، وكان كأنه يخاطب الحوزات العلمية في زمانه وما بعده، ويؤلف لكي لا تضعي الثروة العلمية والمعرفية التي خلفها أهل البيت عليه السلام، ونقلها روايتهم وحملتهم علمهم. وفي هذا المجال يبرز كتاب بحار الأنوار كما تقدم كشامة بيضاء في غرة الدهر. حيث لم ينتشر حتى الآن ^(١) - أي بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من الزمان، ما يوازن هذا العمل العلمي الجبار. ويمكن الرجوع إلى كتابنا: أعلام الامامية لمعرفة خصائص وأهمية كتاب بحار الأنوار الذي ألفه وجمعه العلامة المجلسي.

والثانية: كان كما رأى الشيخ السبحاني من المبتكرين في التأليف باللغة الفارسية، فإن أغلب كتبه التي كتبت لعامة الناس

(١) هذا بالرغم من أنهم يتحدثون عن أن تلميذه الشيخ عبد الله الاصفهاني لديه موسوعة لو طبعت قد تصل إلى أربعائة مجلد.

كانت باللغة الفارسية في وقت لم يكن التأليف باللغة الفارسية شائعاً، إذ أن المخاطب بالكتب عادة هم أهل العلم والحوزات العلمية وهذه كانت تتدارس غالباً باللغة العربية.

ويظهر أن ذلك راجع إلى الدور الذي كان يقوم به العلامة المجلسي كما سيأتي في محاربة خرافات المتصوفة التي انتشرت في أواخر زمان الصفويين، وأصبحت تشكل تهديداً للفكرة الشيعية بتحريفها عن اتجاهها الصحيح، وسنأتي على الحديث عليها، فكان العلامة المجلسي في هذه التأليفات يخاطب عامة الناس وهم لا يتقنون غير الفارسية فليس من المعقول أن يؤلف كتاباً جماهيرياً، المقصود منه تثقيف عامة الناس بلغة غير لغتهم.

وكذلك كان الغرض من تأليفه باللغة الفارسية توضيح تعاليم أهل البيت عليه السلام في الأخلاق والفقه وأصول العقائد، ولذلك رأى بعضهم أن (كتابه حق اليقين كان سبباً في تشيع سبعين ألفاً من الإيرانيين)^(١).

والثالثة: أنه كان بالإضافة إلى جمعه المستوعب وتنظيمه الرائع لما حصل عليه، كان له قدرة تحقيقية ونقدية عالية، أبرزها في كثير من أبواب البحار، إلا أن الموضوع الذي تجلت فيه هذه القدرة بشكل أكبر كان شرحه على أصول الكافي، في كتابه (مرآة العقول في شرح أحاديث آل الرسول) فهو يعالج كل حديث معالجة سنديّة تدل على

(١) الدوري؛ د عبد العزيز في لمحات اجتماعية من تاريخ العراق ٧٩/١ ناقلا عن دوايت دونالد سن في عقيدة الشيعة.

تضلعه في علم الرجال، وتمرسه فيه، ثم يناقش دلالاته ومعناه، ويشير إلى ما يعارضه، أو ما يوضحه بحيث لا يبقى فيه وجه غموض.

وقد استمر في التأليف والتصنيف حتى تجاوزت كتبه سبعين كتاباً، بعضها كالبهار في ١١٠ مجلدات وبعضها كمرآة العقول دون ذلك في ٢٦ مجلداً، وملاذ الأخيار في شرح تهذيب الأخبار في ١٦ مجلداً، ونحن نلاحظ أنه لم يترك التأليف مع ما كان عليه من المسؤوليات الاجتماعية من القضاء وشيخوخة الإسلام والتدريس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى سنة وفاته حيث ذكر أنه ألف كتابه (حق اليقين) في سنة ١١٠٩ هـ أي قبل سنة واحدة من وفاته.

٢) تربية العلماء العارفين بالأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته عليه السلام:

فإن الناظر يلاحظ أنه قد انتشر ما قبل زمان العلامة المجلسي وأيامه، التوجه الفلسفي والعرفاني بشكل كبير في الساحة العلمية في إيران، حتى أن العلامة المجلسي نفسه كان في أول أيام شبابه قد برع في هذا الجانب، غير أنه لما كان أخباري المسلك والتوجه وإن كان باعتدال علم «أن زلال العلم لا ينفع إلا إذا أخذ من عين صافية نبعت عن ينباع الوحي والالهام، وأن الحكمة لا تنجع إذا لم تؤخذ من نواميس الدين ومعقل الأنام. فوجدت العلم كله في كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأخبار أهل بيت الرسالة الذين جعلهم الله خزاناً لعلمه وتراجمه لوجيه»^(١).

(١) بحار الأنوار. المقدمة ج ١. ٣.

فرأى أن الطريق المناسب في تغيير الاتجاه العام السائد آنئذ هو القيام بترقية علماء متخصصين في الجانب النقلي والروائي، وأشرك بعض هؤلاء بشكل عملي في ترتيب بحار الأنوار، حيث أنهم كانوا يعملون تحت يده ويكتسبون بذلك خبرة، بالإضافة إلى التعلم في الدرس والبحث. وبالفعل فقد برز في تلك الفترة من تلامذته الذين تجاوز الألف كما رآه السيد نعمة الله الجزائري، برز منهم محدثون، صنفوا وأثروا هذا الجانب، فمنهم من ألف في الرجال مثل المولى محمد بن علي الأردبيلي صاحب كتاب (جامع الرواة) الذي لا يزال إلى اليوم من الكتب المهمة في هذا الشأن. ومنهم السيد الجزائري الذي تقدم ذكره، والميرزا عبد الله الأفندي الاصفهاني الذي قيل إن لديه موسوعة حديثة ضخمة تتجاوز البحار عددا. وقد ترجم هؤلاء التلامذة المحقق السيد أحمد الحسيني في كتابه (تلامذة العلامة المجلسي)، وأنهى عددهم ترجمةً إلى ما يزيد عن المائتين من العلماء.

٣) القضاء على المنكرات في المجتمع:

كان للعلامة المجلسي شخصية مهمة في مجتمع اصفهان وهي عاصمة الدولة الصفوية آنئذ وترقى فيما بعد حتى أصبح حائراً على منصب شيخ الإسلام، وهو بمثابة المرجعية الدينية الكبرى في الدولة فاستطاع أن ينجز ما يقتضي التدخل الرسمي وقوة السلطان، ويمكن لنا أن نلاحظ في هذا الجانب أموراً كما ذكرها مترجمو حياته.

فلم يقصر في الحديث مع الحاكمين من أجل منع المنكرات

والمحرمات، بقوة السلطان، فقد تحدث مع السلطان الشاه عباس الثاني أول سلطنته وكان هذا الشاه قد طلب منه أن يخبره عن رغبته ومطالبه، فكان أن أخبره أن طلبه الأول والأخير أن يصدر قانونا بمنع الخمر والمعاقة عليها، حيث كان يتم التغاضي عنها من قبل السلاطين السابقين، وهكذا كان لفترة من الزمان.

كما أنه كان له دور كبير في محاربة بعض الفرق التي وجدت منافذ عبر ما يسمى بالعرفان (الهندي) حيث سعى هؤلاء من خلال بعض الرياضات الخاصة بعرفاء الهنود، أن ينفذوا بالتدريج إلى الحالة الدينية (المتصوفة) في أصفهان، واستمروا في هذا الأمر إلى حد أنهم صار لهم مراكز معروفة، وكانوا يموهون على الناس من خلال أقاويل خاطئة، إلى حد أنهم نصبوا تماثلاً (لعله تماثل بوذا أو غيره) وكانوا يتقربون إليه، ويتمسحون به، فلما سمع العلامة المجلسي بذلك أنهى الأمر إلى الشاه سليمان الصفوي، واستصدر منه الأمر بتحطيم ذلك الصنم، وتهديم الموقع الذي كانوا يجتمعون فيه. كما ذكر ذلك في الفيض القدسي^(١).

بل شن حرباً لا هوادة فيها على التصوف الكاذب الذي انتشر في تلك الفترة، وهو علامة على تضييع بوصلة الطريق الحق، فإن التصوف هذا، بما يعنيه من الغياب عن الواقع السياسي

(١) وقد حكي له عن صنم في أصفهان، يعبد كفار الهند سرا، فأرسل إليه، وأمر بكسره بعد أن بذل الكفار أموالاً عظيمة للسلطان على أن لا يكسر، بل يخرجونه إلى بلاد الهند، فلم يقبل، فلما كسر كان له خادم يلزم خدمته، فوضع في عنقه حبلاً خنقه، من أجل فراق الصنم. بحار ج ١٠٢ - ص ٢٠.

والاجتماعي يستهدف تغييب الأمة عن دورها، فيستفيد من ذلك الغياب الطامعون والظالمون للسيطرة على قرارها السياسي وثروتها الاقتصادية كما أنه بمعنى الالتقاط للمناهج (الروحية) غير الواردة من طريق الوحي، ينتهي إلى غير الطريق الذي أراده الله عز وجل.

وعندما كثر في اصفهان وجود المتصوفة الكاذبة، واتخذوا لهم التكايا والزوايا والخانقاهات (وهي الأماكن المختصة بالصوفية)، وكان هذا يشكل خطراً كبيراً.

ولقد تنبه العلماء في تلك الفترة إلى هذا الخطر فكتبوا الكثير من الكتب (كصاحب الحقائق، والميرزا القمي في الرد على أفكار وممارسات الصوفية وأفتوا - ولا زالوا - بما يحذر الناس منها^(١)).

(١) ومن ذلك ما جاء في كتاب إرشاد السائل للسيد الكلبياني - ص ١٩٧ من الاستفتاء حول هذه الطريقة:

ما هو التصوف، وهل يجوز اعتناق مذهب الصوفية، وهل في علمائنا الإمامية من ينسب إليه هذا المذهب أو من هذا المذهب؟

بسمه تعالى: اختلفت الآراء في تعريف التصوف، والقول الفصل في المقام أن الحق في الطريقة القويمة والمنهج الذي سار عليه أصحاب الأئمة (رضوان الله عليهم) تبعاً لأئمتهم الأطهار عليهم السلام وتبعهم علمائنا الأبرار، وصلحاء الشيعة وأسلانهم، وما خالف ذلك بدعة وضلال فلا منهج في العبادة ولا طريق ولا رياضة في مجاهدة النفس وتركيتها وتهذيبها غير ما يستفاد من الكتاب والسنة النبوية والأئمة الهداة عليهم السلام ولذا فيجب الاحتراز عما يخترعه أولئك كاختراع السلاسل، والأخذ عن غير الفقهاء، في الرياضة والتفريق بين الشريعة والطريقة، ولا يجوز اعتناق طريقتهم أو الركون إليهم، ولا نرى من علمائنا الإمامية أحداً قد سلك مسلكهم أو يرضى بعقيدتهم، عصم الله المسلمين من شرور المبدعين إن شاء الله.

ولا بد من التفريق بين التصوف هذا، وبين التعبد الشرعي، والتوجه إلى الله وفق ما ورد عن النبي والمعصومين عليهم السلام فإن لديهم مدرسة رائعة في الارتباط بالخالق قوامها النوافل الواردة والأدعية الرائعة ذات المضامين العالية، التي نجدها في الصحيفة السجادية وأمثالها من كتب الأدعية الموثوقة.

ولهذا فقد رد العلامة المجلسي بقوة على من نسب إلى والده الميل إلى الصوفية، وأكد أن ذلك منه كان طريقة لهداية أولئك، إلى هذا المنهج فقد قال في آخر رسالة الاعتقادات: وإياك أن تظن بالوالد العلامة نور الله ضريحه أنه كان من الصوفية ويعتقد مسالكهم ومذاهبهم، حاشاه عن ذلك، وكيف يكون كذلك؟ وهو كان آنس أهل زمانه بأخبار أهل البيت عليهم السلام وأعلمهم وأعملهم بها، بل كان سالك مسالك الزهد والورع وكان في بدو أمره يتسمى باسم التصوف ليرغب إليه هذه الطائفة ولا يستوحشوا منه، فيردعهم عن تلك الأقاويل الفاسدة الأعمال المبتدعة، وقد هدى كثيرا منهم إلى الحق بهذه المجادلة الحسنة. ولما رأى في آخر عمره أن تلك المصلحة قد ضاعت ورفعت أعلام الضلال والطغيان وغلبت أحزاب الشيطان وعلم أنهم أعداء الله صريحا تبرأ منهم، وكان يكفرهم في عقائدهم الباطلة وأنا أعرف بطريقته وعندي خطوطه في ذلك^(١).

وقد أشار المحدث البحراني في اللؤلؤة إلى مقاومة العلامة

(١) الرسائل العشر - ابن فهد الحلي - من مقدمة المحقق السيد مهدي الرجائي ص ٨.

المجلسي للصوفية وسائر أهل الابتداع بقوله عنه: العلامة الفهامة غواص بحار الأنوار، ومستخرج لثلى الاخبار وكنوز الآثار، الذي لم يوجد له في عصره ولا قبله ولا بعده قرين في ترويج الدين واحياء شريعة سيد المرسلين، بالتصنيف والتأليف والامر والنهي وقمع المعتدين والمخالفين، من أهل الاهواء والبدع والمعاندين سيما الصوفية المتبدعين.

وهذا الشيخ كان إماماً في وقته في علم الحديث وسائر العلوم، شيخ الإسلام بدار السلطنة اصفهان، رئيساً فيها بالرئاستين الدينية والدينية، اماماً في الجمعة والجماعة.

وهو الذي روج الحديث ونشره، لا سيما في الديار العجمية، وترجم لهم الاحاديث العربية بأنواعها بالفارسية، مضافاً الى تصلبه في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبسط يد الجود والكرم لكل من قصد وأم^(١).

9/ الشيخ محمد حسن بن محمد باقر النجفي صاحب الجواهر (ت 1266 هـ).

حاز من توفيق الله تعالى ما جعله المرجع الأعلى في زمانه، وخلف كتابه جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، وهو مطبوع في ما يزيد عن ٤٠ مجلداً، ولا يستغني عنه فقيه مجتهد، بل إذا أراد أحد الفقهاء وصف النمط الأعلى في الاجتهاد والفقهاء يعبر عنه بالاجتهاد الجواهري، وكأنه النسخة الأفضل.

(١) ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار؛ المقدمة، ص: ٣٠.

فبعد أن تتلمذ على يد علماء النجف وفقهائها، كالشيخ قاسم محيي الدين والسيد جواد العاملي والشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء، وابنه الشيخ موسى والسيد علي الطباطبائي صاحب (رياض المسائل)، برز بين أقرانه فقيهاً لا يحارى.

وكما أشرنا من قبل إلى أن الوضع في الحوزات العلمية الشيعية لا يعتمد على تعيين سلطان أو حاكم لعالم في منصب أو مقام، وإنما الذي يعينه هو كفاءته وقدرته، واعتراف الوسط العلمي بأعلميته وفقاوته، فحتى لو تم تعيينه فرضاً من قبل جهة، ولم يكن ذا قدرة علمية متميزة فإنه لا يستطيع الاستمرار.

ومرد ذلك راجع إلى استقلال الحوزات العلمية الشيعية عن السلطات الرسمية، وعدم قبولها بتدخل تلك السلطات في أمورها تعييناً أو عزلاً. وأيضاً راجع إلى تقاليد الحرية التي سادت في هذه الحوزات من حيث إقبال طلاب العلم على الدرس الذي يعجبهم، والعالم الذي يرتاحون إليه من دون أن يكون هناك (برنامج) يقسره على أن يذهبوا لهذا المدرس أو يلتصقوا بذلك العالم.

وقد أعان صاحب الجواهر بياناً رائعاً وقدرة استثنائية على تفريع المسائل شهد له بهما من عاصره وعرف إنتاجه.

ومنذ أن أكمل الشيخ النجفي كتابه الجواهر وإلى يومنا هذا فهو يتربع على قمة الكتب الفقهية الاستدلالية في الحوزات العلمية بحيث لا يستغني باحث في الفقه عنه، بل لقد نقل عنه نفسه بأنه:

من كان عنده جامع المقاصد والوسائل والجواهر فلا يحتاج إلى كتاب للخروج عن عهدة الفحص الواجب على الفقيه في آحاد المسائل الفرعية^(١).

◀ ميزات الكتاب ولماذا احتل هذه المكانة؟

بالرغم من كثرة الكتب الاستدلالية الفقهية التي ألفها علماءنا في أوقات مختلفة منذ زمان شيخ الطائفة الطوسي وإلى أيامنا هذه إلا أن الجواهر يبقى متميزاً بينها، ولا بد أن يكون لهذا أسباب مقنعة، فمما ذكر من مميزات الكتاب:

(١) الموسوعية والشمول لكل أبواب الفقه، فإن قسماً من كتب علمائنا على جودتها وقوتها إلا أنها لا تشمل إلا بعض أبواب الفقه، ولا تحيط بتمام مواضيعه، وهذا يجعل الباحث غير مكثف بها عن غيرها، بينما جواهر الكلام تميز بأنه فيه تمام أبواب الفقه، ويضاف إلى ذلك أنه محيط ومستوعب لكلمات الأعلام السابقين عليه في المسائل، وهذا ما أشار إليه الشيخ المظفر رحمته في مقدمة الجواهر، حيث قال (كتاب لم يؤلف مثله في سعته وأحاطته بأقوال العلماء وأدلته ومناقشتها، مع بعد نظر وتحقيق. مضافاً إلى أنه كتاب كامل في أبواب الفقه كلها جامع لجميع كتبه) وهذا ما سبقت الإشارة إليه من أن المجتهد يستطيع

(١) المظفر، الشيخ محمد رضا. مقدمة جواهر الكلام طباعة دار الكتب الإسلامية طهران.

بالجواهر وجامع المقاصد والوسائل أن يخرج عن عهدة الفحص الواجب^(١) عليه قبل الفتوى.

ولو أردنا أن نتكلم بلغة الأرقام، نقول إن الكتاب جاء في ٤٣ مجلدا بالطبع الحديث، ومعدل كل مجلد ٤٠٠ صفحة، وهذا يعني أكثر من ١٧٠٠٠ صفحة علمية، أحيانا يحتاج السطر الواحد منها لمعرفة كامل معانيه إلى فترة غير قليلة من الزمان.

٢) الميزة الأخرى هي أنه جاء (على نسق واحد وأسلوب واحد وبنفس السعة التي ابتدأ بها انتهى إليها)^(٢). ولا ريب أن وحدة الأسلوب يسهل على الباحث والعالم كيفية الاستفادة منه بعدما يعرف طريقة المؤلف وإشاراته.

هذا بالرغم من أن مؤلفه استغرق في تأليفه مدة ثلاثين سنة كما ذكروا في ترجمته.

(١) لا يستطيع الفقيه الامامي أن يفتي إلا بناء على آية قرآنية كريمة صريحة، أو رواية صحيحة السند واضحة الدلالة عنده، فهذا أحد مقدمات الإفتاء، بل لا بد أن يفحص وأن يجتهد في ذلك ليرى هل هناك تخصصات لتلك الآية المباركة؟ أو روايات معارضة لتلك الرواية الصحيحة، أو قرائن تخصصها أو تشرحها، وربما كانت هناك روايات في باب الديات والحدود في آخر الكتب الروائية، ولها نحو تعلق بروايات باب الطهارة كما أفاد بعض العلماء، وبالتالي فيلزم على الفقيه قبل الإفتاء بحكم أن يفحص عن المواضع التي يهتم فيها وجود تلك التخصصات أو المعارضات أو القرائن، حتى يعالجها لو كانت موجودة. أو يطمئن بعدم وجودها.

(٢) المظفر؛ الشيخ محمد رضا، مقدمة جواهر الكلام ١٤.

(٣) سلامة النية في التأليف: إن مما لا شك فيه أن للنية الخالصة أثراً مهماً في توفيق العمل، ويحتمل البعض أن نية المؤلف الخالصة، وتواضعه كما سيأتي في عنوان صفاته الأخلاقية كان لها، بالإضافة إلى ما سبق، أثر كبير في انتشار هذا الكتاب ورواجه وبقائه، فالمؤلف لم يكن يقصد بتأليفه هذا الكتاب تحدي سابقه أو نظرائه من العلماء نقضا وإبراما واحتجاجا.

فقد نقل في كتاب التكملة عنه أنه قال في جملة كلام له مع تلميذه فقيه عصره الشيخ محمد حسن آل يس عن كتابه الجواهر في قصة طويلة: «والله يا ولدي أنا ما كتبت على أن يكون كتابا يرجع إليه الناس، وإنما كتبت ل نفسي حين كنت أخرج إلى (العدارات)^(١) وهناك أسأل عن المسائل وليس عندي كتب أحملها لأني فقير، فعزمت على أن أكتب كتابا يكون لي مرجعا عند الحاجة. ولو أردت أن أكتب كتابا مصنفًا في الفقه لكنت أحب أن يكون على نحو رياض المير السيد علي فيه عنوان الكتابية في التصنيف». وقد علق صاحب التكملة على هذا الخبر بما بمعناه: إن حسن نية الشيخ هذه وخلوصها من طلب الجاه والسمعة هي السبب في توفيق مؤلفه إلى إكماله والسبب في رواجه عند الناس^(٢).

(١) قرى الفرات حول الحلة وغيرها.

(٢) المصدر السابق. ١٧.

◀ مرجعية الشيخ العامة:

قيل وأثناء زمان الشيخ صاحب الجواهر، كانت النجف الأشرف تشهد نموا علميا استثنائيا لوجود عدد من عمالقة الفكر الحوزوي فيها، بدءا من أساتذته ومرورا بأقرانه وانتهاء بتلامذته، فقد شهدت تلك الفترة وجود أساتذة كالشيخ جعفر الكبير كاشف الغطاء، وكتبه المتنوعة لا سيما كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، والسيد جواد العاملي صاحب كتاب مفتاح الكرامة الذي تتبع فيه أقوال علماء الإمامية في المسائل المختلفة بنحو تحقيقي دقيق بحيث أنه لا يزال إلى اليوم مرجع الباحثين، والسيد علي الطباطبائي صاحب كتاب رياض المسائل الذي كان صاحب الجواهر يجب أن لو كان تصنيفه في الفقه على منهجيته وأسلوبه!

وفي طبقة أقرانه كان مثل الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي يفتخر به والده ويعدّه من أعلم فقهاء الإمامية، والشيخ محمد تقي الاصفهاني صاحب حاشية هداية المسترشدين على كتاب معالم الدين (في الأصول)، والمتأخرين عنه قليلا كالشيخ الأعظم المرتضى الأنصاري صاحب المكاسب والرسائل، ورأس المدرسة الأصولية الحديثة.

ومنذ أن مضى جيل أساتذته، وبعض أقرانه كالشيخ موسى كاشف الغطاء، فوضت الحوزة العلمية أمر التدريس والزعامة فيها إلى الشيخ صاحب الجواهر، حتى أصبح الزعيم الذي لا ينازع،

سواء في الوسط العربي أو الأعجمي، واستمر على هذا الحال مدة طويلة من الزمان.

ولتطوير الوضع الاجتماعي في النجف الأشرف رأى صاحب الجواهر أن من معيقات النمو العمراني والزراعي في هذا البلد، هو نقص المياه بل شحها، حيث تقع النجف على طرف الصحراء، بعيدة عن المياه والري، تماماً مثلما أشار إلى ذلك الشاعر أحمد الصافي النجفي بقوله:

صدق الذي سماك في (وادي طوى)
يا دار بل وادي طوى وعراء
جلست على الأنهار بلدان الورى
فعلام أنت جلست في الصحراء؟

ولهذا عزم على أن يسحب إليها الماء، وكان أقرب نهر إلى النجف هو نهر الهندية المتفرع من نهر الفرات، وهو على مسافة كيلومترات من النجف، فقرّر حفر الصحراء وصولاً إليه، وبالرغم من معارضة الكثيرين لهذه الخطوة بزعم أنها غير ممكنة وأنها تكلف الأموال الطائلة، كان همّة الشيخ الجواهري أعظم منها حتى لقد قال لمن عارضه بأنها تستهلك أموالاً كثيرة، أنه لو كان يكلف رفع قبضة التراب، قبضة ذهب فإنه ماضٍ في مشروعه!

وبالفعل فقد تم حفر القناة تلك، وكانت عميقة بقدر قامة إنسان كما ذكروا! واكتملت وتم إيصال ماء النهر إليها بعد وفاة

الشيخ الجواهري بستتين، واستفاد الناس منها مدة من الزمان ولكن على أثر عدم الرعاية لها والعناية بها، حيث كانت تتعرض إلى زحف الرمال، ولم تكن الجهات الرسمية الحكومية ترى نفسها معنية بهذا الشأن، وكذلك الجهات الأهلية، فتقلصت إلى حد أنها أوشكت على التلاشي، وعندما جاء السيد حجة الإسلام الشفتي من اصفهان ونظر إلى حالة تلك القناة، حاول إعادة الحياة لها وسعى في ذلك، غير أن محاولاته لم تفلح فأنتهى للأسف ذلك المشروع الذي لو قدر له يد راعية بعد صاحب الجواهر لغير من حالة النجف إلى يومنا هذا.

10/ الشيخ الأعظم مرتضى بن محمد امين الأنصاري (ت 1281 هـ)

من بداياته كانت صحيفة حياته تعرف من عنوانها، فبالإضافة إلى الأم التي لم ترضعه إلا وهي على طهارة - ما استطاعت لذلك - كما نقلوا، إلى حرص أبيه على تعليمه والاهتمام به، فقد كان ذكياً بما لا يخفى على محاوريه، وفي نفس الوقت كان متتبعا، وقد ظهر هذا الزعيم الحوزة في كربلاء السيد محمد المجاهد رحمته عندما حضر الشيخ مرتضى مع والده في زيارة لهما إلى كربلاء المقدسة، وجلسا في درس السيد المجاهد وكان في الفقه، والمسألة في بحث صلاة الجمعة وهل أنها واجبة في زمن غيبة الامام المعصوم أو ليست كذلك.

وقد ناقش الشيخ مرتضى في هذه المسألة السيد المجاهد بنحو أقنع السيد المجاهد بقدراته العلمية من حيث العمق واسلوب

العرض. الأمر الذي جعله يقترح على والد الشيخ مرتضى أن يبقيه في كربلاء التي كانت حينئذ تحظى بحركة علمية جيدة بفضل وجود السيد المجاهد والشيخ شريف العلماء المازندراني. وبالفعل بقي في كربلاء أربع سنوات استفاد فيها من دروس الأستاذين المذكورين، إلى أن حصل الهجوم على كربلاء من قبل الاتراك أيام داود باشا، فترك كربلاء راحلاً إلى الكاظمية ومنها إلى وطنه في دزفول ليبقى سنتين هناك، ويعود من جديد إلى النجف.

النجف في هذه الفترة كانت تزخر بعدد جم من الفقهاء الكبار، منهم الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الذي حضر لديه الشيخ مرتضى الأنصاري خمس سنوات فيما قيل، ومنهم الشيخ محمد حسن النجفي صاحب جواهر الكلام، وبعدها غادر النجف لزيارة الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام في خراسان، فمر في طريقه على كاشان والتقى بالمحقق النراقي (صاحب مناهج الأصول)، وقد وجد فيه عالماً زاخراً بالمعرفة والتدقيق، فأقام في كاشان ثلاث سنين، يمارس فيها التأليف والتدريس، والمباحثة مع المحقق النراقي، الذي وجد بدوره شخصاً بمستوى الشيخ مرتضى ينضج مباحثه، ويشير الملاحظات ليستخرج خبايا الأفكار.

حتى لقد نقل عن المحقق النراقي قوله: أني لقيت خمسين مجتهداً فلم أر بينهم مثل الشيخ مرتضى!

وواصل مشواره إلى مشهد الرضا عليه السلام ليعود بعدها إلى وطنه

دزفول سنة ١٢٤٤هـ، بعد حوالي عشر سنوات من التطواف والبحث عن العلم والمعرفة، ويبقى فيها خمس سنوات، وعندما أراد الخروج من جديد إلى النجف الأشرف رغبت إليه والدته أن يبقى في دزفول يرشد الناس ويبلغ الأحكام، ومن الطبيعي أن كل والدة تحب أن ترى نتاج غرسها وثمر زرعها بين يديها تنفيماً لظلاله وتنعم بخيره، إلا أن الشيخ مرتضى كانت غايته أسمى وهمة أعلى، وكان ينتظره حظ من المجد العلمي، وجيل من التأسيس الفقهي لما يصل إليه بعد، وكان الموعد في النجف الأشرف، فلم يقبل بالبقاء وحينئذ كانت الاستخارة حلاً، قالوا: إنه استخار على الذهاب فجاءت الآية ناطقة: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وعاد الشيخ مرتضى إلى النجف الأشرف مرقد باب مدينة علم النبي ﷺ، ليستقل بالتدريس فيها، ويبدأ منهجيته في الأصول التي شكلت مرحلة متقدمة من البحث العلمي التخصصي في هذا الجانب، ومن خلالها صنع أفقا جديدا للعلماء والأصوليين الذين درسوا على يده والذين جاؤوا من بعده بحيث يعد البعض هذه المرحلة هي آخر مراحل تطور الفكر الأصولي في المدرسة الإمامية، (أو المرحلة ما قبل الأخيرة).

ومع وفاة الأستاذين الشهيرين في النجف الشيخ موسى كاشف الغطاء، والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، اجتمعت الحوزة العلمية وطلابها على درس الشيخ مرتضى الأنصاري، باعتباره الأعلام بالإضافة إلى سائر صفاته العملية كزهده وتعففه.

ويظهر من بعض القصص أنه كان يراعي حال متوسط الطلاب والمحصلين في الدرس العام فلا يلقي ما يعسر فهمه أو يستعصي على الأكثر، ويخص بعض النابهين والمتقدمين بمزيد من الاهتمام، والرعاية الاستثنائية، كما نقلوا في تعامله مع الميرزا محمد حسن الشيرازي (الكبير) صاحب ثورة التباك.

بقي الشيخ الأنصاري يدرّس في النجف مدة من الزمان تصل إلى ما يقارب ثلاثة عقود ربّى خلالها المئات من أعظم مجتهدي الإمامية، كان منهم الميرزا محمد حسن الشيرازي والميرزا حبيب الله الرشتي، والميرزا محمد حسين النوري والميرزا محمد تقي الشيرازي والآغا رضا الهمداني والآخوند الملا كاظم الخراساني، وغيرهم. وكان من نتائج هذه الفترة عدد من الكتب العلمية العالية، في الفقه والأصول.

◀ سلمان زمانه في النجف:

لم يكن الشيخ الأنصاري بحر علم زاخرًا فحسب، وإن كان هذا عزيز المنال، وصعب التناول وإنما كان آية في الزهد والتعفف، يذكر بصفات الماضين من الأولياء الصالحين، فقد كانت الدنيا تُعرض عليه صباحا وعشية، وهو يُعرض عنها، وما نقل من قصصه وأموره يكاد يلامس عتبة العجب المعجز!

فقد ذكر مترجموه رضوان الله عليه، أنه بقي على حاله وفي منزله الذي سكن فيه، حتى بعد أن جاءت إليه المرجعية وأجمع

العام والخاص على تقليده وتفويض الزعامة إليه، فجاء إليه أحد التجار الإيرانيين من مقلديه، وقال له: إن لدي مالا شخصيا اكتسبته من الحلال وليس متعلقا للحقوق الشرعية، وقد أحببت أن أهديه لك حتى تهبى لك منزلا لائقا ومريحا، فأجابه الشيخ بأن منزله يكفيه، وأنه لا يحتاج إلى غيره، فأعاد التاجر عليه القول بأن شخصية الشيخ هي من شخصية المذهب وينبغي أن يكون في مكان لائق، وهذا المنزل الذي يسكنه لا يؤدي هذا الغرض، وما زال مصرّا عليه وملحّا حتى قبل الشيخ ذلك المال.

وبعد مرور سنة أو أكثر جاء هذا التاجر لزيارة مشهد أمير المؤمنين عليه السلام في النجف مرة أخرى وبعد انتهاء الزيارة كان لا بد أن يزور مرجع تقليده الشيخ الأنصاري، وفي ذهنه أنه لا بد أن الشيخ قد تحول إلى مكان آخر وبيت أفضل وأكثر رفاهية، فسأل عن منزل الشيخ فأرشدوه إلى البيت القديم السابق، ورأى الشيخ هناك.

وعندما سأل الشيخ عن البيت الجديد، قال له نعم لدينا بيت جديد، أفضل من هذا، ومع سؤاله أمر بعض المقربين منه أن يوصله إلى آخر منطقة (الحويش) في النجف حيث بني هناك مسجد جميل ومرتب (يعرف بمسجد التُّرك أو مسجد الشيخ الأنصاري)، فلما عاد سأل الشيخ عن ذلك، فأجابه الشيخ بسؤال:

أن تبني بيت الشيخ أفضل أو أن تبني بيت الله؟

لا ريب أن بيت الله أفضل، فبيت الشيخ غداً يذهب إلى الورثة

ويتنعمون به، بينما يبقى بيت الله عز وجل!!

وفي حادثة أخرى تنقل عنه تذكر بموقف أمير المؤمنين عليه السلام من أخيه عقيل! فإنهم يذكرون أن الشيخ الأنصاري بعد أن استقر به المقام في النجف، وصارت إليه المرجعية العامة، استقدم والدته من دزفول إلى النجف لا سيما وقد توفي أبوه، وكان يأتي إليها بعد الدرس عادة يطايبها ويذكر لها بعض القصص والقضايا، ويجلس معها قليلا، برا بها ثم يذهب لشأنه، وذات مرة قال لها: في صغري عندما كنت أدرس وكنتِ تطلبين مني أن أذهب لجلب أشياء البيت (من خضروات وما شابه) كنت أقول لك: اطلبي مني أي شيء بعد درسي، أما وقت الدرس فلا تطلبي مني شيئا، وكنتِ تقولين: بأنك لم تحلّفي ولدا!! الآن بعد أن وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه هل لا يزال رأيك بأنك لم تنجبي ولدا؟

فتبسمت وقالت نعم: ولكن لم يتغير عليّ شيء! (أي لم يظهر علي أثر التنعم من المرجعية هذه) فهذا أخوك (شيخ منصور) محتاج والأموال بين يديك فلا تساعده! وتقول أنا اعطيه سهمي من هذا المال، وما قدر ما يصنع سهمك في حاجته؟

فأجابها الشيخ بحنان: هذه مفاتيح المال الموجود لدي قومي وخذي منه ما تشائين ولكن اعلمي أن كل درهم فيه حساب وعتاب يوم القيامة! وأن عليك أن تقدمي حساباه بين يدي الله عز وجل!

ولو أردنا أن نتبع ما نقل عنه في هذا المجال لضاق بنا الأمر،

لكنه مشهور عنه ومعروف من سيرته. وهذا بالإضافة إلى غزارة علمه كان من الأمور التي دعت صاحب الجواهر أن يفوض إليه أمر الزعامة الدينية والعلمية في النجف عندما حضرته الوفاة ١٢٦٦ هـ. فكما نقلوا أن صاحب الجواهر بعدما مرض وأوشك على مغادرة الدنيا، كان الكثير يتوقع أن يشير بالزعامة العلمية والمرجعية الدينية إلى بعض تلامذته المقربين، ولم يكن الشيخ الأنصاري منهم فإنه قد استقل بالتدريس منذ وقت بعيد، وليس معدوداً من تلامذة صاحب الجواهر الملاصقين له والمرتبطين به.

فبينما كان أعيان تلامذة صاحب الجواهر في عيادته، والسؤال يعترض الكثيرين عمن سيكون خليفة الشيخ الجواهري في منبره وزعامته، سأل صاحب الجواهر عن الشيخ مرتضى؟ وحيث أنه لم يكن يتردد كثيراً في هذه الأجواء سألوا من: شيخ مرتضى؟ فعرفه لهم، وطلب منهم إخباره بأن يحضر.

ذهبوا وفتشوا عنه فوجدوه في حرم أمير المؤمنين عليه السلام يصلي صلاة الحاجة لشفاء الشيخ صاحب الجواهر! وطلبوا منه الحضور إلى بيت الشيخ، فأجاب ولما حضر قال له الشيخ: خفف احتياطاتك يا شيخ وأفت الناس!

وكان هذا بمثابة الإشارة إلى تقديم صاحب الجواهر له على من عداه، (والفضل يعرفه أهله).

وبالفعل فإن مقام المرجعية والافتاء يختلف عن مقام العمل

الشخصي، فقد يميل شخص لأسباب مختلفة إلى الاحتياط، وهذا أمر لا بأس به في حدوده الشخصية لكن إذا تصدى لإدارة حياة الناس من الناحية الدينية فإن إلزامهم بالاحتياط يؤدي إلى تعسر حياتهم.

11/ الميرزا الشيرازي الكبير محمد حسن (ت 1312 هـ)

«استعمال التنبك والتتن حرام بأي نحو كان، ومن استعمله كمن حارب الامام عجل الله فرجه». محمد حسن الحسيني الشيرازي فتوى من مرجعية عليا أسقطت مخططات بريطانيا العظمى - حينها - في السيطرة على اقتصاد إيران!

وكم فعلت نظيرات تلك الفتوى من نتائج؟ وأنتجت من فوائد؟ عادت بالنفع على العباد المسلمين وبلادهم.

نعم بعد أن باع بعض شاهات وملوك القاجار امتياز التبغ للشركة البريطانية، في مقابل «فتات أموال وذهب» يحصل عليه وسفريات لذة وهو يُمكن منها، وفي مقابل ذلك تتم السيطرة على كل تبغ إيران: محصولا، وزراعة، وبيعًا وتسويقًا، بحيث لا يعود للمزارع إلا أن يكدح ليل نهار لكي يقدم حصيلة عمله وعرقه لهذه الشركة، في مقابل دراهم منقوصة، لا تساوي شيئاً!

وقفت المرجعية العليا ممثلة حينها بالميرزا محمد حسن الشيرازي الكبير لتقول لا لهذه الاتفاقية الظالمة التي ترهن زراعة إيران في مقابل لا شيء!

نعم تقدم البريطانيون في سنة ١٣٠٨ هـ بمشروع اتفاقية مع

ناصر الدين شاه القاجاري، يقضي بأن يكون محصول التبغ في إيران بكامله محتكراً في بيعه وشرائه للشركات البريطانية على أن تتولى تلك الشركة بيعه وتصديره لمدة خمسين سنة!. وكان التبغ آنئذ هو المحصول الزراعي الأساسي في اقتصاد البلد. وفي مقابل ذلك يضمن البريطانيون لناصر الدين شاه مبلغ (١٥ ألف ليرة ذهبية في السنة)! وهذا يعني (١٢٥٠) ليرة في الشهر. الأمر الذي يستطيع بعض التجار إعطائه كما ذكر له التجار ذلك!

وقد سعى الميرزا بالحسنى في أول الأمر إلى نصيحة ناصر الدين شاه لإلغاء الاتفاقية وعدم الاستمرار فيها، لما توجه من ضرر عاجل على المنتجين والتجار المحليين، وتهديد مستقبلي خطر لاستقلال إيران، غير أن الشاه الذي كثرت زيارته لبريطانيا، ومصارفه الشخصية وكان يحتاج إلى سيولة نقدية بيده، لم يلتفت إلى تلك النصائح، ولا إلى مطالبات التجار الذين شكلوا وفداً قابله طالباً منه إلغائها لأضرارها الكبيرة عليهم، فاضطر الميرزا عندئذ إلى التحرك من خلال الفتوى الدينية، وأصدر فتواه المعروفة بتحريم استعمال التبغ، وأنه على حد إعلان الحرب مع صاحب الزمان عجل الله فرجه وكان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

استعمال التباك والتتن حرام^(١) بأي نحو كان، ومن استعمله

(١) للفقهاء الجامع للشرائط مقامات متعددة، منها الإفتاء وبيان الحكم في المواضيع العامة، وهو مقام المفتي، وله أيضاً مقام الولاية، فقد يقوم بتحريم

كمن حارب الامام عجل الله فرجه. محمد حسن الحسيني الشيرازي.
 أعقب هذا التحريم الذي وصلت نسخه إلى إيران، وقام
 المؤمنون بتكثير نسخه وإيصالها إلى كل المناطق، التزام تام بالامتناع
 عن أي نحو من أنحاء الاستعمال للتبناك والتتن، حتى لقد وصل
 التحريم والمنع إلى قصر ناصر الدين شاه نفسه، فرفضت زوجاته
 وخدمه إعداد (الأرجيلة) له، نظرا لأن (الميرزا) قد حرمه!

وكان من الطبيعي مع هذه المقاطعة الشعبية الشاملة أن يضطر
 الشاه إلى فسخ الاتفاقية وأن ترحل الشركة البريطانية.

ولذلك من الطبيعي أيضا أننا نجد أن الجهات الاستعمارية -
 بالمباشرة أو عبر وكلائها - تظل على حالة العداء مع المرجعية الدينية
 الشيعية.

نعم هكذا كان الميرزا الشيرازي الكبير، الذي جاء من أصفهان
 إلى النجف وهو مجتهد فقيه، ليحضر أولا في درس صاحب الجواهر
 النجفي، ثم في درس الشيخ الأنصاري.

ولما عرف الشيخ الأعظم الأنصاري ملكات وقدرات السيد
 الشيرازي الكبير، اختصه واهتم به اهتماما بالغاً، وينقل أن الميرزا كان
 قليل الكلام في الدرس، مع ما هو عليه من الفضل، وكان خفيض

شيء من الأشياء لفترة زمنية أو في مكان محدد أو على أشخاص معينين
 والفتوى المذكورة هي من النوع الثاني، ولذلك فإنه ما أن انتهت ظروفها
 الموضوعية، حتى انتهى حكم التحريم.

الصوت، فإذا استشكل أو اعترض على الشيخ الأنصاري بدليل، انحنى الشيخ الأنصاري إليه، مشيراً إلى باقي الطلبة: إن جناب الميرزا يتكلم! ثم يشرع في تقرير إشكاله أو دليله ويحيب عليه!.

وظل هكذا يصعد في سماء العلم، حتى إذا توفي الشيخ الأنصاري سنة ١٢٨١ هـ، اجتمع أركان درسه وثقاته ليقرروا أن المتعين للتدريس والمرجعية بعد الأستاذ هو الميرزا محمد حسن الشيرازي! والذي ردهم بأنه لم يتهياً لهذا الموقع حتى أنه لم يكتب تعليقة أو حاشية على رسالة عملية!

وقد أصر عليه هؤلاء بأن المرجعية لا تحتاج إلى مجرد حاشية على رسالة عملية، وإنما هي قبل كل ذلك قيادة للأمة وإدارة للطائفة تحتاج إلى حكمة، وعلم وهما متوفران بأحسن الدرجات في الميرزا.

◀ الهجرة إلى سامراء:

بعد عشر سنوات من تسنمه سدة المرجعية العامة، وكرسي التدريس الأول في النجف الأشرف، قرر الميرزا الشيرازي أن يهاجر إلى سامراء وأن يستقر فيها لبرهة من الزمن، وقد أخفى قراره هذا الذي كان خارج دائرة التوقعات، فإن من كان خارج النجف الأشرف في سائر مناطق الحوزات العلمية يبذل الغالي والنفيس للوصول إلى النجف والاستقرار فيها لما لها من الصيت والسمعة في جوها العلمي والأدي. فكيف يغادر رأس الحوزة النجف؟ ولا ريب أن قراراً من هذا القبيل سوف يثير الكثير من التساؤلات بعده بل المعارضة قبل حدوثه فعلاً، لذلك بقي طي الكتمان إلى أن سافر

الميرزا بالفعل إلى كربلاء لزيارة النصف من شعبان سنة ١٢٩١ هـ، ثم عطف على سامراء لزيارة الإمامين العسكريين ظاهرا، وللبقاء فيها واقعا، وهناك أخبر المقرين من تلامذته عن عزمه وقراره!!

وقد ذكرت إجابات كثيرة في سبب ذهابه واستقراره في سامراء، ونعتقد وفقاً لما ذهب إليه محقق كتاب تفريراته، السيد علي بحر العلوم أن «مقصده من هجرته وحدة المسلمين، وبث روح التآلف بين السنة والشيعية، وإماتة العصبيات والنعرات الطائفية والتي كانت مشتعلة - حينها - في العراق بسبب الحكم العثماني والذي كان يترنح هنا وهناك بسبب غزو الإنكليز على المنطقة، ومحاولة إخراج النفوذ العثماني المنهار منها. وحيث أن غالبية سكان مدينة سامراء من عشائر السنة، فكانت الأقلية الشيعية فيها تعاني من البعض التعدي والإيذاء وخاصة من جهلة الناس، وأوباش المواطنين، وكذلك الزوار الشيعة الذين كانوا يقصدون سامراء لزيارة مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام فكانوا يقابلون من بعض الأفراد بما لا يليق بروح الأخوة الإسلامية، والتعاطف الوطني، مما سبب انكفاء من الزوار لحرم الإمامين، حفاظا على أرواحهم وأعراضهم. وكان تخطيط مركز من السيد الشيرازي حين شد الرجال، وحط موكبه في سامراء، والتف الشيعة من حوله، وكثر التردد من المسافرين عليها من شتى الأقطار الإسلامية، وخفت تلك الوحشة التي كانت تلف المدينة من قبل»^(١).

(١) بحر العلوم؛ السيد محمد علي، مقدمة تقارير آية الله المجدد الشيرازي: للمولى علي الروزدي ٢٩٠١.

كان من نتيجة بقاء الميرزا في سامراء، أن عمر مشهد العسكريين بالزوار والقادمين، وأن تحولت سامراء من بلدة صغيرة بيوتها من طين إلى مدينة عامرة، وأصبح الطريق إليها آمناً سالكا بعد أن كان مخوفاً يكثر فيه اللصوص وقطاع الطرق!

ومع مجيء تلامذة الميرزا وانتقالهم من النجف الأشرف إليها، تحولت بالتدريج إلى حوزة علمية مهمة، حتى صارت ذات مدرسة علمية لها خصائصها التي تميزها عن غيرها.

◀ بحر علم وتربية:

وإذا كان الميرزا الشيرازي، بما قام به قد ضمن استقلال إيران، ووقف أمام محاولات ناصر الدين شاه في بيع البلد للبريطانيين، فإن دوره لم يقتصر على ذلك وإن جل وعظم! وإنما كان له دور علمي متميز، بحيث أننا نجد أن أكثر الأسماء اللامعة في سماء الحوزة العلمية وتاريخها الحديث هم من تلامذة درسه، وحضار بحوثه، ولكل منهم دور كبير، وإذا كان بعض كتاب سيرته قد ذكر أسماء أكثر من ٢٧٠ عالماً وفقهياً تخرجوا على يده، فإنه يكفي للنظر في دوره العلمي، تتبع أسماء عدد من تلامذته، مثل: الميرزا حبيب الله الرشتي صاحب كتاب بدائع الأفكار، والشيخ آقا رضا الهمداني صاحب مصباح الفقيه، والميرزا حسين النوري الذي يوصف بأنه خاتمة المحدثين، والشيخ محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين، والسيد حسن الصدر والشيخ الآخوند محمد كاظم الخراساني، صاحب كفاية الأصول،

والسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي صاحب العروة الوثقى،
والشيخ الميرزا حسين النائيني استاذ الفقهاء، والشهيد الشيخ فضل
الله النوري، والسيد حسين القمي. وغيرهم.

12/ السيد أبو الحسن الاصفهاني (ت 1365 هـ)

اجتمعت ظروف متنوعة لتجعل من مرجعية السيد الاصفهاني
مرجعية فاعلة، ومؤثرة على مستوى الطائفة الشيعية بل الأمة
الاسلامية.

فمن الناحية التاريخية عاصر السيد أبو الحسن فترة حساسة
هي فترة مقاومة الاستعمار البريطاني للعراق، والثورة عليه وشهد
جيل الكبار من مراجع الدين أمثال الميرزا محمد تقي الشيرازي،
والآخوند الخراساني، والسيد اليزدي. وكان من معاصريه وزملائه
أمثال الميرزا النائيني والشيخ الاصفهاني والشيخ ضياء العراقي.

ومع رحيل جيل الأساتذة الكبار برزت شخصية السيد أبي
الحسن كمرجع توافق عليه أقرانه، بعد أن أرجع إليه الميرزا محمد
تقي الشيرازي -الذي كان كثير الاحتياط- احتياطاته إليه^(١)، ولعلنا
نجد إشارة في ذلك إلى فهمه الاجتماعي في تقليل الاحتياطات
وأخذ جانب التيسير في الفقه.

ولا نجد غير القليل من المراجع الذين ناصر معاصروهم
وأندادهم مرجعيتهم، ورفضوا أن ينافسوه، وأصرروا على الغير بأن

(١) هكذا عرفتهم. ١٠١، جعفر الخليلي.

يرجعوا إليهم، ومن هذا القليل كان السيد أبو الحسن الاصفهاني، فقد أشار السيد البروجردي وهو من أعظم الطائفة ووصلت إليه المرجعية بعد السيد الاصفهاني، وكان في طبقته من حيث الأساتذة إلا أنه لما طلب منه بعضهم التصدي للمرجعية، وأن ينشر رسالته العملية رفض ذلك مشيراً إلى أن لواء الإسلام اليوم بيد السيد أبي الحسن الاصفهاني وأنه هو المرجع على الاطلاق^(١). وهكذا كان موقف الآقا ضياء العراقي.

1) مرجعية الوعي السياسي والدعوة للاستقلال:

يشكل الوعي السياسي أهمية كبرى في حياة العاملين، وهو أكثر أهمية في حياة القادة والزعماء، فإنه يصون الأمة من الوقوع في حبال الأعداء المخططين، وهكذا فإن (العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوالبس) كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.

وكانت الطائفة ولا تزال تحتاج إلى قيادات واعية سياسياً، ولقد كان حضور السيد أبي الحسن في وقته كمرجع واع وذكي، سبباً مباشراً في إفشال محاولات كثيرة بذلها البريطانيون وغيرهم في تشويه صورة الزعامة الشيعية، وسرقة ثورة المؤمنين.

◀ لقاء السفير البريطاني مع السيد أبي الحسن:

نقلوا: إن الحاج عبد الهادي الاسترابادي مندوب نوري السعيد رئيس وزراء العراق في وقته، جاء وقال إن رئيس الوزراء

(١) مجلة حوزة عدد ٦٣-٦٤.

يريد منكم مقابلة السفير البريطاني ومندوب بريطانيا الخاص القادم من لندن. وأن يكون اللقاء سرّياً ومغلقاً.

فرفض السيد أصل اللقاء في البداية، وبعد المفاوضة قبل به شرط أن لا يكون سرّياً. وفي الترتيب لذلك اللقاء أمر أن يحضر العلماء: الشيخ ضياء العراقي، والشيخ محمد حسين الاصفهاني والشيخ محمد كاظم الشيرازي وغيرهم من كبار أئمة الحوزة.

وقدم السفير البريطاني ومندوب بريطانيا ومعهم رئيس وزراء العراق نوري السعيد، وبعد أن قدموا التحيات للسيد، قالوا: إن بريطانيا قد (نذرت)! أنها إن غلبت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فسوف تقدم مساعدات مالية للمعابد وعلماء الدين في العالم،! والآن حيث أنها انتصرت عليها فقد قدمت للبابا في الفاتيكان المنحة المالية المذكورة، وجئنا إليكم في النجف لنقدم لكم المنحة المنذورة!

وبعد أن تأمل السيد في عرضهم: قال لهم: لا مانع! وسط ذهول الحاضرين الذين لم يتعودوا أن يقبل مرجع شيعي المال من أمثال البريطانيين!.

السفير البريطاني قدم شيكاً بمبلغ مائة ألف دينار عراقي! فأخذ السيد ونظر فيه وأمر بكتابة حوالة قدرها مئة ألف دينار، قدمها مع الشيك للمندوب البريطاني قائلاً: هذه مائتا ألف دينار مساعدة منا إلى أهالي الجنود المسلمين الذين جندتهم بريطانيا من

بلاد الهند وقتلوا في العراق، نرجو أن تصرفوها عليهم في الهند!

وفي القصة من الوضوح ما يغني عن التعليق عليها.

◀ مع ملك الأردن والمطالبة بالاستقلال:

إن حس الاستقلال لدى السيد، واعتقاده بأن نجاة الأمة لا تتم إلا من خلاله، جعله يصر على ملك الأردن أن يترك الاعتماد على الأجانب واعداء إياه بأنه سيؤمن له مصاريفه وحاجته لو استقل عنهم!

(نقل الشيخ محمد حسن زين العابدين عن السيد باقر الذي كان يعمل في تشريفات البلاط الملكي في العراق أيام الملك فيصل الثاني الحادثة التالية، قال: لما ورد الملك عبد الله من الأردن وحل ضيفاً على الملك فيصل في بغداد، رُتبت له زيارة إلى حرم الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام وكان من العادة أن يتم لقاء الضيوف والوفود مع مراجع الدين في الحرم الشريف أيضاً: المرجع الاعلى في ذلك الوقت كان السيد ابو الحسن الاصفهاني بينما آية الله العظمى الشيخ النائيني كان متصدياً للجانب العلمي والدراسي في حوزة النجف الاشرف خرجت مع الملك عبد الله في سيارة التشريفات الخاصة، ومعنا الحرس واعضاء الوفد المرافق.

وكان الموكب مهيباً للغاية وكان الملك من شدة تبختره لا يسعه ثوبه الملكي المزين بالجواهر والنياط، كان يتكلم بتكبر، ولا يرى قيمة لاحد من الجالسين حوله. فقلت في نفسي كيف سيكون لقاء

مثل هذا الانسان مع مرجع المسلمين الشيعة، اخشى أن يحصل ما لا يسر، فتوسلت بكل قلبي الى الله عز وجل بالإمام علي عليه السلام ان يريه عظمة المرجعية عندنا، فكنت احاول في الطريق أن أمهد لهذا اللقاء بالكلام حول شخصية السيد أبي الحسن الاصفهاني ومكانته العلمية والدينية في العالم الإسلامي وانقياد المسلمين الشيعة إلى أوامره، وان النجف الاشرف مدينة العلم والعلماء ومركز الإشعاع الديني.

فقال لي الملك وهو لم يعر بالاً لكلامي: أنت شيعي والشيعة يغالون في مدح علمائهم. قلت: من أين لك هذا الانطباع الخاطيء عن الشيعة؟ قال: أنا صديق للدولة العظمى انجلترا وقد اخبرني الانجليز عنكم كثيراً.

اضاف الوزير السيد باقر قائلاً: اخذ الملك عبد الله يتكلم باستهزاء وفي نفس الوقت يذكر حكومة بريطانيا باحترام وعظمة، حتى وجدته يشعر بالحقارة امام الانجليز فاستغربت لهذا الملك المتذلل للكافرين والمستكبر على المسلمين!

وبينما كان موكبنا يقترب من النجف الاشرف زاد خوفي مما سيجري بينه وبين السيد الاصفهاني كنت متحيراً ماذا سيحدث بعد قليل؟ فوضت امري الى الله وخاطبت الامام علياً عليه السلام في قلبي أن يحفظ ماء وجهي ويحافظ على عزتنا أمام هذا الملك المتبختر.

ومن اجل احترام طرفي اللقاء كانت طريقة دخولهما تتم

عبر باين منفصلين يفتحان على الضريح الشريف من جهتين متقابلتين، فيلتقي الطرفان عند الضريح في وقت واحد. وأخيراً التقى الطرفان، بل التقى المتباينان، إذ كانت هيئة المرجع الديني الكبير السيد أبي الحسن الاصفهاني هيئة الزهاد، وهيئة الملك المتكبر هيئة المتجبرين!

بعد العناق والتحيات وكلمات جانبية وجه السيد السؤال التالي إلى الملك: من أين تؤمن الموارد المالية للأردن؟ كان السؤال بالنسبة للملك محرجاً، وغير متوقع فأجابه قائلاً: نحن دول صغيرة، لا بد لتأمين وضعنا سياسياً واقتصادياً أن نعتمد على الدول العظمى ولقد تكفلت بريطانيا بتزويدنا المياه الصالحة للشرب وتأسيس محطة للكهرباء، ونحن لها من الشاكرين الاوفياء! واستمر الملك يمجّد الانجليز ويصفهم بانهم عقول مفتحة ومتطورة.

فرد عليه السيد ابو الحسن الاصفهاني: أليس من المؤسف أن نمد نحن المسلمين أيدينا إلى المشركين؟ في اعتقادنا أن هذه ذلة واهانة، أنني مستعد أن أمدكم بالمال قدر ما تحتاجون لتعتمدوا على أنفسكم وتستغنوا عن الدعم البريطاني المقترن بالاستعباد.

بهذا الكلام اضحى الملك صغيراً بين يدي السيد، فانكمش واعتدل في مجلسه بعد تلك الغطرسة والتكبر، إذ وجد نفسه أمام رجل ذي يد بيضاء لمصالح المسلمين وذو وعي سياسي لا يستهان، ينظر إلى أفق بعيد.

ثم انتهى اللقاء بتوديع الملك ودعاء السيد الاصفهاني لعزة الإسلام والمسلمين وشكرت الله تعالى على توفيقه هذا المرجع الجليل لاتخاذ هذا الموقف المشرف وفي طريق العودة الى بغداد، قال لي الملك عبد الله وكان غارقاً في التفكير: يا سيد باقر كل ما ذكرته لي عن عظمة هذا السيد كان قليلاً أنه في اعتقادي اعظم مما ذكرته»^(١).

(2) مرجعية التنوير وأفكار النهضة:

من مشاكل نهضة الأمة بالإضافة إلى الاستعمار الأجنبي انتشار أفكار الخرافة فيها، والجهل بالفكر الإسلامي الأصيل. وحينئذ ترى هذا الدين الذي جاء لإحياء الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور يتحول بواسطة المزورين والمزيفين إلى قيد من قيود النهضة، ووسيلة من وسائل الأسر.

ومن هنا ينظر إلى السيد أبي الحسن الاصفهاني نظر إكبار واحترام، لمواجهته تلك العادات والحالات، وهو وإن كان ذا دراية اجتماعية عالية وفهم متميز في هذا الجانب بحيث كان يعالج الأمور بما عرف عنه من حكمة اجتماعية إلا أن موقفه فيها موقف صارم.

◀ تخريب مقام مزيف للحسين.

فقد نقل الشيخ عبد العظيم المهدي في كتابه «قصص وخواطر من أخلاقيات علماء الدين»: عن السيد حسين السبزواري، الذي ينقل عن والده المرحوم المرجع الديني السيد عبد الأعلى السبزواري

(١) المهدي البحراني: قصص وخواطر ٤٥٥ عن حفيد السيد الاصفهاني.

تلميذ السيد الاصفهاني: أن أستاذة ذهب ذات يوم بصورة متكرة إلى أحد الأرياف العراقية، فرأى شخصاً هناك يدعو الناس إلى التبرع إلى مقام الامام الحسين، وإعطاء النذورات لأجله!

ففكر السيد في نفسه بأنه لا يعلم بوجود مقام للحسين في هذه القرية! جاء لذلك الرجل قائلاً: هل هذا مقام الإمام الحسين؟ قال: نعم!

فقال السيد: كيف؟

فقال: عندما سار الحسين إلى كربلاء، مر من هذا القرية وصلى فيها ركعتين! قال السيد له: من أخبرك بهذا؟ فقال: هذا كلام العالم الاصفهاني (يقصد السيد أبا الحسن الاصفهاني) ولم يعرف أن الذي يسمعه هو نفس السيد! فقال له السيد: هذا الكلام غير صحيح!

فقال الرجل: اسكت لا يسمعك أحد فيوصل الكلام لآية الله الاصفهاني!

آنئذ تركه السيد وعاد للنجف وأرسل لذلك الرجل أن يأتيه. فجاء وعرف أن صاحبه السابق هو نفسه السيد الاصفهاني، فخجل واعتذر منه.

فقال له السيد: هدّم هذا المقام الخيالي، واذهب إلى عمل محلل يوفر لك ماء وجهك. ثم أعطاه مبلغاً من المال.

(3) مرجعية التبليغ والوكلاء المؤثرين:

ربما يمكن القول إن القوة التي أصبحت تتمتع بها المرجعية

ونفوذها بين الناس يرجع إلى قيام المراجع بتجسير العلاقة بينهم وبين المقلدين حتى في الأماكن البعيدة وتفقدتهم أحوالهم الدينية، ومساعدتهم على القضاء على الشبهات المعرفية والعقدية.

وفي هذا الإطار يعرف عن مرجعية السيد أبي الحسن الاصفهاني أنه كان كثير التعاهد للمناطق التي تحتاج إلى الوكلاء، برفدها بممثلين صالحين عن المرجعية، لكي يبقوا فيها فترات طويلة أو للقيام بمهمة الخطابة والتبليغ.

◀ الشيخ بهلول والخطابة

وكان يستخدم نفوذه في توجيه الخطباء الصالحين لمناطق الحاجة. فإنه لما رأى القدرة الخطابية الجيدة لدى الخطيب المعروف الشيخ بهلول، وكان قد رجع إلى سبزوار، فطلبت منه أمه أن يذهب بها إلى كربلاء، وجاء هذا زائراً للسيد الاصفهاني، الذي سأله ماذا تريد أن تصنع؟ فقال: أريد أن أواصل دراستي حتى أصبح مجتهداً! فقال له الاصفهاني: درستك في مثل هذه الأوضاع حرام، فإن لدينا عدداً كبيراً من المجتهدين وقلة واضحة في الخطباء. الصحيح أن تذهب إلى إيران وتبين للناس بالخطابة أخطاء الشاه السياسية. وفعلاً فقد أطاع الشيخ البهلول وخطب في (مسجد الشاه) مبيناً الانحرافات الموجودة لدى الحكومة القائمة^(١).

◀ والشيخ القائم في عبادان:

وعندما يرى أن أفكار (أحمد كسروي) المناوئة للحالة الدينية

(١) باختصار وتصرف من الموقع الإلكتروني www.gonabadnews.com

قد انتشرت في عبادان، فإنه يكلف الشيخ عبد الرسول القائي وهو من الخطباء المتميزين بالبقاء فيها، بالرغم من أنه كان يحب متابعة الدراسة وأن جو عبادان لا يناسبه كثيراً.

فقد نقل الشيخ الرازي في (كنجينه دانشمندان) أن الشيخ القائي قد حج سنة ١٣٦٤ وعاد إلى إيران عن طريق الكويت فعبادان، ولما رأى وجود أتباع لأحمد كسروي في تلك المنطقة ولهم صولة وجولة، قرر أن يلقي سلسلة محاضرات في رد أفكارهم، وحازت تلك المحاضرات على إعجاب الجمهور فكتب المتدينون للسيد الاصفهاني أن الذي يستطيع مواجهة تلك الأفكار الخاطئة هو الشيخ القائي.

الشيخ القائي الذي يبدو أنه لم يكن راغباً في البقاء سافر إلى اصفهان، فكتب إليه أنه يلزم عليك أن تقيم في عبادان وأن تواجه المضلين هناك. وعندما اعتذر الشيخ القائي بأنه يريد أن يواصل دراسته، أجابه السيد أبو الحسن في رسالة ثانية: إلى أن تتم استعداداتك في التسلح (بالعلم والدراسة) تكون المعركة ضد الدين قد انتهت! يلزم أن تذهب إلى عبادان^(١)!

◀ والشيخ البشير في كركوك:

وعندما علم أن كركوك يوجد فيها الكثير من الشيعة، وقد أصبحت عقائدهم خليطة بالغلو والتصوف الخاطيء، حتى ابتعدوا

(١) گنجینه دانشمندان: ١٧. ٣.

بذلك عن طريق أهل البيت عليهم السلام، فلما خفت وطأة الأتراك عن تلك المنطقة أرسل إليهم المبلغين والدعاة الذين يوجهونهم إلى أحكام الدين، وعقائد الحق.

وبمقدار ما كان مهتما بتصحيح أصول العقيدة، وأحكام الدين فقد كان بعيدا عن الانشغال بالقشور والجزئيات، فقد نقل صاحب كتاب (هكذا عرفتهم) عن الشيخ عبد الحسين البشيري بأنه قال: بعدما أعاد قسما غير قليل من المغالين في تلك المناطق عن أفكارهم إلى حظيرة الحق، قال: لم يبق لدي شيء بعد أن غيرت تلك الطائفة عقائدها وطقوسها إلا أن أحملها على إكرام شواربها (وكانوا يقدسون الشوارب ويتعهدونها!) فقلت: (قال: البشيري) سأنتهز من زيارة الأربعين حيث يفد الزوار إلى كربلاء والنجف فرصة، لأعرض عليه الفكرة وأطلب منه أن يشير على من يزوره من تلك الطائفة إشارة خفيفة برغبته في إكرام الشارب، وتخفيفه على الأقل وأنا الضمين بأنهم سيفعلون ذلك عن طيبة خاطر إذا أحسوا برغبة السيد أبي الحسن.

وحين ذكرت السيد أبا الحسن بذلك انتفض السيد وقال: ما لك وهذه القشور ولم لا تترك الناس على سجيّتهم^(١)!

(4) مرجعية الحضور الاجتماعي:

الذي ينظر إلى مرجعية السيد الاصفهاني يرى الوضع

(١) هكذا عرفتهم ١٠٧.١.

الاجتماعي والاهتمام بشؤون المجتمع أمراً حاضراً لديه، فهو حين يرى وضع طلاب العلم حرجاً يقوم بالإنفاق بسخاء على هذه الفئة المتفرغة للدراسة الدينية، فقد ذكروا أنه كان يؤمن نفقات البيوت المستأجرة لطلاب العلم والتي كانت بحدود مائتي (٢٠٠) بيت ليتفرغ الطلاب للتعلم والدراسة بعيداً عن هم الديون. ولو أردنا تحويلها لهذا الزمان لكان علينا أن نحسب أن تكاليف الايجار وحدها تتجاوز السبعين ألف دولار شهرياً.

هذا فضلاً عن رواتب أهل العلم التي وصلت كما قال بعضهم إلى (٢٠٠٠٠) عشرين ألف^(١) وهو مبلغ لم يتيسر لمن كان قبله كما قال صاحب أعيان الشيعة.

وأما على المستوى الاجتماعي العام، فإنه بعد أن شحت الأرزاق على اثر الحرب، وقام بعض التجار الجشعين باستغلال هذا الظرف الضاغط، لكي يزدوا من ارباحهم غير مبالين بحالة الناس العامة، قام بتشجيع عدد من التجار الأخيار لتأسيس تعاونيات تجارية وخصوصاً في إيران تقوم بجمع الحبوب واحتياجات الناس العامة، وجعلها في مخازن لتوزيعها في السوق بنحو عادل يفسد على المحتكرين تخطيطهم في إغلاء الاسعار.

(١) إن هذا المبلغ يعتبر بمقاييس تلك الفترة كثيراً جداً بملاحظة: أن رئيس الشرطة في بلدة العباسيات كان راتبه ١٤ دينار. كما يظهر من قصة السيد معه. وهذا يبين مقدار المصرف المذكور من السيد. وأن قيمة تأجير البيت كانت بحدود ٥ دينار. فإن المبلغ المذكور يعني راتب قرابة ١٥٠٠ شخص من هذه المرتبة. أو مقدار تأجير ٤٠٠ منزل!.

كما سعى في تأمين حاجات المؤمنين في عدد من مجتمعاتهم، فقد ذكروا أنه كان يأمر بارسال (٦١) طنًا من القمح لتغطية حاجات المحتاجين في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء^(١).

بل كان يعطي للخبازين مبالغ مالية لكي يعطوا للفقراء من أهل العلم وعامة الناس الخبر مجاناً.

(5) مرجعية الحكمة الادارية:

أن تكون عالماً أو مرجعاً دينياً لا يعني بالضرورة أن تنجح في معالجة الأزمات الاجتماعية، وذلك أن العلم ينتمي إلى جانب العقل النظري بينما الحكمة في المعالجة تنتمي إلى العقل العملي، ولهذا ربما وجدنا شخصاً في أعلى الدرجات العلمية لكنه من الناحية العملية والادارية لا يمتلك نفس القدرة.

وقد اجتمع للسيد أبي الحسن الاصفهاني كلا القدرتين، بل ربما كان الجانب الثاني أظهر في مرجعيته.

إن الحكمة وإتيان الأمور من مداخلها الطبيعية، والذكاء الاجتماعي لهي من الصفات الأساسية التي يحتاج إليها المرجع لمعالجة الأمور. فإن الحقل الاجتماعي يختلف عن الشركة، كما يختلف عن المعسكر. وما يجري فيهما من طرق وأساليب قد لا ينفع في الحالة الاجتماعية.

إن توظيف المال في حل المشاكل قد لا يكون مقبولا أو معقولا

(١) ديدار بابار: شهادة ٥٦ صفحہ: ٥٧.

في المعسكر، لكنه يعد ممارسة ذكية في المجتمع. ف (خير المال ما صين به العرض) و (خير المال ما أكسب ثناء وشكرا) (وأفضل المال ما استُرِقَّ به الأحرار) كما في روايات أمير المؤمنين عليه السلام.

ولقد وجدنا هذه الجهة واضحة في مرجعية السيد الاصفهاني، ونذكر بعض ما نقله معاصروه ومؤرخو حياته.

◀ رئيس الشرطة عندما يتغير:

فقد نقل حفيده السيد عبد الحميد عن السيد محمد حسين مير سجادي، ما يلي: أن رئيس شرطة العباسية كان من غير الشيعة، وغير ملتزم بالصلاة وشارب للخمر وكان يخضع من سواه لسلطته وكأنه رئيس الدولة. وكان شديد القسوة على الناس عموما والشيعة خصوصا.

يقول: فلما زرت النجف ذكرت الأمر للسيد أبي الحسن فقال لي: إذا رجعت للعباسية فقل لرئيس الشرطة إن السيد يسلم عليك ويطلب حضورك عنده!

خشيت (يقول مير سجادي مخاطبا السيد الاصفهاني) أنه لو علم بأني اشتكيت حالنا عندكم فسوف يزداد ظلما وعنادا.

قال السيد: سوف لا يعلم بأنك أخبرتني عن حاله معكم!

يقول: بعد رجوعي ذهبت لرئيس الشرطة وأخبرته، أن السيد يسلم عليك ويريد أن يتعرف عليك، فقال: لا علاقة لي به ومالي وللدين وعلمائه ومراجعكم؟ ثم تأمل قليلا وقبل، وقال: نذهب معا إلى النجف.

ذهبنا وعلمته بعض المراسم المرتبطة بزيارة الامام علي، ثم ذهبنا إلى بيت المرجع الكبير الاصفهاني، وقلت له: إن من آدابنا نحن الشيعة أن نقبل يد مراجعنا إجلالا واحتراما.

دخلنا على السيد الذي استقبلنا بحفاوة، ورحب به كأنه يعرفه منذ زمن. وجلست بعيدا عنهما وأنا في قلق من رد فعل رئيس الشرطة، عندما قال له السيد: إن الناس في العباسيات مسلمون وأنا سمعت أنك رئيس الشرطة هناك. فقال: نعم! فقال السيد: كم تعطيك الحكومة؟ قال: تعطيني أربعة عشر دينارا.

فقال السيد: عجيب: أنت رئيس شرطة ولك مصاريف كثيرة بحكم مكانتك بين الناس أظن هذا الراتب لا يفي بجميع احتياجاتك.

قال: نعم إنه قليل، ولكن لا بد من القناعة!

قال السيد: إن لدي في الحلة وكيلا يجمع الحقوق لي، وسوف أكتب لك رسالة إليه ليعطيك من تلك الأموال أربعة عشر دينارا كل شهر وهذا سر بيني وبينك ولا تطلع عليه أحدا.

وفرح رئيس الشرطة وهو يتصاغر بين يدي السيد، فأضاف السيد قائلا: تعلم أن هناك فرق بين المال الذي تستلمه من الحكومة والمال الذي تستلمه مني، المال الذي تستلمه مني حلال لا يعطى إلا للمصلين، أما المال الذي تأخذه من الحكومة فهو خليط بالحرام ولعله حرام كله.

وقبل أن يخرج، ناداه السيد عند الباب وهمس في أذنه: لا تنس أن تواظب على صلاتك في أوقاتها لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتسعدك في الدنيا والآخرة!

وبعد عودته إلى بلده طلب من مرافقه المير سجادي أن يعلمه ويعلم عائلته الأحكام الشرعية وحسن سلوكه مع الناس، ولم يعد إلى الظلم والفساد^(١).

وربما يتردد البعض في إنفاق المال في هذه الجهات، لكن لا ريب أن دفع الضرر عن المؤمنين وهداية شخص مع عائلته إلى الصراط المستقيم، تستحق إنفاق هذا المبلغ.

13/ الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت 1390 هـ)

مشاركة السيد محسن الطباطبائي الحكيم في مقاومة القوات البريطانية المحتلة للعراق، مع مئات من طلاب العلم وأبناء العشائر تحت قيادة السيد محمد سعيد الحبوبى رحمته الله، لم تمنعه من الدراسة الجادة في حلقات العلم في النجف الأشرف، ولم تؤثر على توجهه العلمي تماماً، مثلما كان الوضع المادي الصعب الذي كانت تعيشه أسرته، والذي كان يجرمه الكثير من الضروريات فضلاً عن الكماليات، فبالرغم من ذا وذاك، إلا أنه عكف على الدرس والبحث اعتكاف العاشق، حتى وصل إلى المدارج العلمية التي تؤهله لحضور بحوث الخارج الكبرى التي شهدتها الحوزة العلمية

(١) قصص وخواطر ص ١٠٢ باختصار

في النجف، فقد حضر - ولو لبرهة من الزمان - بحث السيد محمد كاظم اليزدي صاحب العروة الوثقى، هذا في الفقه، وأما في الأصول فقد حضر في بحث أستاذ الأصول الأول الآخوند الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب كفاية الأصول..

كما حضر على جيل الأساتذة بعدهما: الميرزا محمد حسين النائيني، والشيخ محمد حسين الاصفهاني والشيخ ضياء الدين العراقي، واختص بالأخير اختصاصا كبيرا وتأثر به بشكل واضح في مبانية الأصولية وآرائه الفقهية.

وبوفاة المرجعين الكبيرين السابقين على مرجعيته؛ السيد أبي الحسن الإصفهاني (ت ١٣٦٥ هـ)، والسيد حسين البروجردي (١٣٨٠ هـ)، اجتمع الشيعة على مرجعية السيد محسن الطباطبائي الحكيم، واستمرت مرجعيته العليا إلى وفاته سنة (١٣٩٠ هـ).

وصفه من ترجم حياته بأعلى صفات التكريم والتبجيل، فقد قال عنه الشيخ محمد هادي الأميني في كتابه معجم رجال الفكر والأدب في النجف بقوله: «فقيه العصر، وسيد الطائفة، وزعيم الأمة، كبير مراجع التقليد والفتيا، ومجدد الفقه الجعفري في القرن الرابع عشر الهجري، كانت له الزعامة الدينية العامة والمرجعية الروحية المطلقة، والرئاسة العلمية، قام بمشاريع ومآثر خالدة، وتصدى للتدريس والتأليف والإمامة، وجاهد في الله حق جهاده، ولم تأخذه في الله لومة لائم، ازدهرت الحوزة النجفية، ونشطت الحركة الفكرية على عهده».^(١)

◀ مستمسك العروة الوثقى:

يعتبر كتاب السيد الحكيم رحمته الله (المستمسك) من الكتب المهمة في الحوزات العلمية وبالذات عند طلاب البحوث العالية (الخارج) وذلك نابع من أهمية كتاب العروة الوثقى للمرحوم السيد محمد كاظم اليزدي، والذي - لجهات مختلفة ذكرناها في حديثنا عن السيد اليزدي في كتابنا أعلام الإمامية - أصبح بمثابة قرآن الفقه في البحوث العلمية، والنص الافتراضي لبحوث الخارج عند من يلقيها!

وكان (مستمسك) السيد الحكيم، أول نص استدلاي على الكتاب المذكور، فمع أن كثيرا من العلماء قبل السيد الحكيم قد «علّقوا» على آراء السيد اليزدي بالموافقة أو المخالفة أو التفصيل، كالمرزا حسين النائيني (ت ١٣٥٥ هـ) والشيخ ضياء الدين العراقي (ت ١٣٦١ هـ) والسيد أبو الحسن الإصفهاني (ت ١٣٦٥ هـ)، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (١٣٧٣ هـ)، والسيد حسين البروجردي (١٣٨٠ هـ)، وغيرهم. غير أن أول من فتح طريق الاستدلال والمناقشة فيه مؤيدا للمؤلف أو مخالفا له، كان السيد الحكيم رحمته الله تعالى. ووضع الأساس الذي بنى عليه من جاء بعده من شراح العروة، وتزيد اليوم شروح العروة على خمسين شرحا مطبوعا (وهو بسبق حائز تفضيلا).

ولم تكن الأولوية والسبق هي الميزة الوحيدة بل «إنّ مستمسك

العروة الوثقى بتحرير مطالبه وتنقيح مبانيه ودقة تعابيره وعلوّ مراميه واجتنابه عن الإطالة والحشو وفضول الكلام، وقع من أول بروزه موقع استفادة العلماء والمحققين، وبحق أنه مقرب للاجتهد كما يقوله كثير من العلماء والفضلاء^(١). ونشير إلى الطرافة في اسم الكتاب والذي استلهم من الآية المباركة ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾^(٢) والتي طبعت على أولى صفحات الكتاب، فاسم المؤلف محسن، واسم الكتاب الأصلي العروة الوثقى، واسم الشرح مستمسك!

◀ المرجعية العليا:

توفي السيد أبو الحسن الاصفهاني وكانت له المرجعية العامة، فرجع الشيعة العرب في التقليد للسيد الحكيم، بينما كان قسم من الإيرانيين يقلد السيد البروجردي - في زمان السيد الاصفهاني - ورجع قسم آخر من الإيرانيين إلى البروجردي بعد وفاة الاصفهاني، لكن ما أن توفي السيد البروجردي سنة ١٣٨٠ هـ حتى صارت المرجعية العليا العامة للسيد الحكيم..

هذا بالرغم من وجود عدد كبير من أعظم الفقهاء إلى جانبه، وهم من تلامذة أساتذته، وكل من هؤلاء كان مؤهلاً للمرجعية العامة، لكنهم مع جلاله شأنهم لم يتصدوا للمرجعية في منافسة السيد الحكيم، ولذلك كانت مرجعيته العامة سلسلة لم

(١) محسني: آصف: القواعد الأصولية والفقهية في المستمسك ١٢

(٢) لقمان: ٢٢

تكتنفها عقبات مهمة. واستمرت عشر سنوات (من ١٣٨٠ - إلى ١٣٩٠ هـ) وتجاوزت آثارها تلك السنوات العشر.

فمن ذلك أنه أصبح في مرجعيته للعلاقة بين المرجعية والمقلدين نظام ذو كفاءة، يعنى بما لا بد للمرجع من رأي فيه كالأُمُور الحسبية والولايات وقضايا الأوقاف والموارث، وما يرتبط بتنظيم استلام وصرف الحقوق الشرعية، الأخماس، هذا من الناحية النظرية ومن الناحية العملية فقد اهتم المرجع الحكيم بانتخاب علماء أكفاء للقيام بهذه الأدوار ورأينا أن وكلاءه في كثير من المناطق الرئيسية في العالم الإسلامي يتميزون بهذه الميزة.

وتحسن وضع الحوزات والمدارس الدينية وطلابها، بنحو أفضل مما كان عليه الأمر قبل مرجعيته.

ومن ذلك استقطابه للفئات القريبة من التشيع ومحاولة استعادتها للمذهب الاثنا عشري، وقد أفلح مسعاه ذلك مع الشيعة الخوجة^(١)، وبركة تلك الخطوات وأمثالها أصبح للخوجة حضور مهم في أفريقيا وأوروبا وانتشر من خلاهم التشيع بشكل متميز. وكانت هناك محاولات لاستنساخ نفس التجربة مع العلويين في شمال سوريا وتركيا، وتمت خطوات جيدة في ذلك الاتجاه، لو قدر لها رعاية أكثر لآتت (أكلها ضعفين). ذلك أن الباحثين يقدرّون

(١) تحدثنا عن تاريخهم واثنائهم للتشيع ودور المرجعية في ذلك في احدى محاضرات التاريخ الشيعي.

عدد العلويين في هذه المناطق بما يزيد عن عشرين مليون نسمة، وكانت أصولهم شيعية لكنهم على أثر الاضطهاد الذي مورس بحقهم من قبل السلاطين المتعصبين الأتراك، جعلهم ينقطعون عن مصادر المعرفة الدينية ويعيشون غالباً في الجبال، وعلى أثر هذا الانقطاع ومرور السنوات الطوال، فقد انحسر عنهم العلم والمعرفة وزاد فيهم الغلو والخرافة..

فكانت محاولات من مرجعية السيد الحكيم لاستقدام بعض أبنائهم كطلاب علم، والالتقاء برؤسائهم واستعادتهم، إلى محيط المعرفة الشيعي، لكن لم يتيسر ذلك إلا قليلاً.

وفي داخل العراق، ومقابل انتشار الثقافات والفلسفات الباطلة، فقد أسس السيد الحكيم رحمته الله سلسلة من المكتبات الهادفة إلى توفير الكتب النافعة والبيئة الصالحة للاطلاع على الفكر الإسلامي النظيف، وكانت باسم: مكتبة السيد الحكيم العامة.

غير أن العمل الأقوى والأبقى كان منه رضوان الله عليه في تحطيم سطوة الشيوعيين في العراق، بفتواه المعروفة (الشيوعية كفر وإلحاد).

وليس غرضنا هنا التفصيل في الأمر، إذ لا يستوعب الكتاب وهدفه ذلك التفصيل، لكن مختصره أنه بعد الانقلاب على الملكية في العراق ١٩٥٨ م ومجيء عبد الكريم قاسم، نشطت الأحزاب المختلفة في الساحة السياسية غير أن أقواها كان الحزب الشيوعي

(لأسباب مختلفة دولية حيث تألق الاتحاد السوفيتي كنصير للعمال والطبقات الفقيرة، ومحلية لجهة شدة الظلم الواقع على هذه الطبقات، ونشاط العاملين فيه لاستقطاب هذه الفئات)، ونشر هؤلاء الفكر الشيوعي بين الناس إلى درجة أن أحد طلاب العلم يقول: كنا في العراق تلك الفترة في الليل كطلبة علم لانستطيع أن نخرج معممين لخوفنا من هؤلاء إذ لم يكونوا يسبوننا فقط ويهتفون ضدنا! وإنما كان من الممكن أن يتعدوا علينا بالضرب والقتل!.

فأوعز السيد الحكيم بفكرة تأسيس جماعة العلماء، لأنه إذا كان الحزب الشيوعي يتحرك كتنظيم سياسي في الساحة فلا تستطيع مواجهته بعمل فردي، بل تحتاج إلى تشكيل يستقطب هذه المجاميع الشبابية المتدينة. وأيد العلماء والفقهاء - ممن عاصر السيد - ذلك بالبيانات، وكان لها نشرة تصدرها وترد على الدعايات الشيوعية والشبهات المثارة ضد الإسلام.

ومع استفحال المد الشيوعي وسعيه للسيطرة على الدولة من جهة وعلى الثقافة الشعبية عند الناس من جهة أخرى، وكانوا يتفنون في استقطاب الشباب، فقد أصدر المرجع السيد الحكيم فتواه المشهورة: الشيوعية كفر وإلحاد.

وقد عقب عليها سائر العلماء والفقهاء بالتأييد والمباركة، فكان أن انتشرت والتزم الناس بفتوى المرجعية فتراجعت تلك الملة الفاسدة، وحذر الناس من الاتصال بها.

وبالرغم من أن جهات منحرفة آخر قد استفادت من تلك الفتوى - كما زعم بعض - إلا أن هذا لا ينقص من أهمية الفتوى، وتشبيهه بماء المطر فكما يستفيد منه المزارع المؤمن يستفيد منه الجاحد لله تعالى، ولا ينقص ذلك من أهمية كونه غيثاً وبركة إلهية.

ومثلما كانت فتواه رحمة للناس وعذاباً صَبّاً على الشيوعيين والاحد، كذلك كان توجيهه رحمة في ما يرتبط بالحرب على الأكراد، والذي رفض فيه شن الأنظمة القومية الفاشية الحرب عليهم بدوافع عنصرية غير منصفة، بالرغم من أن تلك الأنظمة جندت الكثير من (العلماء) من داخل وخارج العراق لتأييد الحرب عليهم، ورفضت المرجعية ذلك باعتبار أن الأكراد إخوة في الدين والعقيدة.

14/ الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني (ت 1409 هـ)

مع أنه يمكن الحديث عن الإمام الخميني في نواح مختلفة، لتعدد جهات شخصيته، فقد يمكن الحديث عن علمه وفقاهته لكونه يُعدّ ضمن فقهاء الطبقة الأولى من فقهاء الإمامية المعاصرين، وله آراء وابتكارات خاصة في هذا الجانب، كما يمكن الحديث عن جهاته الأخلاقية والتربوية حيث أنه صاحب مدرسة في هذا.

لكننا سوف نعطف بالحديث إلى جانب آخر وهو ما تميّز به عن عموم فقهاء الطائفة في تجربته الجهادية التي انتهت إلى إسقاط حكم جائر وإقامة حكم إسلامي في تجربة لم نعهد لها مثيلاً بهذه الكيفية منذ قرون طويلة.

وذلك أن أقصَى ما كان يتمّ الحديث عنه من فقهاءنا المعاصرين ينتهي إلى وجود ضوابط ودستور وبرلمان ورقابة على الوضع الموجود كما كان نظرية المحقق النائيني رَحْمَةُ اللهِ عليه في كتابه تنبيه الأمة وتنزيه الملة وكما كان قبله في الحركة الدستورية المعروفة بالمشروطة أيام الآخوند الخراساني. أما أن يكون هناك إزالة لحكم الطاغوت - بحسب التعبير القرآني - وإحلال حكم تحت قيادة الفقهاء مكانه، وتطبيق ذلك عملياً كما حصل في تجربة الإمام الخميني فهذا أمرٌ لا سابقة له فيما نعلم.

لن نتوقف كثيراً عند يتمّ السيد الخميني صغيراً الذي قتل الأقطاعيون وملاك الأراضي الظالمون والده عندما انتقد ظلمهم وبيّن حرمة ذلك فاغتالوه بالرصاص، ولا عن يتمه من أمه التي لحقت بأبيه بعد فترة ليست بالطويلة، ولا عن أن هذا اليتيم لم يكسر شخصية السيد، بل زاده قوة وعزيمة وتحدياً، ولا عن دراسته المقدمات الحوزوية.

وإنما سنبدأ من مجيء السيد حسين البروجردي إلى قم المقدسة سنة ١٣٦٤ هـ والذي سيصبح محور الحركة العلمية فيها وفيما بعد سيكون مرجع الطائفة لا سيما في إيران.

وقد كان السيد الخميني ممن دَعَم وشجّع على مجيء وبقاء السيد البروجردي وحث كل من يعرف على الإحاطة بهذا العالم والزعيم الكبير.

وفي زمان السيد البروجردي كان حاكم إيران هو رضا بهلوي (والد الشاه محمد رضا) وكان - مثل زميله كمال أتاتورك - يسعى في تغريب المجتمع المسلم ويحارب شعائر الإسلام ومنها الحجاب، وكان السيد البروجردي ينصحه تارة ويرسل له رسائل شديدة أخرى وهكذا. وكان رضا بهلوي يحترم السيد البروجردي إلى حد ما نظراً لقوته من جهة ولأنه لم يصعد المواجهة إلى أعلى مستوياتها.

إلى أن انقلب الخلفاء ضمن معادلات معينة على رضا شاه والد الشاه أو الشاه البهلوي الأول فعزلوه وأرسلوه إلى المنفى إلى أن مات وهذه طبيعة الحُكام العُملاء يستفيد منهم أربابهم المستكبرون حتى إذا انتهت حاجتهم عزلوه ورموهم كأعقاب السجائر.

وجاءوا بولده محمد رضا إلى الحكم وكان شاباً حدث السن ولم تكن له تجربة سياسية، كما لم يكن مُنصباً بتفويض شعبي أو بدعم جماهيري! وإنما القوى الكبرى هي من جاءت به ونصّبتَه فكان بالتالي طوعاً لها ورهينة أمرها.

وللتسريع في عملية تغريب المجتمع الإيراني المسلم، فقد سلطوا الحركة البهائية^(١) المنحرفة على الدوائر العليا.

(١) قد نقل د. الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته ٥١٤٣ / ٧ قرار مجمع الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره الرابع من ١٨ - ٢٣ جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ بشأن انحرافات تلك الفرقة، ونقل أيضاً بعض اعتقاداتهم حيث يعتقدون: «أن البهاء مؤسس هذه الفرقة يدعي الرسالة ويزعم أن مؤلفاته وحي منزل، ويدعو الناس أجمعين إلى الإيمان برسالته، وينكر أن رسول الله ﷺ هو خاتم

استثار ذلك التسليط والسيطرة البهائية من جهة، والمضي في حركة تغريب المجتمع، ومحاربة حجاب المسلمات من جهة أخرى، وأضيف إلى ذلك القانون الجائر والذي عرف بالكابيتولاسيون، أو الحصانة القضائية للأمريكان بحيث لا يقف أي أحد منهم أمام محكمة إيرانية! استثار كل ذلك، العلماء والحوزات العلمية فخطب الإمام الخميني رحمة الله عليه وفي يوم العاشر من محرم الذي يُصادف بالتقويم الفارسي ١٥ خرداد سنة ١٩٦٣م خطبة عنيفة شديدة اللهجة ضد تلك السياسات الهادفة إلى إلغاء الهوية الدينية وبيع استقلال إيران محذراً من أن كل ذلك باطل ولا يمكن أن يقبل به الشعب!.

بنفس القدر الذي فجر فيه ذلك الخطاب الغضب والنقمة عند الجمهور، أشعل فتيل العنف لدى السلطة فحركت رجال المخابرات والجيش للهجوم على مدرسة (الفيضية) فأطلق الرصاص على طلابها، ورمي قسم منهم من أعلى الطوابق، وذهبت

المرسلين ويقول: إن الكتب المنزلة عليه ناسخة للقرآن الكريم، كما يقول بتناسخ الأرواح.

وفي ضوء ما عمد إليه البهاء في كثير من فروع الفقه بالتغيير والإسقاط، ومن ذلك تغييره لعدد الصلوات المكتوبة وأوقاتها إذ جعلها تسعاً تؤدي على ثلاث كرات، في البكورة مرة، وفي الأصال مرة، وفي الزوال مرة، وغير التيمم فجعله يتمثل في أن يقول البهائي «بسم الله الأظهر الأظهر» وجعل الصيام تسعة عشر يوماً تنتهي في عيد النيروز في الواحد والعشرين من مارس في كل عام، وحول القبلة إلى بيت البهاء في عكا بفلسطين المحتلة، وحرّم الجهاد وأسقط الحدود، وسوى بين الرجل والمرأة في الميراث وأحل الربا...».

قوة إلى بيت السيد الخميني واعتقلته ليؤخذ إلى طهران للتحقيق معه. وبينما رفض السيد التجاوب معهم في التحقيق نهائياً، كانت المظاهرات في اليوم الثاني تعم قم وبعض البلديات الإيرانية احتجاجاً على ما حصل.

وإذ أرجع السيد إلى منزله هذه المرة فلم يسلم المرة الثانية عندما خطب محذراً الشاه وحكومته، حيث أخذ من قم إلى طهران، وأبعد من إيران بطائرة عسكرية إلى تركيا.

وبعد مرور سنة خرج السيد من تركيا إلى العراق ليستقر في النجف سنة ١٩٦٥ هـ ليجتمع إليه طلاب العلم في (مسجد الشيخ الانصاري) ليدرّس الفقه على مستوى بحث الخارج في موضوع هو من صلب ما كان يسعى إليه وهو (ولاية الفقيه) وهو أحد المواضيع التي تم التطرق إليها في باب المعاملات.

وجود الإمام الخميني في النجف مكّنه من التواصل مع الفئات الجهادية التي كان يهتمها الوضع في إيران، وبنفس المقدار أثار مخاوف الأعداء من ذلك، وحدث في هذه الأثناء وفاة ابنه الأكبر السيد مصطفى (ت ١٩٧٧ م) وهو فقيه ومجتهد بارع، في حادثة لم يتضح ما إذا كانت اغتيالاً أو موتاً طبيعياً. لكن الواضح أنه تم الاستفادة من مجالس التآبين والفواتح كمهرجانات سياسية كبيرة، حركت الناس من جديد في وجه انحرافات النظام. وكانت بمثابة الشرارة تنتقل من بلد إلى بلد.

ولأسباب مختلفة قرر السيد الخميني الخروج من العراق سنة ١٩٧٨م واتجه إلى باريس. وكانت الحركة الطلابية المعارضة لنظام الشاه هناك واسعة، كما كان فيها شخصيات وحركات معارضة له، ووفر ذلك لحركة الإمام الخميني البعد الإعلامي والعالمي.

وبعد ما يزيد على ثلاثة أشهر بقليل قرر السيد الخميني الرجوع إلى طهران، بينما كانت المظاهرات المطالبة برحيل شاه إيران هي الشغل اليومي للناس في مختلف المحافظات.

في هذه الأوضاع قرر شاه إيران أن يغادر طهران حتى تهدأ الناس. وبمجرد خروجه، أعلن الإمام الخميني عن تشكيل شورى الثورة الإسلامية وهي بمثابة حكومة مؤقتة استقبل الناس قراراتها واستجابوا لأوامرها وكان ذلك بمثابة الاستفتاء الشعبي على قبول هذه الحكومة.

وأعلن عن خبر الرجوع القريب للإمام الخميني الأمر الذي زاد من عزيمة الناس وترقبهم أن النصر أصبح على بعد قاب قوسين أو أدنى.

ومع وصول طائفة الإمام ومرافقيه إلى مطار طهران، سقط الحكم البهلوي، وتبخرت أجهزة المخابرات كالصقيع الذي أشرقت عليه الشمس! وتسابق أركان النظام السابق للهرب من البلاد بأي وسيلة كانت ممكنة. وتحقق وعد الله ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

نعم كانت تجربة فريدة لا نظير لها عندما قاد مرجع تقليد شعبه إلى الانتصار.

15/ زعيم الحوزة الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت 1413 هـ)

من أهم ما يتميز به المذهب الإمامي الاثني عشري، اعتماده على العلم والدليل والبرهان، وبه يتم التفاضل بالقياس إلى سائر المذاهب، بل وفي داخل المذهب نفسه، في تقدم الأشخاص وتأخرهم. وهو - أي التفاضل بالقوة العلمية - وإن كان مبدأً إسلامياً عاماً إلا أننا وجدنا تطبيقاته الصادقة والواضحة في التشيع أكثر من غيره.

فعلى مستوى المذاهب، بالرغم من تعرض المذهب الإمامي إلى محاربة واسعة من السلاطين الحاكمين في بلاد المسلمين ولقرون طويلة، إلا أنه لما كان يعتمد - في عقائده وأحكامه - على البراهين القوية، لم تستطع تلك الحروب التي شنت عليه أن تكسر جناحه فضلاً عن القضاء عليه.. وهذا حديث ينبغي بحث تفاصيله في موضع غير هذا الموضع.

وأما على مستوى الشخصيات والقيادات فيه، فالأمر كذلك فليس التقدم فيه للقيادة الدينية باعتبار النسب كأن يكون مثلاً سيداً من الذرية النبوية، أو أنه قرشي، أو حتى عربي في مقابل الفرس والأتراك والهنود.

وإنما الذي يجعل الشخص مقدماً على غيره هو كونه الأعلم

بمسائل الدين وقضايا الشريعة. وهذه الصفة هي التي تؤهله للمرجعية العامة والعلية عند الشيعة. فلو كان كذلك وهو هندي فيجب على العرب اتباعه والخضوع له، ولو كان الأعلم تركياً فيجب على أبناء مكة والعراق التسليم له، وهكذا. لأن الاعتماد هو على كونه الأكثر علماً والأفضل استنباطاً.

والسيد أبو القاسم بن السيد علي أكبر القادم من بلدة خوي-من أذربايجان الغربية من إيران، ينطبق عليه ما تقدم ذكره تمام الانطباق. فالأصل التركي، واللسان الفارسي، والمكان القصي البعيد عن العالم العربي كل ذلك لم يمنعه من تبوء سدة المرجعية العامة والعلية للشيعة في كل أقطار الأرض، لمدة تقرب من ربع قرن من الزمان. والذي مكّنه من ذلك قطعاً لم يكن نظام سياسي يدعمه أو حاكم عسكري يعينه، كما لم يكن حزب أو قومية أو غير ذلك! وإنما لأنه فرض قوته العلمية، على الحوزة وأقنع الجميع بكفاءته الاستثنائية.

فقد انشغل منذ أن كان عمره ثلاثين سنة بتدريس بحوث الخارج في الفقه والأصول وعلوم الحوزة المختلفة، واستمر على ذلك نحو سبعين سنة، وما ترك التدريس إلا في أواخر سنوات عمره الشريف الذي امتد نحو (٩٦ سنة).

وقد ذكر أنه درس (٧) دورات أصولية كاملة وشرع في الثامنة لكن صحته لم تسعفه في ذلك. والقليل القليل من المجتهدين من يكمل دورتين أو ثلاث.

وتخرج من تحت منبر درسه أعدادٌ كبيرة من الفقهاء والمجتهدين، بعضهم تسنم المرجعية بعد وفاة استاذه، وقد صرح بعض تلامذته بالقول إنه يندر أن يكون هناك مجتهد في هذا العصر لم ينتفع بعلم السيد الخوئي بشكل مباشر أو غير مباشر! وأما المرحوم السيد محمد صادق الروحاني فقد كان يرى أن أستاذه السيد الخوئي هو أعلم فقهاء الشيعة من عصر الغيبة إلى زمانه على الإطلاق!

ولمن أراد التفصيل في هذا الجانب العلمي نرشده إلى الدراسة القيمة التي كتبها (أو ألقاها) المرجع الديني المعاصر الشيخ إسحاق الفياض وهو أحد تلامذة السيد الخوئي وأشار فيها إلى أفكاره المبتكرة، ومسالكه المتميزة في علمي الفقه والأصول.

ولم ينقطع درسه الفقهي والأصولي منذ بدايته فكثير مقرر ودرسه، وربما اختلفت آراؤه، أو اتفقت واختلفت أنحاء استدلالاته، فقد ترى في أحد الكتب المقررة لدرسه ما لا تجده في كتاب آخر، وهذا لا يرجع فقط إلى اختلاف المقررين أحياناً، وإنما قد يرجع إلى اختلاف الدورة التي يقرر منها الثاني وهي تختلف عن الدورة السابقة التي يقرر منها الأول، وهكذا.

وقد جمع ما قرره تلامذته من كتبه الفقهية فجاء في ٤٢ مجلداً، لا يستغني عنها طلاب العلم وفضلاء الحوزة.

وأما علم الرجال فحدث ولا حرج فقد أعاد إليه الاعتبار في العصر الحديث وقد كاد يندثر، فإنه بعدما بنى في الأصول على

حجية خبر الثقة تعبدًا، وأنه الطريق السليم لمعرفة صحة الروايات الواردة، وهي بدورها التي توصل للحكم الشرعي. بينما رأى سائر المسالك والطرق غير تامة. كان عليه أن يعد العدة كاملة في هذا، وذلك يحتاج إلى أن يدرس أحوال الرواة وطبقاتهم، ويعالج ما جاء في حقهم من توثيق وتضعيف، فعكف على ذلك حتى اخرج - بمعونة خاصته - كتابه المعروف «معجم رجال الحديث» والذي احتوى بالإضافة إلى مقدماته التي فصل فيها القول في الحاجة إلى علم الرجال، وبهذا تثبت وثاقة الراوي وألقى نظرة على الكتب الأربعة وناقش القول بقطعية صدور أحاديثها ورده.. ثم بدأ في ذكر أسماء الرواة التي بلغت نحو (١٥٦٧٦) مرتبة أبجديًا وأعطى رأيه في وثاقة كل راوٍ مع الاستدلال على مختاره ومناقشة غيره.

◀ مرجعيته وزعامته الدينية:

كان العنوان الأكبر لمرجعية السيد الخوئي رحمته الله، الحفاظ على بقاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف بكل الوسائل والإمكانات، وحفظها من الاضمحلال، فقد كانت خطة حزب البعث الذي استولى على السلطة، أن ينهي هذا الوجود العلمي في النجف الأشرف، ومن خلاله تنتهي المرجعية في العراق، فكان يسعى إلى إخراج غير العراقيين وتسفيرهم من النجف بل من العراق، وبحجج مختلفة أخرج الإيرانيين، وغير محمدي الجنسية وفي حملات متتابة، وأشاع جوا من الرعب بايداع الباقي السجن والتفتيش الدائم للبيوت، حتى يخرج الباقون، وبالفعل فقد (أفرغ) النجف

الأشرف من مدرسيها الكبار وفضلائها، وكان الحزبيون أولئك ينتظرون أن تخلو الحوزة من الباقين، غير أن السيد الخوئي رحمته الله أصر على البقاء وأوصى من يقبل كلامه، بالبقاء قدر الإمكان وأن يتحملوا كل تلك الصعوبات، وفي هذا السبيل قُتل أعيان تلامذته في سجون البعثيين.

وفي الجهة الأخرى أصر على أن تكون دروس الحوزة هي الأعلى والأفضل عمقاً وإن كانت أوضاعها السياسية والرفاهية صعبة، بالقياس إلى الحوزات الأخرى في سائر البلدان وإن كانت ظروفها المعاشية والعامة أفضل بكثير. وبالفعل فقد احتفظت الحوزة العلمية في النجف الأشرف بموقعها لا يجاريها فيه أحد فضلاً عن أن يسبقها.

وللسيد الخوئي دور مهم في ما عرف بأحداث الانتفاضة الشعبانية، لا يتسع المقام لذكره وتفصيله فنوكله إلى موضعه إن شاء الله تعالى.

16/ المرجع الأعلى الإمام السيد علي الحسيني السيستاني (1349 هـ - معاصر)

إذا كان الكثير مما مر، هو منقول ومسموع للكثير من المؤمنين فإن ما شاهده أغلب الناس من دور المرجعية المتميز في زمان المرجع الأعلى السيد السيستاني يكفي في هذا الجانب، وقد قيل في المثل «وما راءٍ كمن سمعا».

سوف نلاحظ في شخصية السيد السيستاني حفظه الله ميزات، ربما لم تتوفر لكثير من المراجع غيره، فمن ذلك أنه درس على عدد

من أعلام الطائفة، كلُّ منهم يمثل مدرسة خاصة واتجاهها علمياً متميزاً، مما جعله يحيط بأطراف هذه المدارس والاتجاهات العلمية، ولا ريب أن من يكون هكذا يختلف عمن يكون نسخة منحصرة بأستاذه الخاص، ففيما تلقى نظريات مرجع الطائفة السيد حسين البروجردي رحمه الله صاحب المنهج الخاص في الرجال والحديث، استوعب بدقة نظريات استاذة الذي التصق به طويلاً زعيم الطائفة السيد أبو القاسم الخوئي، وفي نفس الوقت تراه في أيام شبابه قد ناقش نظريات المحقق الطهراني مع بعض تلامذته المبرزين، ومع أن كلامنا ذكرنا من مراجع الطائفة كان يكفي الدرس عنده ليصل الطالب للاجتهاد والفقاهة إلا أن سيدنا السيستاني دام ظله، لم يكن ذلك ليكفيه بل حض دروس مرجع زمانه السيد محسن الحكيم، والسيد الشاهرودي ومن خلال ذلك احتوى على خبرات مختلفة ومتعددة، وإن كان اختصاصه الأكبر بعد السيد الخوئي بآية الله الشيخ حسين الحلي رحمه الله.

وكما كان هنا هكذا، فإنه استوعب نظريات ما يعرف بمدرسة المعارف الإلهية أو مدرسة مشهد، وأخذ عن كبارها كالميرزا مهدي الاصفهاني، والشيخ مجتبي القزويني.

هو بذلك ليس وارث مدرسة علمية بل مدارس! وليس مهمنا على طريقة اجتهادية بل طرق! فليس غريباً بعد ذلك أن يمنحه أعظم الحوزة كاخوئي والحلي إجازة الاجتهاد والاستنباط والناظر فيها يتبين له علو مقامه عندهما. حين الإجازة فضلاً عما بعدها.

ولمن أراد التفصيل في معرفة آرائه وميزاته الفكرية، ولأن فيها بعض البحث التخصصي فقد أعرضنا عن ذكرها ونحيل طالب التفصيل إلى المقالة المفصلة المنشورة في موقعه دام ظلّه^(١).

ومن ذلك: اطلاعه على الثقافة المعاصرة بشكل كبير، ويلحظ مجالسوه حفظه الله هذا المعنى بشكل واضح، فعندما تطرح هذه المواضيع في ميدان البحث تجد اطلاعا كبيرا على أصولها وخلفياتها، وقد نقل في أكثر من مورد ذلك الأمر ومن أشهرها ما كان في جلسة خبراء الدستور الذين وضعوا القانون الأساسي الجديد بعد سقوط النظام، وكيف استعرض سماحته لهم، القوانين المعاصرة وخصوصيات كل منها، والمقارنة بين أحادها، مما جعلوا في دهشة كبيرة من إحاطته بهذا الموضوع التخصصي الذي قد لا يحيط به بعض المختصين به. وخرجوا بانطباع مختلف تماما عما كانوا يتصورونه عن المرجعية الشيعية. وقد نقلت الحادثة في وقتها من قبل كثيرين.

وهذه الميزات مع قيمتها العالية، إلا أن ما اتخذته دام ظلّه من قرارات وخطوات حين آلت إليه المرجعية العامة العليا، في وضع يعد من أكثر الأوضاع حرجية، سيضع تلك الميزات تحت الشعاع! فقد كان يتوقف على هذه القرارات والتدبيرات حفظ شعب العراق كشعب مسلم، وحفظ المقدسات والمشاهد الشريفة، وبقاء الحوزة العلمية.

وذلك عندما هبت الرياح السوداء للإرهاب المتغطي بالإسلام، لتدمر ما أمامها محمية بغض النظر الغربي، ومدعومة ببعض الفئات المسلمة الخاطئة، والنتيجة أن تكونت ما يسمى بداعش. فكانت أشبه بالثقب الأسود الذي كاد أن يبتلع ما أنتجه علماء المسلمين من فكر ومعرفة، وما تم إنشاؤه من مؤسسات علمية، ودينية وروحية، ومشاهد يذكر فيها اسم الله كثيراً.

فكان أن قامت هذه الفئات الإرهابية العمياء بتفجير المرقد الشريف للإمامين العسكريين في سامراء، وذلك في محرم ١٤٢٤ هـ، بغرض أن تنطلق موجة الانتقام والثأر، والثأر المقابل تمهيد للحرب الأهلية بين السنة والشيعة في العراق.

وبالرغم من احتقان النفوس وتهيؤ الأوضاع لمثل تلك الحرب الأهلية إلا أن الموقف الحازم للمرجعية العليا ممثلة بالسيد السيستاني ورفضه إعطاء أي تبرير للانتقام، أو تفجير المساجد (غير الشيعية) أو القتل، مما كان يقوم به بعض على المنضبطين بالفتوى الشرعية، من فئات يسوقها عدم الوعي بالمخطط المشؤوم.

كان موقف المرجعية العليا حازماً وقوياً، ولا يأذن بأي عمل من هذا القبيل، بل أكد بفتاواه ومن خلال خطب وكلائه في صلوات الجماعة، أن «أهل السنة ليسوا إخواناً بل هم أنفسنا!» فوقف أمام هذا المخطط التخريبي الداخلي، واعتبر الجميع أن هذا هو الموقف الذي يجب الالتزام به. والله وحده يعلم ما كان سيتج في العراق بل

في العالم الإسلامي عندما ينطلق مارد الحرب المذهبية، مع اختلاط هذه المجتمعات المذهبية وتجاورها في كل مكان منه.

ولم يكن الشيطان الإرهابي ليقف عند تلك المحاولة، وينهي سعيه المشؤوم، بل أعاد تشكيل نفسه، فيما بعد وتفاقم الأمر حينما زحفت تلك الجموع الخارجة، من غير أن تلقى مواجهة لا من الخارج - ويفترض علانية أنهم متضادان وإن كانا في الواقع متواصلين - وانهزم السياسيون بعيدا عن الساحة وهم السباقون إلى كل مصلحة شخصية.

فكان أن سيطر أولئك (الدواعش) على أكثر الأراضي العراقية، وسقطت مناطق الشمال والغرب في أيديهم، حتى وصلوا إلى قرب بغداد وكان «الرجل منهم يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع قلبها وقلائدها ورعتها ما تمتنع منه إلا بالاستعطاف والاسترحام» بل لقد سببت النساء واستبيحت من قبل هؤلاء.

فكانت فتوى الجهاد الكفائي^(١) للمرجع الأعلى التي صدرت في شهر حزيران ٢٠١٤م والتي أوجبت على كل قادر على القتال أن

(١) وقد أعلنها الشيخ عبد المهدي الكربلائي ممثل الإمام السيستاني في خطبة الجمعة في كربلاء وجاء فيها: «إن طبيعة المخاطر المحدقة بالعراق وشعبه في الوقت الحاضر تقتضي الدفاع عن هذا الوطن وأهله وأعراض مواطنيه وهذا الدفاع واجب على المواطنين بالوجوب الكفائي.. ومن هنا فإن على المواطنين الذين يتمكنون من حمل السلاح ومقاتلة الإرهابيين دفاعاً عن بلدهم وشعبهم ومقدساتهم عليهم التطوع للانخراط في القوات الأمنية لتحقيق هذا الغرض المقدس».

ينهض للدفاع عن البلاد، ويواجه تلك الفئة المارقة، بالمقدار الذي يكفي من المقاتلين، على نحو الوجوب الشرعي الثابت كوجوب الصلاة والصيام، إلى أن يتم الدفاع التام ولا تعود حاجة للمزيد من المقاتلين.

ولسنا الآن في صدد استعراض كافة النشاطات السياسية المرتبطة بالمرجعية العليا، فقد كتب في هذا دراسات يمكن الاطلاع عليها في مظانها.

ولا ننسى أخيراً اهتمام سماحته دام ظله بتأسيس المؤسسات التي تلبي حاجة المؤمنين، سواء منها المؤسسات العلمية من مدارس وحوزات ومراكز بحوث، ولا تقتصر هذه على ما هو في داخل العالم الإسلامي، بل إن ما هو موجود في العالم الغربي من أمريكا وأوروبا وغيرهما من مؤسسات ومراكز إسلامية وتعليمية وثقافية، لا يقل عما هو موجود في العالم الإسلامي.

بل لقد وجدنا المؤسسات الصحية والخدمات المتنوعة وعلى أعلى المستويات في بعضها، هو من اهتمامات المرجعية العليا ليتشكل من كل ذلك نمط من الإدارة المرجعية، ربما لم يكن الكثير منه موجوداً قبل هذه المرحلة.

نسأل الله سبحانه أن يطيل في عمر سماحة المرجع الأعلى مقرّونا بالصحة والعافية.

أسئلة وإجابات

سؤال ١: لماذا يركز أعداء المرجعية على إسقاط الشيخ الطوسي وتشويه صورته؟

الجواب: كما تقدم ذكره في الحديث عن أساليبهم في إسقاط المرجعية الدينية الشيعية، هؤلاء - على اختلاف دوافعهم ومواقفهم - يستعملون شتى الوسائل والأساليب لأجل إسقاط هذا الجبل الشامخ، فبعضهم يركزون على أن المراجع والنظام المرجعي يسلب أموالكم، ويحتلب ثرواتكم، مع كمّ كبير من الاتهامات والأكاذيب، وهذا قد ينفع في من يكون مادياً ويريد ألا يعطي الخمس، فهو يسارع إلى هذا الكلام ويعتبره حجة، وهم يعلمون أنهم يخاطبون هذه الفئة.

وهم بالإضافة إلى هذا لا مانع لديهم من مهاجمة أي شخصية مرجعية في تاريخ التشيع، فهم لا يقبلون أحداً حتى يقال مثلاً هم يوقرون هذا ويهاجمون ذاك. إنهم يعترضون على أصل النظام

المرجعي، وعلى كل الشخصيات المرجعية، وبمختلف العناوين. فهم يعترضون بقوة على الشيخ الكليني والصدوق والمفيد والطوسي والشريف المرتضى، مثلما يعترضوه على ابن ادريس وابن طاووس والعلامة الحلي، وبنفس المقدار يعترضون على السيد الحكيم والخوئي والسيستاني.. فلا يوجد لديهم شخص زكي في مراجع الشيعة منذ زمان الغيبة وإلى يومنا هذا.

وأما تخصيص شيخ الطائفة الطوسي بالقدر الأكبر من السباب والشتائم، فقد يكون لجهة دوره المتميز في صياغة المدرسة الإمامية وتأسيسه أغلب علومها، من أصول وفقه وكلام وعقائد واستدلال ورجال ولكي تعرف ما قام به رضوان الله تعالى عليه، يمكنك الرجوع لكتابتنا (أعلام الإمامية) وأنه لماذا استحق إلى يومنا هذا لقب (شيخ الطائفة). وقد يكون لجهة أخرى أيضا وهي أنه لو هاجم هؤلاء أشخاصا عاديين، فإن ذلك لن يصنع لهم شهرة استثنائية، بخلاف ما إذا هاجم أعلى قمة في الطائفة فإن ذلك يستفز أبناء الطائفة وعلماءها، وسيتم تناقل كلماتهم وتسجيلاتهم تعجباً منها أو طلباً للرد عليها فيكون ذلك طريقاً لشهرتهم وإن كان بهذا النحو!..

سؤال ٢: عن التمييز في الرواتب، الأبهة في المساكن.. الخ. ومحاباة البعض وحرمان البعض الآخر فإنه يقول البعض إن ذلك موجود في الحوزات العلمية.

الجواب: تارة ينتقد النظام المرجعي باعتباره أنه يقوم على هذا الأساس المذكور، وأخرى تنتقد حالات في مرجعية معينة، أو زمان معين!

ولا يمكن بطبيعة الحال نفي الثاني، وهو وجود هذا النوع من المخالفات، والإشكالات إلا إذا افترضنا أن القائمين على هذه الأمور هم معصومون، وهو فرض غير واقعي فإن هذا لم ييسر حتى في زمان رسول الله وأمير المؤمنين عليهما وآلهما السلام، وقد نقل التاريخ صوراً وحوادث عن تلك التخلفات. ولا يضر هذا بموقع الرسول الكريم ولا أمير المؤمنين. ولا يطعن في اختيارهما لمن سيتكشف عن خيانة وخبائث.

وبناء على ذلك فإننا لا نستطيع أن ننفي نفيًا كليًا هذه المخالفات، أو نبرئ ساحة العمل من التجاوزات بالكامل وكل قضية تحتاج إلى تحقيق في حصولها وعدمه. ونعتقد في الوقت نفسه ان الكثير ممن يثير هذه الكلمات لا يمتلك من الورع والتقوى ما يردعه عن اختلاق بعض القصص غير الواقعية أو المبالغة في بعضها الآخر الحادث.. ولكن نؤكد أننا لا نستطيع النفي الكلي، ومع حدوث بعض هذه الحوادث فينبغي للجميع أن يتحمل مسؤوليته في محاصرة هذه المخالفات والابلاغ عنها وعلاج آثارها.

وأما ما يشيعه البعض من أن النظام المرجعي قائم على ذلك، وحين يتحدث عن هذه المخالفات تظنه يتحدث عن عصابات

أو مافيات، فتلك «شنشنة نعرفها من أخزم»، وهي تأتي في نفس السياق من التشويه بالأكاذيب والافتراء بالبهتان، ممن لا يهمهم غير اسقاط النظام المرجعي.

سؤال ٣: لماذا لا نأخذ الأحكام مباشرة من القرآن وكتب الحديث المفصلة؟ ولماذا هذه الأبحاث المعمقة؟ أليس الدين يسرا وسهلا؟

الجواب: ينقسم السؤال هذا إلى قسمين؛ الأول لماذا لا نأخذ الأحكام مباشرة من القرآن وكتب الحديث من غير حاجة إلى مراجعة الفقهاء. والثاني: أن الدين يسر فلماذا هذه الأبحاث المعمقة؟

أما الجواب على القسم الأول فهو: أن الأخذ من القرآن ومن كتب الحديث مباشرة هو مخالف للقرآن ولكتب الحديث ولسيرة عقلاء البشر، ولسيرة المتدينين والمؤمنين. وبيان ذلك:

أن القرآن الكريم يأمر الناس بأنهم عندما لا يعلمون أحكام الدين فعليهم أن يرجعوا إلى أهل الذكر وأهل العلم ويصرح بالقول ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومن الواضح أن السائل وأمثاله لا يعلمون أحكام الدين فلو سألتهم في تفاصيل مسائل الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها لما وجدت عندهم جوابا، فينطبق عليهم أنهم لا يعلمون، فإذا كانوا كذلك فوظيفتهم أن يسألوا العلماء وأهل الذكر. وهكذا في قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ

لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴿١٠٠﴾ فقد قرر القرآن حقيقة أنه لا يمكن أن يهاجر كل الناس ويتركوا بلادهم لأجل التفقه في الدين، فإذا ما العمل والحال أن في الدين واجبات وأحكاما؟ الحل: هو أن ينفر جماعة وأن يتخصصوا بالتفقه في الدين، ويخبروا عامة الناس بأحكامه، ومن الطبيعي أن عامة الناس لا بد أن يطيعوهم في ذلك! وإلا لكان الأمر عبثيا ولغوا.

وهكذا ما ورد في سائر الآيات المشيرة إلى لزوم اتباع غير العالم للعالم.

ولعل قائلا يقول: إن المقصود بأهل الذكر هم المعصومون وليسوا الفقهاء! والجواب عليه: إنه لا شك أن المعصوم هو أفضل مصداق لأهل الذكر، وأوضح شاخص للفقهاء الربانيين لكن لا ينحصر الأمر فيهم لاسيما في زمن غيبة الإمام المهدي، والذي نحن فيه حيث انقطع الناس عن الاتصال المباشر بإمامهم. بل إن الأئمة عليهم السلام في الكثير من أحاديثهم أرجعوا الناس إلى الفقهاء والعلماء لمعرفة أحكام الدين، وقد مر في أوائل الكتاب الاستشهاد بشيء من تلك الأحاديث والتوجيهات.

وهذه الأحاديث بدورها تجعل الأخذ المباشر من القرآن والروايات مخالف لما طلبه أئمة الهدى من شيعتهم وأن عليهم أن يرجعوا إلى فقهاء أهل البيت في زمان الغيبة.

وهو - ثالثاً - مخالف لسيرة العقلاء بل حكم العقل، الذي يقضي بأن رجوع غير العالم إلى العالم الفقيه والخير بأحكام الدين حسن عقلاً، وخلاف ذلك قبيح! ويذم العقلاء ويلومون من يترك الرجوع إلى العالم الخير، ويقبحون فعله.

وهو مخالف أيضاً لسيرة المشرعة المؤمنين الذين التزموا بشكل واضح منذ زمان الغيبة، بل قبلها كما بيّنا في الصفحات الماضية، بالرجوع إلى الفقهاء ورواة الحديث عنهم. وأما بعد زمان الغيبة الصغرى فنظام شيعة أهل البيت قائم على هذا، لا يُعرف غيره فيهم.

وأما السؤال عنه أنه: لماذا هذه الأبحاث المعمقة؟ أليس الدين يسراً وسهلاً؟

فهو يذكر بما يقوله البعض عندما يرى النظريات المعقدة والمعادلات الصعبة في الرياضيات مثلاً أو الفيزياء، بحيث تستوعب عشرات الصفحات من الرموز! فمن لا يفهمها ولا يعرف تفكيكها يعتبرها لا داعي لها ولا أهمية فيها! لكن العلماء المتخصصين في هذا الباب يرون كل حرف مهماً وكل رمز ضرورياً!

نعم العقول البسيطة التي تحسب السراب ماءً! وألوان قوس المطر حقائق لا تستطيع أن تفهم - ولا تفهم - كل هذه الأبحاث، بل هي لا تعرف ما هذه المصطلحات وإلى أي علم تنتمي؟ وما الذي يُراد منها!

بينما الحقيقة هي أن هذا القرآن الذي هو بين يدي الناس آيات بينات، لا يقف عند هذا الحد، وإنما هو بحر عميق لا تنقضي عجائبه ولا تفنى غرائب، وله تخوم وعلى تخومه تخوم.. وهكذا.

ومثل ذلك كلمات أهل البيت عليهم السلام الذين أوتوا جوامع الحكم، وفي كلماتهم بحور العلم، فتختلف كلماتهم عن غيرهم لعمقها، ولسطحية كلمات غيرهم.

ونحن نجد الأبحاث القانونية البشرية، بما فيها من فلسفة وتشريعات، هي معقدة ومفصلة مع كون مصادرها بشرية فكيف بتلك الأحكام والكلمات المعصومية التي تنبع من عين الوحي، وينبوع اليقين؟

إن الطب البشري كلما توغل فيه الطبيب وتخصص وجد نفسه أمام علوم مختلفة وأعماق كبيرة، فإذا سيكون طب النفوس وأحكام الشريعة؟

ويحتمل - والله العالم - أن بعض من يثير هذه الإشكالات لما رأى نفسه لا يستطيع أن يسبح في هذا البحر العميق لعدم تأهيله العلمي، أراد أن يقطع المسألة من الأساس فقال إن الدين لا يوجد فيه هذه البحوث العميقة وإنما هو يسر وسهل، يعني سطحية وشعارات عامة.

سؤال ٤: هل هناك سند روائي صريح لهذه الأسماء (مرجع التقليد، آية الله العظمى، المرجع الولي الفقيه، المجتهد المطلق،

المجتهد المتجزئ، أهل الخبرة، الأحوط وجوباً، لزوماً..) وإذا لم تكن موجودة فهل يعد هذا مخالفة لمنهج أهل البيت عليه السلام؟

الجواب: يمكن تناول جواب هذا السؤال في نقاط:

(١) في البداية نحن لا نحذ الإكثار من الألقاب عدداً ولا نوعاً وعبرة، ونعتقد أن المراجع أنفسهم لا يجذون ذلك ولا يشجعون عليه. إذ أن الألقاب الكثيرة لا تصنع واقعا غير موجود، ولا ترفع من هو غير رفيع الشأن بل ربما انعكس الأمر. نعم قد لا يدخلون معركة مع من يستعمل هذه الألقاب، ولكننا وجدنا هذا بالعيان لا بالنقل والوصف. وجدنا ذلك في توافيقهم وأختامهم، وكتاباتهم وأحاديثهم.

(٢) في نفس الوقت نعتقد ان نقل المسألة إلى أنها (مخالفة لمنهج أهل البيت عليه السلام) ليس في محله، فبعض هذه التعابير ترتبط بالاصطلاح العلمي، والاصطلاح العلمي متطور بحسب تطور العلم، يلجأ إليه البشر لاختصار الفكرة، فبدلاً من أن يأتي بشرح مفصل لمعنى (الخبراء القادرين على تشخيص اجتهاد فلان أو أعلميته) وما يرتبط بهذا المعنى «ينحت» له اصطلاحاً يختصر كل تلك الكلمات. مثلما يفعل في الرياضيات أو الطب عندما يعطي رمزا لمعادلة أو لعنصر أو مركب، بدلاً من شرحه في كل وقت!

وهكذا مثل تعبير المجتهد المطلق والمتجري، والاحتياط
الوجوبي واللزومي، فإن هذه الاصطلاحات إشارة
إلى معانٍ ترتبط بعلم الفقه أو الأصول.. وقد نجد في
كل كتاب علمي دليلاً في بدايته أو نهايته يفصل معنى
الاصطلاح المستخدم وأنه يقصد به كذا وكذا.. ولا معنى
للاعتراض عليهم بأن ذلك مثلاً مخالف لقواعد العلم
أو منهج الدين وما شابه.. هو اصطلاح يختصر المعنى
المطلوب في كلمتين بدل أن يضطر لشرح فكرته في نصف
صفحة كلما مر بها!

(٣) نعم ربما يعترض البعض على استعمال بعض الألقاب التي
يرونها خاصة بالمعصومين عليهم السلام، ويرون أن نسبتها للفقيه
توهم باستواء منزلته مع منزلتهم، ويقولون مثلاً بأن لقب
آية الله العظمى هو خاص بأمر المؤمنين علي عليه السلام، وبأن
لقب (الإمام) عند الشيعة خاص بالإمام المطلق المعصوم.
ونحن مع هذا المعترض في كل موضع كان يُوهم استواء
المنزلة بين الفقيه والإمام المعصوم، فينبغي اجتناب ذلك
قدر الإمكان، للفارق الكبير بين المعصوم وبين الفقيه..
لكن الكلام في أنه لا يحتمل وجود هذا الإيهام، فلا نعرف
أحدًا يعتقد بأننا عندما نقول الإمام الخوئي أو الخميني أو
الحكيم نسائي بينهم وبين الأئمة! أو عندما نقول إن فلانا
هو آية الله العظمى فنسائي بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام،

بل يمكن القول إن أكثر الناس لا يعرفون أن (آية الله العظمى) هو من ألقاب الإمام أمير المؤمنين خاصة!

سؤال ٥: ربما يقال ماذا استفاد المسلمون من مراجع الدين طيلة هذه القرون وهم لم يصنعوا كهرباء ولا قطارا ولا طائرة وو؟

الجواب: يمكن أن يجاب بنفس السؤال: ماذا استفاد البشر من الأنبياء والرسل؟ وهم لم يصنعوا كهرباء ولا قطارًا ولا طائرة!

فما هو الجواب على ذلك؟ إذا كان يقبل السائل أن من لم يصنع طائرة أو كهرباء أو قطارا فلا فائدة من وجوده فهذا ينطبق على جميع المرسلين.. فهل يقبل السائل بلازم كلامه هذا؟ لا أظن ذلك لأنه حينئذ سيجعل مبتكر سيارة تسلا الكهربائية أفضل من أنبياء الله ورسله!

وأما الجواب الحلي: فإنه يعتمد على معرفة غاية وجود الانسان في الحياة هذه؟ فإذا كانت غاية وجوده عبادة الله تعالى وطاعة أوامره والوصول على أثر ذلك إلى جناته (وقبلها الحياة الطيبة في الدنيا) فهذه الغاية لا يحققها من يصنع سيارة ولا كهرباء ولا طائرة! وإنما يهدي إليها من يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فهذا هو عمل الأنبياء والمرسلين والأوصياء المعصومين، ومن بعدهم - بدرجات - مراجع الدين.

وقد ذكرنا في صفحات مضت أن أقصى ما يحققه المخترع والمكتشف والصانع أن يجعل حياة الناس الدنيوية أسهل أو أسرع،

لكنه لا يستطيع أن يجعل أخلاقه أفضل، وروحه أنقى، وحياته أطيب وآخرته أسعد! بل ربما كان نفس مخترع الطائرة والقطار أتعس الناس روحًا، وأسوأهم عاقبة!

فالجواب إذن: أنه إذا كانت غاية وجود الإنسان في هذه الحياة أن يكون أكثر ترفاً، وأسرع انتقالاً، وأجمل لباساً فيحق السؤال لماذا لم يصنع الأنبياء والأئمة والعلماء تلك الأمور ولم ينشغلوا بها، وانشغلوا عوضاً عنها بهداية الخلق إلى الخالق وتعليم الناس الأخلاق وسبل الحياة الكاملة. وأما إذا كان هدف خلقه الإنسان (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) فهذا ما لا يحصل إلا بطريق الرسل والأوصياء وبعدهم المراجع الفقهاء.

سؤال ٦: كيف يتم تعيين وانتخاب المرجع الأعلى في الشيعة؟
فإن بقية المذاهب أو الديانات طريقتها معروفة كالمسيحية وباقي المذاهب الإسلامية يعين الحاكم المفتي العام.. ثم لماذا لا يعين المرجع الأعلى في حياته من يكون بعده مثلاً كان الأئمة ينصون على الإمام التالي فيكفي الناس شر التنازع؟

الجواب: يكون في نقاط:

أ) كما سبق وأن ذكرنا فإنه لا يتم انتخاب المرجعية من خلال التوريث ولا من خلال تعيين سلطة سياسية، أما التوريث فواضح إذ لا مبرر لأن يكون شخص لأنه من نطفة فلان فيؤهله ذلك لقيادة الناس. وما وجدناه في الأئمة

المعصومين ليس من التوريث المصطلح في شيء، فقد رأينا أبناء كبارا للإمام السابق ولم يرثوا الإمام وإنما ورثها الأصغر، ولم يرثها كل أبنائه وإنما من اختاره الله واصطفاه دون غيره.. وهذا قبل أن يولدوا بعشرات السنين.

وكذلك الحال في السلطة السياسية - حتى الشرعية - فإنه ليس من صلاحيتها تعيين مرجعية الناس وإلزامهم بها.

(ب) في نفس الوقت لا يعني ذلك كما يوحي به سؤال السائل أنه لا توجد طريقة لتعيين المرجع الأعلى! أو أنه هكذا يفاجأ الناس بظهوره من دون مقدمات! كلا فإن الذي يعيش في الحوزات العلمية ويعرف ما يجري فيها يكون على معرفة - ولو تقريبية - بمن سيكون المرجع الأعلى، ما لم يحصل ظروف استثنائية كموت الشخص مثلا أو ما شابه! فإن المجتهدين والفقهاء على مدى عقود من الزمان في بحوثهم العالية تتميز آراؤهم للطلاب والعلماء فيعرف الأجود استنباطا منهم، وصاحب الآراء العلمية القوية بالقياس إلى غيره، ويقدم على غيره بهذا النحو، وبعد مسيرة طويلة - يقدم فيها امتحانا علميا وعمليا أخلاقيا - وهو تحت نظر علماء الحوزة وطلابها، فينفرز بالتدرج إما كشخصية وحيدة لا منازع لها، أو كشخصية من بين شخصيات مؤهلة لتسند هذا الموقع المرجعي.

ج) يمكن للمرجع الأعلى السابق أن يشير إلى بعض تلامذته أو غيرهم (كما ذكرنا بالنسبة لصاحب الجواهر والشيخ الأنصاري) إما بالصرحة، أو بأن يرجع في احتياطاته إليه، أو بأن يفوض إليه في غيابه أن يدرس مكانه.. أو غير ذلك من الطرق، فيكون عاملاً مساعداً في تعيين المرجع بعده وتميزه عن الآخرين. لكن هذا كله ليس تعييناً ولا يلزم أحداً. ولا يستطيع المجتهد (الذي أشار إليه المرجع السابق) أن يجادل غيره بأنه هو المعين للمرجعية. لأن كلام المرجع السابق لا يمكن أن يكون فتوى بتقليد فلان بعده، ولأن الأمر هنا هو من المواضيع الخارجية فلا إلزام للمقلدين فيها برأي المرجع. نعم يمكن أن يكون ما ذكرنا من مرجحات هذا الفقيه على غيره، وتعطي اطمئناناً للبعض بأن اختيارهم إياه اختيار صحيح.

يبقى انتخاب المرجع الذي يقلده المؤمن قراراً شخصياً وفردياً، وهو المسؤول عنه، فلا هيئة تتحمل عنه هذه المسؤولية، ولا جهة تعين له (الحبر الأعظم) كما في المسيحية أو سلطة تعين له (مفتي الديار) كما هو حال بعض المذاهب الإسلامية.

د) والاختيار الفردي والشخصي هنا أيضاً لا ينبغي أن يكون بحسب الأهواء، إنما ينبغي أن يعتمد على أساس من المعرفة، بقدرة هذا الفقيه على القيام بدوره، لعلميته أو

أعلميته، هذه المعرفة إما أن تكون شخصية كما إذا كان الشخص هو من طلاب العلم وأهل الخبرة والمعرفة بالفقهاء وتمايزهم.. وإذا لم تكن فينبغي أن يعتمد في التشخيص على أهل الخبرة الثقات، أو يحصل له اطمئنان ناشيء من مناشئ عقلائية، أو شياع في المجتمع الحوزوي الشيعي، ولكن في النتيجة هو الذي يتخذ قرار التقليد لشخص ما.

سؤال ٧: هل صحيح أن المرجعية العليا دائماً هي الفارسية، وأن هذه القومية تبعد غيرها عن مواضع المرجعية وتحصرها في المنتمي لهذه القومية؟

الجواب: قد ذكرنا في كتابنا أعلام الإمامية، أن الواقع الخارجي يشهد بكذب هذه الفكرة، فقد وجدنا في تاريخ الشيعة مرجعيات من بغداد، والحلة، وكربلاء، والنجف، وجبل عامل لبنان، وبلاد الشام وعمان (الخليج)، مثلما رأينا مرجعيات من قم وتبريز وخوي وخراسان واصفهان.. وغيرها.

ثم ما هو المقصود بالقومية الفارسية؟ هل هي بالمصطلح الحديث أي الذي يحمل جنسية إيرانية؟ فهذا المصطلح لا يعود لأكثر من اربعمائة سنة بالكثير وإلا فالأكثر من الحوزات العلمية ومن يدرس فيها كانوا ضمن النفوذ العثماني التركي. وبعض هؤلاء المراجع غادروا مسقط رأسهم وبلادهم منذ بداية الشباب واستقروا في مثل

بغداد و كربلاء والنجف كما هو الحال في بعض المراجع المعاصرين والسابقين.

هل يحسب الشيخ الأنصاري مثلاً وهو من المنطقة العربية (جنوب إيران) على أنه فارسي أو عربي؟ وهل سيكون السيد الحكيم وأسرته التي هاجر جدهم الأعلى إلى العراق منذ قرنين من الزمان كما قيل، من بلده أصفهان واستقر في النجف وولد أبنائه وأحفاده فيها.. هل سيكون بهذا المنطق عربياً أو فارسياً؟

المصادر

تم الاعتماد في كتب مدرسة أهل البيت عليه السلام على الموقع الإلكتروني لمكتبة أهل البيت <https://ablibrary.net/> وفي كتب مدرسة الخلفاء على تطبيق المكتبة الشاملة، وبعض الكتب الإلكترونية تم الإشارة لمصدرها.

١. الأندلسي؛ ابن حزم علي بن أحمد: رسائل ابن حزم، ت إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
٢. بحر العلوم: الطباطبائي السيد محمد مهدي؛ القواعد الرجالية، مكتبة الصادق طهران ١٣٦٣.
٣. البحراني، عبد العظيم المهدي: قصص وخواطر من أخلاقيات علماء الدين. نويد اسلام - قم ١٤١٩هـ.
٤. البغدادي؛ محمد بن أبي يعقوب ابن النديم: فهرست ابن النديم، ت رضا تجدد.
٥. الجواهري؛ محمد حسن النجفي: جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، ت عباس القوجاني، دار الكتب الإسلامية طهران.

٦. الحر العاملي؛ محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ١٤١٤ هـ.
٧. الحلي، أحمد بن محمد بن فهد، الرسائل العشر، ت مهدي الرجائي، مكتبة آية الله المرعشي العامة.
٨. الحلي؛ الحسن بن يوسف العلامة: إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان، ت فارس الحسون، مؤسسة النشر الإسلامي قم.
٩. الحلي؛ الحسن بن يوسف العلامة: تبصرة المتعلمين في أحكام الدين، ت احمد الحسيني، انتشارات فقيه.
١٠. حنبل؛ أحمد: مسند الإمام أحمد، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ.
١١. الذهبي؛ شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
١٢. الروحاني؛ السيد محمد صادق: أجوبة المسائل في الفكر والعقيدة والتاريخ والأخلاق، دار زين العابدين عليه السلام قم ١٤٣١ هـ.
١٣. الزُّحَيْلي؛ وَهْبَةُ بن مصطفى: الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر - سورية - دمشق.
١٤. الروزدري؛ المولى علي: تقارير آية الله المجدد الشيرازي، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - قم ١٤٠٩ هـ.
١٥. آل سيف؛ فوزي: الأمراض الاخلاقية، دار المحجة البيضاء، بيروت.

١٦. آل سيف؛ فوزي: صفحات من التاريخ السياسي للشيعنة.
١٧. الشريف الرضي: نهج البلاغة، خطب الإمام علي، ت صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني.
١٨. الشيرازي؛ السيد محمد الحسيني، إلى الوكلاء في البلاد، نسخة الكترونية/ <https://www.alshirazi.com/>
١٩. الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: من لا يحضره الفقيه، ت علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم.
٢٠. الصدوق؛ محمد بن علي بن بابويه: المقنع، ت ونشر مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، قم.
٢١. الطبراني؛ أبو القاسم: المعجم الكبير، ت حمدي عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
٢٢. الطوسي؛ محمد بن الحسن: اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ت السيد مهدي الرجائي، مؤسسة آل البيت عليه السلام قم ١٤٠٤ هـ.
٢٣. الطوسي؛ محمد بن الحسن: الغيبة، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم ١٤١١.
٢٤. الغروي؛ محمد علي: شرح العروة الوثقى، التقليد (موسوعة الإمام الخوئي) مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي ١٤٢٦.
٢٥. الغزالي؛ أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.

٢٦. الغفار؛ عبد الرسول: الكافي والكليني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٦ هـ.

٢٧. فتح الله؛ د. أحمد: معجم ألفاظ الفقه الجعفري، مطابع المدوخل، الدمام السعودية ١٤١٥ هـ.

٢٨. ابن كثير الدمشقي؛ إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، ت علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨.

٢٩. الكرباسي؛ محمد: روابط حوزة النجف الاشرف مع جامع الازهر، مؤسسة كاشف الغطاء، نسخة الكترونية.

٣٠. الكركي؛ الشيخ علي بن الحسين: جامع المقاصد في شرح القواعد، ت ونشر مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث ١٤٠٨.

٣١. الكليني؛ محمد بن يعقوب: الكافي، ت علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية طهران، ١٣٨٨ هـ.

٣٢. الكلپايگاني؛ السيد محمد رضا: إرشاد السائل، دار الصفوة ١٤١٣ هـ.

٣٣. الكوراني؛ الشيخ علي: حياة ابن أبي عقيل العماني وفقهه. مركز المعجم الفقهي في الحوزة العلمية بقم.

٣٤. المجلسي؛ العلامة محمد باقر: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٣.

٣٥. المجلسي؛ العلامة محمد باقر: ملاذ الأخيار في فهم تهذيب الأخبار، ت مهدي الرجائي، مكتبة آية الله المرعشي العامة ١٤٠٦ هـ.

٣٦. محسني: محمد آصف: القواعد الأصولية والفقهية في المستمسك تحقيق: مهدي النيازي، پیام مهر قم ١٤١٣.

٣٧. مركز المعجم الفقهي في الحوزة العلمية: حياة ابن أبي عقيل العماني وفقهه، إعداد مركز المعجم الفقهي بقم ١٤١٣.

٣٨. المشهدي؛ محمد بن جعفر: المزار، ت جواد القيومي، نشر القيوم - قم - إيران.

٣٩. المصطفوي، الشيخ حسن: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران إيران، ١٤١٧ هـ.

٤٠. النجاشي؛ أبو العباس أحمد: فهرست أسماء مصنفی الشيعة (رجال النجاشي)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٦.

٤١. اليزدي؛ السيد كاظم: العروة الوثقى، نشر وتحقيق مؤسسة النشر الإسلامي قم إيران ١٤١٧ هـ.

٤٢. <https://www.sistani.org/arabic/>.

٤٣. <https://www.kashifalgetaa.com/>.

فهرس

المقدمة	٥
تقليد الإمامية لمراجع الدين.. من أين ؟	٩
١ / معنى التقليد في اللغة والاصطلاح	١٠
◀ تاريخ نشأة التقليد	١١
٢ / هل نهى القرآن عن التقليد؟	١٦
٣ / الطرق المتصورة للوصول إلى أحكام الله	١٨
هم العدو.. هؤلاء ضد المرجعية	٣١
◀ وأول الأعداء: الجهات الاستعمارية	٣٢
◀ الثاني: الجهات الطائفية المتعصبة	٣٤
◀ العدو الثالث: في داخل الدائرة الشيعية	٣٧
◀ فمنها أصحاب الدعوات المهدوية الكاذبة	٣٧
◀ ومنهم المتسلقون للرئاسة	٤١
◀ ومنهم المتعجلون في تسنم الدور المرجعي	٤٤

- أساليبهم في إسقاط المرجعية الدينية ٤٧
- ١/ الدعوة إلى إلغاء المرجعية بالكامل ٤٧
- ٢/ الدعوة لاستبدال المرجعية بالحالة المدنية أو السياسية ... ٥٠
- ٣/ التشكيك في تشيع المرجعية ٥٢
- ٤/ التشكيك في أمانة المرجعية ٥٢
- ٥/ التشكيك في إدارة الجهاز المرجعي ٥٤
- ٦/ التشكيك في دورها وفائدتها ٥٥
- ماذا حققت المرجعية الدينية؟ ٥٧
- ١/ حفظ العقيدة والأحكام في الأمة الإسلامية ٥٧
- ٢/ التبيان الدقيق والعلمي لأحكام الشريعة ٦٠
- ٣/ الحفاظ على استقلال بلاد المسلمين ٦٤
- ٤/ حفظ الكيان الشيعي لأتباع أهل البيت ٦٨
- ٥/ الحفاظ على الوحدة الإسلامية بين الشعوب والدول ... ٧١
- أ/ ضبط إيقاع الفئات المتطرفة وجعلها في حدودها ٧٢
- ب/ الإصلاح بين الدول المسلمة عند التمكن ٧٤
- ج/ مخاطبة الشعوب والنخب المسلمة في الوحدة ٧٥
- ٦/ حفظ إيمان المؤمنين في مناطقهم وتوسعة دائرة المذهب ... ٧٦
- مميزات المرجعية الدينية الشيعية ٨١
- ١/ الدرجة العليا من الفقه والاجتهاد ٨٣

- ٢ / العدالة بمرتبة الورع ٨٤
- ٣ / الاستقلالية ٨٦
- ٤ / الاختيار الفردي الحر للمرجعية الدينية من الناس ٨٨
- ٥ / المرجعية الدينية ليست وراثية ٩٠
- ٦ / هناك صفات تفضيلية وإن كانت ليست تأسيسية ٩١
- تضحيات المرجعية الدينية ٩٣
- ◀ الزهد عفة النفس وشظف العيش ٩٤
- ◀ المعاناة مع سلاطين الجور ٩٧
- ◀ التهجير والتسفير ٩٨
- ◀ السجن ١٠٠
- ◀ والقتل ١٠٠
- هل هناك يد للغيب في المرجعية ١٠٣
- ◀ أولى النظريات: الفكرة المادية ١٠٣
- ◀ نقد النظرية ١٠٤
- ◀ الثانية: الفكرة الاجتماعية ١٠٦
- ◀ نقد النظرية ١٠٧
- ◀ الثالثة: تدخُّل الغيب ١٠٨
- المرجعية الدينية: عرض تاريخي ١١٥
- ١ / ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني ١١٦

- ٢/ الحسن بن علي ابن أبي عقيل العُماني ١١٩
- ٣/ الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (الصدوق) ... ١٢٣
- ٤/ الشيخ محمد بن النعمان العكبري (المفيد) ت ٤١٣ هـ ... ١٢٦
- ٥/ شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ... ١٣٠
- ◀ تلامذته ١٣٧
- ◀ وفاة الشيخ ١٣٧
- ٦/ العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر (ت ٧٢٨ هـ) ... ١٣٧
- ◀ دور العلامة في تشيع إيران ١٣٩
- ◀ فإنهم يذكرون في تشيعه عدة حوادث ١٤٠
- ◀ العلامة الحلي ودوره في البناء العلمي للشريعة ١٤١
- ◀ أثره في الحوزات العلمية ١٤٢
- ◀ كتب العلامة الحلي وآثاره ١٤٣
- ◀ شهادات قيمة في دوره وأثره ١٤٤
- ◀ بين العلامة والشيخ البيضاوي ١٤٥
- ٧/ المحقق الثاني الشيخ علي عبد العالي الكركي (ت ٩٤٠ هـ) .. ١٤٧
- ٨/ العلامة المولى محمد باقر المجلسي (١١١١ هـ) ١٥٠
- ◀ نقاط عن بعض أدواره ١٥١
- ٩/ الشيخ محمد حسن بن محمد باقر النجفي صاحب الجواهر (ت ١٢٦٦ هـ) ١٥٨
- ◀ ميزات الكتاب ولماذا احتل هذه المكانة؟ ١٦٠

- ◀ مرجعية الشيخ العامة ١٦٣
- ١٠ / الشيخ الأعظم مرتضى بن محمد امين الأنصاري (ت ١٢٨١ هـ) ١٦٥
- ◀ سلمان زمانه في النجف ١٦٨
- ١١ / الميرزا الشيرازي الكبير محمد حسن (ت ١٣١٢ هـ) ... ١٧٢
- ◀ الهجرة إلى سامراء ١٧٥
- ◀ بحر علم وتربية ١٧٧
- ١٢ / السيد أبو الحسن الاصفهاني (ت ١٣٦٥ هـ) ١٧٨
- ١ مرجعية الوعي السياسي والدعوة للاستقلال ١٧٩
- ◀ لقاء السفير البريطاني مع السيد أبي الحسن ١٧٩
- ◀ مع ملك الأردن والمطالبة بالاستقلال ١٨١
- ٢ مرجعية التنوير وأفكار النهضة ١٨٤
- ◀ تخريب مقام مزيف للحسين ١٨٤
- ٣ مرجعية التبليغ والوكلاء المؤثرين ١٨٥
- ◀ الشيخ بهلول والخطابة ١٨٦
- ◀ والشيخ القائي في عبادان ١٨٦
- ◀ والشيخ البشيري في كركوك ١٨٧
- ٤ مرجعية الحضور الاجتماعي ١٨٨
- ٥ مرجعية الحكمة الادارية ١٩٠
- ◀ رئيس الشرطة عندما يتغير ١٩١

- ١٣ / الإمام السيد محسن الطباطبائي الحكيم (ت ١٣٩٠ هـ) .. ١٩٣
- ◀ مستمسك العروة الوثقى ١٩٥
- ◀ المرجعية العليا ١٩٦
- ١٤ / الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني (ت ١٤٠٩ هـ) .. ٢٠٠
- ١٥ / زعيم الحوزة الإمام السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت ١٤١٣ هـ) ٢٠٦
- ◀ مرجعيته وزعامته الدينية ٢٠٩
- ١٦ / المرجع الأعلى الإمام السيد علي الحسيني السيستاني (١٣٤٩ هـ - معاصر) ٢١٠
- أسئلة وإجابات ٢١٧
- المصادر ٢٣٣

قنوات التواصل مع الشيخ

الايمل

fawzialsaif@gmail.com

الموقع الالكتروني

www.al-saif.net

قناة اليوتيوب

<https://m.youtube.com/user/Fawzialsaif>

تطبيق آيفون

<http://bit.ly/alsaifapp>

تطبيق أندرويد

<http://bit.ly/1zPHwFh>

قناة التلغرام

<http://bit.ly/1M8Lzhk>

المجموعة الصوتية الكاملة على دروبوكس

<https://goo.gl/VMmT7X>

روابط المقاطع القصيرة

goo.gl/XkTvmj

قناة الساوند كلاود

<https://m.soundcloud.com/fawzialsaif>

تطبيق الكتب اندرويد:

<https://play.google.com/store/apps/details?id=net.alsaif.books>

ايفون وايباد:

https://appsto.re/us/_ptC1b.i

الموقع الرديف

<https://al-saif.app>

الانستغرام

https://instagram.com/fawzialsaif_shortclips?igshid=195m0v23vh9mx

قناة بودكاست الشيخ فوزي آل سيف لجوالات الايفون:

<https://apple.co/31oqGiO>

المرجعية الدينية الشيعية

هل كان التقليد موجودا في زمان المعصومين عليهم السلام ؟ وهل ينبغي ان نرجع الآن الى أحاديث الائمة مباشرة من دون حاجة الى اخذ الفتوى من المرجعيات ؟ وهل حققت المرجعية الشيعية في تاريخها استقلالا للأمة او وحدة فيها ؟ ثم كيف يتم تعيين المراجع ؟ هل هناك جهة او جهات تقوم بذلك ؟ وهل تأتي اللعب السياسية بمرجع غير مناسب ؟ ام انّ للغيب دورا مهما في هذا الشأن ؟ ويده ليست مغلوطة ؟

هل يمكن رصد الفئات التي تحارب المرجعية ؟ وتشخيص أغراضها في ذلك ؟ ومعرفة خريطة تحركها في الهجوم ؟

هذه الاسئلة - وغيرها - يحاول المؤلف في هذا الكتاب بحثها والاجابة عليها.

فوزي السيف